

قاسم شُعيّب

مشهد الفتنة

معارك التأويل في الإسلام الأول



قاسم شُعيّب

مشهد الفتنة

معارك التأويل في الإسلام الأول



مشهد الفتنة

معارك التأويل في الإسلام الأول

قاسم شُعيّب





ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-565-7

الطبعة الأولى 2014



المحتويات

مقدمة

كان طموح الإسلام منذ البداية صناعة أمة جديدة ذات ثقافة مختلفة تقطع مع تنويعات الثقافة الجاهلية التي تنتصر لممارسات الاستبداد والغلبة والثأر، وخيارات التجهيل والإفقار والتهميش.. من أجل تأسيس لثقافة تنحاز إلى قيم الشورى والحوار والعلم والعدالة والحرية والفضيلة.

لكن الإسلام لم ينجح في ذلك كثيرًا من الناحية العملية، فلم يمض وقت طويل على غياب النبي ﷺ حتى عادت إلى الواجهة ثقافة الاستبداد والتجهيل والاستعباد والتهميش لتحكم باسم الدين الجديد هذه المرة. إن المعارك التي اشتعلت بين المسلمين بمجرد غياب النبي، لم تكن صراعًا حول فرائض الدين وطقوسه، ولكنها كانت معارك حول قيم هذا الدين وثقافته. وهذه المعارك هي التي ستؤسس ذلك الشرخ التاريخي الكبير في جسد الأمة الوليدة.

وستكون المعارضة القوية، التي انطلقت ضد سياسات عثمان، صرخة احتجاج قادها الإسلاميون الأوائل الذين كانوا يقفون ضد الاستبداد والفساد وكل ما يمثله ذلك من خروج على خط النبي. ستنتهي تلك الثورة بقتل عثمان، لكن الفتنة لم تبدأ بهذا الحدث المزلزل، بل إنها بدأت قبل ذلك بكثير، بدأت منذ وفاة النبي، ليكون قتل عثمان مجرد نتيجة لمسار خاطئ.

وبعد قتل عثمان، اختار الناس بإرادتهم الحرة عليًا خليفة لهم. لكن خلافة الإمام لن تكون أكثر من جملة اعتراضية في سياق أموي. فقد استطاع الأمويون الاستئثار بالمناصب والثروات زمن عثمان، وهو ما سيمنحهم القوة اللازمة لمحاربة الخليفة الجديد، والتحالف مع خصومه. كان علي، رجل الإسلام الخالص، مستبعدًا ومهمشًا منذ البداية بسبب اتفاق مسبق بين جماعة السقيفة. وهو لذلك سيدفع ضريبة العزلة التي فُرضت عليه، لكنه لن يدفع ذلك وحده بل سيدفعها الإسلام نفسه وسيدفعها كل المؤمنين به.

لقد نكث طلحة والزبير بيعتهما بدعم من معاوية، وأقنعا عائشة بالخروج معهما من أجل أن تلعب دور المحرض ضد الإمام، فيما تكفل الأمويون بتقديم المال والسلاح. كانوا جميعًا يكرهون عليًا ويحقدون عليه ليس فقط بسبب تفوقه وتاريخه النضالي الكبير إلى جانب الرسول، وسياساته المعلنة في العدالة الاجتماعية الصارمة، ولكن أيضًا بسبب الطموحات السياسية لهذا التكتل.

ولن يكون قتل عثمان سوى وسيلة لتبرير الانشقاق والخروج على الشرعية. يبدو ذلك واضحًا بعد استيلاء معاوية على السلطة، عندما توقف نهائيًا عن الحديث عن دم عثمان وأعلن من على منبر الكوفة، بعد الصلح مع الحسن، أنه كان يقاتل من أجل أن يتأمَّر على الناس. بل إن الذين كانوا يطالبون بالثأر لدم عثمان وشاركوا في محاربة الإمام، كانوا جميعًا متورطين في قتله إما بالتحريض المباشر ضده، كما هي حالة عائشة وطلحة وعمرو بن العاص.. وإما بخذلانه عندما طلب المساعدة أيام الحصار، كما هي حالة معاوية. وحده الإمام كان يدافع عنه، فيرسل ولديه لحراسته ويبعث إليه بقرب الماء لفك الحصار عنه.

سيصل معاوية إلى السلطة في النهاية، وسيكون وصوله نتيجة طبيعية لمسار بدأ بالانحدار منذ أن فارق النبي الحياة. فقد قرر الحسن، الذي اختاره المسلمون خليفة بعد اغتيال الامام علي، أن يتنازل عن السلطة حفاظًا على شيعته بعد أن خذله جيشه. لكن الحسين، الذي أراد يزيد أن يفرض عليه البيعة، سيختار الشهادة. لم يكن ذلك خيارًا مزاجيًا، بل خيارًا ضروريًا من أجل الإسلام الذي أصبح مستهدفًا بشكل مباشر ليس فقط في ثقافته وقيمه وإنما أيضًا في طقوسه ومقدساته هذه المرة.

لقد بدأت الفتنة بيضاء في السّقيفة، واحمرّت بعد قتل عثمان، لكنها ستبقى مشتعلة، وسيعاني بسبب ذلك كل المؤمنين الصادقين على مرّ التاريخ. ورغم الأهمية البالغة لتلك المرحلة سواء لناحية الانقسامات التي فجّرت الأمة، أو لناحية تأثيرها العميق في وعيها، فإن الكتب الفكرية ذات المنحى

التأريخي التي تناولت هذه المرحلة نادرة جدًا. ولعل سبب ندرة الكتابة في هذا الموضوع هو صعوبته البالغة، وحساسيته الشديدة بعد أن تحول رموز الفتنة إلى شخصيات مقدسة لا يجوز تناول سيرهم بالدراسة والنقد.

إن كل ما حدث بعد وفاة النبي ﷺ لابد له أن يخضع، عند تقييمه، للموضوعية العلمية المنطلقة على أساس معطيات التاريخ باعتباره المقياس الذي لا غنى عنه لمعرفة حجم الانقلاب الذي طرأ على سلوك المسلمين الأوائل بعيدًا عن هالة القداسة المزيفة التي أُضْفِيَتْ عليهم، والتي استقر بسببها ذلك الخلط المستحكم بين إسلام الوحي والتاريخ الذي صنعه الطغاة وأدواتهم وكُتب باسم هذا الدين دون وجه حق.

إن التمييز بين هذا الدين والتاريخ المنسوب إليه هو الذي يسمح لنا باكتشاف الرواسب الجاهلية التي ظلت تحكم الكثير من العقول بعد الإسلام. فليس من السهل أن يتخلى الإنسان عن أفكاره اليابسة وثقافته القديمة بمجرد أن يعلن تبنيه لعقيدة جديدة. إن المجتمع العربي لم يغادر نهائيًا موروثاته الثقافية وتقاليده البدوية من أجل أن يحمل في عقله وقلبه ثقافة الدين الجديد وقيمه في كل امتداداتها. وهذا هو ما تؤكده الأنتروبولوجيا الاجتماعية التي تصر على أن التغيير في الأفكار والمفاهيم والثقافة والقيم لا يمكن أن يحدث إلا على نحو تدريجي وعلى امتداد مساحة زمنية طويلة.

لقد أراد الإسلام منذ البداية أن يقدم نفسه نظامًا شاملًا للحياة، وهو لذلك بنى الدولة باعتبارها الإطار السياسي الذي من دونه لا يمكن صناعة الإنسان الذي يريده. وكان الإسلام، كما هي الأديان والأيديولوجيات، يحتاج إلى الأدوات السياسية التي تمكنه من نشر مفاهيمه وقيمه وثقافته.. فدون ذلك، يقضي على نفسه بالفشل إذ لا حياة لأية دعوة تفتقد الدولة الحاضنة لها والمدافعة عنها.

وما قدّمه الإسلام ليس هو الدولة التيوقراطية التي يقف على رأسها حاكم يحيط نفسه بهالة من القداسة ليضع نفسه فوق كل مساءلة أو حساب، وليسمح لنفسه بتجاوز كل القوانين، بل إن الإسلام أراد لدولته أن تكون «دولة مدنية»

تديرها المؤسسات ويحكمها القانون الذي يخضع له الجميع حكّامًا ومحكومين بشكل متساوٍ.

غير أن ما حدث في التاريخ هو انزلاق الحكم من الصفة المدنية إلى الصفة التيوقراطية منذ استيلاء الأمويين على السلطة ليصبح الحاكم خليفة لله وظله في أرضه وعينه على خلقه، وليتحول من ثم إلى شخص مقدس تُحرم مساءلته ويجوز له ما لا يجوز لغيره. لقد كان عثمان بن عفان هو مؤسس هذا الاتجاه، عندما ادعى أن الخلافة قميص ألبسه الله إياه من أجل تبرير كل ممارساته الخاطئة.

وهذا الكتاب يتناول بشكل خاص فترة الخلافة الأولى التي استمرت حتى استيلاء معاوية على الحكم، لكنه لا يهمل المرحلة التأسيسية التي نقل فيها الإسلامُ العربَ من سلطة القبيلة إلى سلطة الدولة. وقد حاولتُ فيه تفهّم طرائق التفكير لدى أهل ذلك الزمان والقيم التي كانوا يلتزمون بها، والدوافع التي كانت تحركهم، وجعلت النصوص تتكلم أولًا من أجل أن تكون الاستنتاجات منطقية وغير مسقطة. وإذا كان الكتاب يتضمن أحيانًا انتقادات، فذلك بسبب الموضوعية العلمية التي ترفض المحاباة على حساب الحقيقة التاريخية.

إن دراسة تلك المرحلة التأسيسية في تاريخ الإسلام ليست مجرد فضول علمي، ولا هي محاولة لنكء الجراح، بل إن ذلك يقع في قلب الجهود التي تُبذل من أجل قراءة الإسلام قراءة علمية بعيدًا عن عمليات التزوير والتعمية التي أرادت التغطية على كل ما حدث. إن الحقيقة التي يهرب منها الكثيرون هي أن سياسات التجهيل والتزوير والاستبداد والقمع والتقتيل والتشريد والفساد التي خضع لها المسلمون بشدة، تم تأسيسها منذ تلك المرحلة.. وقد أصبح ضروريًا اليوم إخضاعها برمتها للنقد العلمي الصارم الذي لا يجامل على حساب الحقيقة.

ولن ينجح المسلمون في الخروج من تخلفهم ماداموا يفهمون دينهم كما أراد لهم رموز الاستبداد والفتنة، وما داموا ينظرون إلى مرحلة كاملة من

تاريخهم بعين القداسة دون القدرة على تجاوز تداعياتها التي مازالت تتلبس بهم حتى اليوم.

لقد كانت الفتنة مرحلة مفصلية في تاريخ الإسلام، فهي التي أسست انشطار الأمة إلى فرق ومذاهب يدعي كل منها أنه الممسك بأطراف الحقيقة. سيلجأ أهل السنة إلى إضفاء سمات القداسة على تلك المرحلة ورموزها ليصبح الخلفاء راشدين والصحابة عدولًا منزّهين. بينما سيرفض الشيعة ذلك على إطلاقه ولن يعترفوا إلا بخلافة علي والحسن. أما الخوارج الذين نجد بقايا لهم في تونس والجزائر وليبيا وعمان فإنهم لم يعترفوا إلا بخلافة أبي بكر وعمر.

بدأت الانقسامات الداخلية بشكل مبكر وانتهت باستيلاء الأمويين على السلطة بشكل كامل ليتم العبث بالإسلام والمسلمين على نطاق واسع. ستختفي النسخة الأصلية للإسلام لتبقى حبيسة عقول الطليعة المؤمنة وسجينة قلوبهم، بينما ستنتشر بقوة السيف نسخ مشوّهة صنعها كهنة البلاط وسماسرة العقيدة من أجل أن تكون الأيديولوجيا التي يدين لها الحاكم في وصوله إلى السلطة واستمراره فيها.

قاسم شعيب
دمشق 2011/1/3
بريد الكتروني
kacemchouaieb@hotmail.com

الوصل الأول

عرب الجاهلية: تأصيل تاريخي

يطلق القرآن على المرحلة السابقة لظهور الإسلام اسم الجاهلية. لكن هذا المفهوم لا ينطبق فقط على حياة العرب قبل الإسلام بل يتسع ليشمل كل الأنماط الفاسدة للحياة في أي مكان أو زمان. والجهل المقصود هنا يشمل العقيدة الدينية حيث كانت الوثنية هي التي تهيمن، كما يشمل الرؤية الكونية حيث كانت الأساطير والخرافات حول مبدأ الحياة ومصير الإنسان هي التي تحكم العقول. وهذا المفهوم يشمل أيضًا معنى البداوة في قيمها التي كانت تحكم سلوك الإنسان العربي فيما هي أخلاقيات الغلبة المستبيحة والثأر الحاقد والقوة المنفلتة، وتنويعات الظلم الاجتماعي والحمية القبلية والغضب المجنون.

وهذا يعني أن الجاهلية ليست إلا ذلك الإطار الاجتماعي والسياسي المتخم بالجهل النظري حيث لا مكان للعلم والمعرفة أمام هيمنة الخرافات والأساطير والأوهام والظنون.. والمليء بالجهل العملي فيما هو انحطاط الأخلاق وشيوع الظلم وسيادة الانفعالات، وهذا هو المعنى الذي كان يشير إليه عمرو بن كلثوم (ت600م):

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لكن الجاهلية بما هي نسق في التفكير وطريقة في السلوك، لا تتناقض مع الحضارة التي تحيل على الانجاز المادي الذي يمكن أن تحققه أمة من الأمم مهما كان لونها الثقافي. إننا نجد لدى العرب قبل الإسلام، باستمرار، حضارات متعددة في الجزيرة العربية في اليمن والحيرة والشام ومصر وحتى في المناطق البعيدة التي هاجروا إليها كما هي حضارة قرطاج التي بناها الفينيقيون العرب.

توزع العرب في شبه الجزيرة العربية

كان العرب ينقسمون إلى فريقين: القحطانيون في اليمن. والعدنانيون في الحجاز حيث كانوا يقيمون حول مكة إلى أن استولى عليها قصي بن كلاب واستقر الأمر لقريش.

وبعد انهيار سد مأرب سنة 447م أو 450م، ثم سنة 532م وخراب مملكة سبأ، هاجر القحطانيون إلى الشمال، ومكثت إحدى قبائلهم، وهي قبيلة خزاعة، فترة في مكة ثم تركتها. بينما استقر بعض القحطانيين الآخرين في يثرب، وإليهم ينتسب الأوس والخزرج. أما الآخرون فقد اتجه بعضهم نحو سوريا في الشمال بينما سكن آخرون الشمال الأدنى للجزيرة العربية. وقد تكونت في منطقة الشمال الأدنى هذه مملكة الغساسنة لاحقًا. وهي المملكة التي كانت تخضع للروم البيزنطيين حيث كانت تُستخدم منطقةً عازلة ضد غارات البدو العرب. بينما كان الفرس يستخدمون مملكة الحيرة في العراق للغرض نفسه.

وكان العرب يقسمون أنفسهم إلى عرب بائدة وهم قبائل ثمود وعاد وطسم.. وعرب عاربة وهم القحطانيون الذين كانوا يلبسون عمائم صفراء ويرفعون رايات صفراء أيضًا، وعرب مستعربة وهم العدنانيون الذين كانوا يلبسون عمائم حمراء ويرفعون رايات حمراء أيضًا.

وعلى هذا النحو كانت تتوزع القبائل العربية في شبه الجزيرة من شمالها إلى جنوبها وسط مناخ صحراوي قاسٍ سيكون له بلا شك تأثيره الكبير في حياة الناس وقيمهم لتكون البداوة هي السمة الغالبة عليهم، حتى أن مفهوم البداوة سيتماهى مع مفهوم العرب.

ولم يكن العرب وحدهم من يسكن شبه الجزيرة، بل كانت هناك أقوام أخرى تستوطن أطراف المنطقة في سورية والعراق واليمن من السومريين والأكاديين والآشوريين والكرد والفرس.. لكن ما يوحّد هؤلاء هو أن أغلبهم كانوا ساميين.

كانت المنطقة العربية، إذن، مقسمة إلى ثلاثة أقاليم متمايزة واحدة في

الشمال هي سورية وثانية في الوسط هي الحجاز ونجد وثالثة في الجنوب هي اليمن.. إلى أن جاء الإسلام ووحدها جميعًا. لكن المنطقة الشمالية كانت الأكثر تحضرًا بحكم علاقتها بالإمبراطوريات القريبة وانفتاحها على المتوسط، الحوض الذي تأسست حوله أعظم الحضارات في أثينا وقرطاج وروما والإسكندرية.

فقد اشتغل الفينيقيون ذوو الأصول العربية بالتجارة التي كانت مفتاح التعرف إلى حضارات أخرى ذات شأن. وهم الذين سيتمكنون من تأسيس قرطاج ومصارعة روما. وبديهي أن تتواصل تأثيرات ذلك كله إلى زمن ظهور الإسلام رغم أن الرومان هم الذين أنهوا سيطرة القرطاجيين واستعمروا جنوب المتوسط.

أما في الجنوب حيث اليمن، فقد كان تصدير البخور إلى سورية وتوفر زراعة سقوية أساس ازدهار اقتصادي كبير. وقد عرف اليمن كل مظاهر الحضارة في المدينة والدولة والفن والكتابة، لكن الحضور البدوي لم يكن يفارقه رغم أن البدو العرب كان يُنظر إليهم بوصفهم غرباء عن مدن اليمن التي كان لكل منها عربها.

وإذا كانت المنطقة الشمالية والجنوبية تغلب عليها الحضارة، فإن المنطقة الوسطى ستكون منطقة الحياة البدوية حيث القبائل التي تعتمد على الترحال وتربية المواشي. غير أن قريش التي استقرت في مكة لن تعيش حياة الترحال، وستجد في التجارة ورعاية الكعبة مصدرًا أساسيًا لاقتصادياتها، وهو ما سيمكنها من الدخول في حياة مستقرة أقرب إلى التحضر.

لكن مصدر التمدن العربي سيأتي دائمًا من الأطراف في الشمال حيث بصرى والعلا والحِجر والبتراء، وفي الجنوب حيث سبأ وشبوه وتمنع وظفار ونجران. في هذه الأطراف يمكننا بوضوح الحديث عن الدولة التي تَجمع وتُلزم. ومن هنا كانت المنطقة الوسطى تعيش ذروة الجاهلية حيث تهيمن قيم البداوة، ويغيب العقل المتوازن، وتحكم الغرائز القبلية.

كانت مكة ملتقى القبائل العربية بحكم موقعها الديني، وهذا ما سيؤهلها

لأن تكون نقطة وصل بين العرب جميعًا. لم تكن مكة بأهمية مدن أخرى كالحيرة أو صنعاء من الناحية السياسية، غير أن تميزها يأتي من احتضانها الكعبة، بيت الله الحرام، الذي سيكون تطهيره من أصنام العرب وآلهتهم أولى مهمّات الإسلام.

ومع بداية ظهور الإسلام كانت مدن الأطراف خاضعة للمحتلين، كانت الحيرة تحت الهيمنة الساسانية، وكانت بصرى في الشمال خاضعة للبيزنطيين. أما اليمن فقد بدأ يرتد نحو البداوة فاقدًا بذلك نضارته الحضارية. ومع هذا التشتت السياسي كان العرب موحدين في اللغة والثقافة، لكنهم لم يكونوا يمثلون أمة تحتضنها دولة واحدة، كما لم تكن لهم الأهداف نفسها. فوحدة اللغة والثقافة ليست كافية لظهور الأمة الواحدة والموحَّدة.

دين العرب

كان العرب في معظمهم مشركين، كانوا يعبدون الأوثان التي ترمز إلى آلهة متعددة بتعدد القبائل، فقد كانت لكل قبيلة آلهتها. هذا التشتت الديني كان يعكس تشتتًا قبليًا وسياسيًا. إن الدين - أو الايدولوجيا - هو وحده الذي يملك قوة توحيد الأمم. أما اللغة والثقافة فهما عاجزتان تمامًا عن ذلك. ومن هنا كانت ضرورة ظهور دين جديد قوي وحقيقي يمكن أن يوحّد العرب وينقذهم من التشتت والضياع.

لقد كان العرب جميعًا توحدهم رابطة الدم أو كما يُفترض ذلك، فمضر وقيس وربيعة ينتمون إلى عرب الجزيرة، وكانوا في معظمهم مشركين، ولم تنجح لا اليهودية ولا المسيحية في إخراجهم من دينهم. كانت هناك آلهة متعددة تعبد ربما بطريقة واحدة كما هي حالة اللات والعزى ومناة وهبل الذي كان منتصبًا عند الكعبة إلى جانب إيساف ونائلة. وفوق ذلك كان لكل بيت صنمه الذي يعبده، فالأصنام كانت تباع في الأسواق، وكان البدو يشترون آلهتهم في موسم الحج! وعندما دخل النبي ﷺ مكة وجد فيها 360 صنمًا[1]. أما مناة

(1) الأزرقي، **اخبار مكة**، ج1، بيروت، د ت، ص 121.

آلهة الأوس والخزرج والغساسنة فقد كانت موجودة في قديد على ساحل البحر، وكان العرب يذهبون إلى زيارتها بعد انتهاء طقوس الحج[1]، بينما كانوا يزورون اللات إلهة ثقيف بعد الحج والطواف، تمامًا كما كانوا يفعلون مع العُزّى إلهة قريش وكنانة وخزاعة ومضر المقدسة.

ويذكر القرآن اللات والعزى ومناة آلهة الحجاز الكبرى، ونسر ويعوق وسواع.. آلهة اليمن وقبائل الشمال. ويعدد ابن الكلبي[2] آلهة أخرى كالأقصر وذو الخلصة ورُضى وسعد وذو الشرى والفلس وذو الكفين.. وهي كلها آلهة مشهورة بين العرب.

وبعض هذه الآلهة يرجع إلى أصول قديمة كاللات، أنثى الإله، والعزى ومناة. فهي آلهة قديمة جدًا في الهلال الخصيب وترجع إلى الألفية الثانية قبل الميلاد. كما نجد في الشمال الإله قيس ومنه تسمية امرؤ القيس وعبد القيس. ونجد أيضًا شيْع العوم ويغوث وقَدْ (gad)[3]. ويشير القرآن إلى أن أول ظهور ليعوق ونسر وسواع.. كان في قوم نوح. إنها إذن آلهة قديمة ذات امتدادات سامية أبقى عليها العرب وعرّبوا أسماءها.

أما البدو فكانت لهم خيامهم المقدسة التي يسمونها بيتًا أو طاغوتًا يطوفون حولها كما يُطاف حول الكعبة. وكانوا ينقلون معهم هذه الخيام في ترحالهم. لكن ما كان يوحّد العرب في طقوسهم الدينية هو الحج. كان الجميع يلتقون في مكة في موسم الحج فيطوفون بالكعبة ويهرولون بين الصفا والمروة ويذبحون الهدي ويقفون في عرفات والمزدلفة.. أما صلاتهم فلم تكن إلا مُكّاء وتَصدية كما يحدثنا القرآن[4] أي مجرد صفير وتصفيق تقليدًا لغناء الطيور.

وبالتوازي مع ذلك كانت هناك نشاطات تجارية واسعة فكانت تقام ثلاث أسواق سنوية هي عكاظ وذو المجاز ومجنة. وكان بنو صوفة وبنو صفوان وبنو

---

(1) م ن، ج 1، ص 124.

(2) ابن الكلبي، **الأصنام**، ص ص 100 ـ 103.

(3) هشام جعيط، **تاريخية السيرة المحمدية في مكة**، دار الطليعة، 2007، بيروت، ص 96.

(4) سورة الأنفال، الآية: 35.

عدوان وبنو مرة بن عوف وبنو تميم يتولون تنظيم الحج فيما كان القرشيون يتولون حرم الكعبة بعد أن طردوا الخزاعيين وبني بكر بن عبد مناة[1].

إن هذا يعني أن الإنسان العربي كان في حاجة إلى العبادة كما هو شأن كل المجتمعات البشرية، فالتدين نزعة طبيعية لا يمكن تجاوزها، ولابد من التعبير عنها من خلال طقوس وشعائر. لكن هذا الإنسان أخطأ الطريق كما هي حالة كل الوثنيين، وبدل أن يتجه إلى الله الواحد ليعبده ويمجده اخترع آلهة متعددة لتكون لكل قبيلة آلهتها.

كان ذلك انعكاسًا مباشرًا لحسية الوعي لدى إنسان تلك المرحلة التاريخية وغلبة الأوهام على إدراكاته. لقد صنع أصنامًا وتماثيل وجعلها ترمز إلى هذه الآلهة التي يعبدها.

رفض الإسلام هذه الوثنية وأكد أنه لا وجود إلا لإله واحد يدبر هذا الكون الذي خلقه، وهو الذي يحمل كل صفات الكمال والجلال التي تجعله المطلق الذي لا تدركه الحواس ولا تحيط به العقول. وهو لا يحتاج إلى وسطاء من أجل التواصل معه، بل إنه على العكس من ذلك يريد لهذا الإنسان أن يعبده على نحو مباشر، وهو معنى التوحيد في العبادة.

لقد كانت الوثنية مهيمنة في الجزيرة العربية، إلا أنها لم تكن راسخة فالعرب كانوا يؤمنون بالإله الواحد، وكانوا يعتبرون هذه الأصنام ترمز إلى آلهة صغيرة تقربهم إلى الله ويستشفعون بها إليه. فنجد مثلًا أوس بن حجر يقول:

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله، إن الله منهن أكبر

وقد جاء النص القرآني ليؤكد هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2] بل يمكن القول إن الكثير من العرب لم يكونوا يبالون بهذه الآلهة وكانوا يسخرون من الذين يعبدونها على طريقتهم.

(1) الطبري، ج2، القاهرة، 1969م، ص 254.

(2) سورة الزمر، الآية: 3.

لكن الجزيرة العربية لم تكن تخلو من بعض الديانات الأخرى. فقد كان هناك الصابئيون الذين يعبدون الكواكب والنجوم والذين كانوا منتشرين في اليمن وحران وشمال العراق. وكان هناك وجود للديانة الزرادشتية في البحرين[1].

كما كانت هناك اليهودية المنسوبة إلى النبي موسى. وقد وجد اليهود في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام أقله بخمسة قرون بعد أن هربوا إليها خوفًا من اضطهاد الروم. وقد كانوا يتمركزون أساسًا في يثرب واليمن.

ولم تخل المنطقة من المسيحية حيث كانت قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال وبعض القبائل اليمنية في الجنوب تدين بها. كما نجد في نجران القريبة من يثرب قبائل تلتزم بهذه الديانة.. وقد دخلت المسيحية إلى الجزيرة العربية بفضل جهود أباطرة الروم البيزنطيين إلا أنها فشلت في اجتذاب أنصار كثيرين.

العرب وثقافة التوحيد

لم تكن المنطقة العربية خالية، إذن، من عقيدة التوحيد والقيامة والبعث والآخرة، ولا كان أهلها يجهلون أسماء الملائكة والجنة والنار.. لقد كانت دائمًا هناك رسالات سماوية متتالية سواء في الفرع الإسحاقي أو في الفرع الإسماعيلي. إننا نجد مثلًا قس بن ساعدة الإيادي (ت600م) معروفًا بنزعته التوحيدية الخالصة. كان يعظ الناس ويحذرهم من سوء المآل. وكان النبي ﷺ معجبًا بأقواله.

ويروي عنه بعض معاصريه فيقول: «دنوت منه وسلمت عليه فرد السّلام.

---

(1) الزرادشتية نسبة إلى زرادشت ـ حرفيًا عن الفارسية صاحب الجمل الأصفر ـ الذي كان يؤمن بأن الله هو المهيمن وهو الخالق، وكان يسميه (أهورا مزدا) أي «خالق الكون». وهو يتمظهر في الأرواح الطيبة (أرمزدا) والأرواح الشريرة (أهرمان). والمجوسية هي تحريف للزرادشتية جعلت من أرمزدا وأهرمان إلهين الأول للخير والثاني للشر. ومن هنا عبادتهم للنار التي ترمز إلى النور والخير، وانقلاب الزرادشتية إلى مجوسية ثانوية تؤمن بإلهين. أما كتابهم المقدس فهو الأبستاق Avesta.

وإذا بعين خرارة في أرض خواء ومسجد بين قبرين.. قال [قس]: هذا قبر أخوين لي كانا يعبدان الله معي في هذا المكان، لا يشركان بالله شيئًا»[1].

كانت الجزيرة العربية، على هذا النحو، تضج بالأفكار والمصطلحات الدينية التي سيلتقط القرآن الكريم بعضها فيما بعد كما هي مفردات السنة والشريعة والوحي والتدبر والنوافل والذنوب والحلال والحرام والشفاعة والقيامة.. وهو ما يعني أن القرآن أقر الكثير من العقائد والحكم العربية التي كانت متداولة، ذلك أن القرآن لا مشكلة لديه في إقرار ما هو صائب وجميل.

بل إن بعض الشعراء كان يفيض شعره بالمفاهيم الدينية وكان ينتظر خروج نبي يوضح الحقيقة بشكل نهائي كما هي حالة أمية بن الصلت الذي كان يقول:

ألا نبي منا فيخبرنا ما بعد غايتنا في رأس محيانا

لكنه عندما رأى النبي وقرأ عليه أول سورة ياسين أعرض عنه ورفض الإسلام. وكان فيما قاله النبي عنه: «لقد أسلم شعر أمية ولم يسلم قلبه». أما زيد بن عمرو بن نفيل فهو أول من نجد في شعره لفظ «الإسلام» وكان في سلوكه قريبًا من الإسلام غير أنه هو الآخر لم يُسلم ولم يؤمن برسالة النبي ﷺ.

لقد كان العرب ينتظرون نبيًا منهم وشاع بينهم القول «لقد أطل عهد نبي». غير أن الكثير من هؤلاء لم يؤمنوا بالنبي ﷺ لما ظهر لأسباب مختلفة.. ربما تصور بعضهم أن هذه الرسالة وهي تقر الكثير من المفاهيم السابقة وتستخدم الكثير من مفردات الحكماء والشعراء، وتكرر أقوالًا سابقة لا تأتي بجديد.. وربما ظنوا أن النبي لم يكن سوى طالب ملك يريد أن يتسيّد عليهم.

ولم يفهم هؤلاء أن القرآن جاء من أجل تنقية الثقافة العربية من أخطائها وانحرافاتها، وتقديم الجديد الذي يصلح الواقع ويسمو بالإنسان. لقد قدم القرآن ما لم يقدر على فعله الشعر والحكمة قبله. فصاغ في إطاره نظامًا

---

(1) محمد سعيد العشماوي، **الخلافة الإسلامية**، ط5، دار الانتشار العربي، 2004، بيروت، ص 92.

متكاملًا للحياة في أبعادها الروحية والاجتماعية والسياسية. وأعطى الإنسان قيمته التي يستحقها. وفوق ذلك استطاع النبي أن يبني أمة جديدة على أساس عقيدة الإسلام وقيمه.

كان هدف القرآن إظهار الحقيقة، وهو لذلك لم يلغ كل ما جاء في كتب الأديان السابقة كما هي التوراة والإنجيل، وتردد صداه في شعر الشعراء وحكمة الحكماء. لقد أقر ما كان يمثل الحقيقة فيها، ولكنه صحح ما تعرض منها للتحريف والتزييف، وأظهر ما أخفاه رجال الدين من الأحبار والرهبان من مضامينها التي كان من شأنها أن تفسد عليهم مصالحهم الخاصة. كان القرآن الحلقة الأخيرة في سلسلة الوحي، وكان ذلك يقتضي أن يكون مصدّقًا لما بين يديه ومهيمنًا عليه. وهذا يعني أنّ القرآن كان يلعب دور الحكَم الذي يشير إلى أخطاء الكتب السابقة التي لم تسلم من التلاعب.

وكان لافتًا تركيز القرآن على عالم الآخرة الذي هُمّشِ كثيرًا في الأناجيل واختفى تمامًا من التوراة. وهذا مفهوم، لأن القوانين والتشريعات والقيم التي دعا إليها الإسلام لا يمكن لإنسان بسيط أن يحترمها لذاتها. بل حتى الإنسان، الذي يملك المعرفة والقيم، يحتاج إلى الدافع والزاجر من أجل احترام هذه القوانين والقيم. إنها طبيعة الإنسان الذي يبحث عن جزاء عن أعماله الصالحة، ويمتنع عن الأعمال القبيحة عندما يوقن بالحساب ولو بعد حين.

ورغم أن الأديان المختلفة لا تعترف بالقرآن وحيًا إلهيًا، إلا أن القرآن لا يعاملها بالمثل. إنه يعترف أنها في الأصل أديان وحي، ولكنها تعرضت للتزييف. لقد تقَوَّل الذين اختطفوها على الله ونسبوا إليه ما لم يُوح به.

ولا يتناول القرآن الأديان الهندية فلا يتحدث مثلًا عن الفيدا كتاب الهنود المقدس، لكنه في المقابل يتحدث عن المجوسية دين زرادشت المحرف، ويتحدث عن الصابئة. وفي كل الأحوال فإنه يضع الأديان الأخرى في خانتين: خانة الأديان ذات الأصل الإلهي ولكنها تعرضت للتحريف كاليهودية والنصرانية والمجوسية.. وخانة الأديان الوضعية كما هي الأديان الوثنية في الجزيرة العربية

وأديان الهند والصين وأفريقيا: الهندوسية والبوذية والتاوية والشنتوية والاحيائية.. فهو يميز بين أهل الكتاب والمشركين.

والباهر في النص القرآني أنه يتناول كل شيء: الدين والتاريخ والعلوم والقوانين والإنسان والمبدأ والمصير.. بشكل مختصر ومكثف ومدهش.. وهو لذلك استحق أن يكون كتابًا مركزيًا بالنسبة إلى المسلم الحقيقي.. وعلى هذا النحو يتقدم القرآن على أي كتاب مقدس آخر. فإذا كانت الكتب الأخرى تقتصر على الحياة الروحية للإنسان فإن القرآن لا يكتفي بذلك بل ينطلق إلى الحياة الإنسانية في أبعادها المختلفة.

تاريخ قريش

يُطلق اسم قريش على مجموعة من القبائل تنسب إلى مضر. فقريش هو الاسم الآخر لمضر هذا. وعندما سكنت هذه القبيلة مكة أصبح هذا الاسم يميزها عن القبائل العربية الأخرى.

والعشائر التي تشترك في الانتساب إلى مضر وتسمى كلها قريش هي بنو الحارث وبنو عامر وبنو عدي وبنو جمح وبنو سهم وبنو تيم وبنو مخزوم وبنو زهرة وبنو أسد وبنو عبد الدار وبنو عبد مناف. وكانت السلطة موزعة بين هذه العشائر بعد أن كان قصي مؤسس مكة يجمع بين يديه كل السلطات.

نشأ قصي بن كلاب عند أخواله بقضاعة التي كانت تسكن مشارف الشام. وانتقل إلى مكة في شبابه وتزوج هناك بنت حليل الخزاعي الذي كان سيد مكة في ذلك الوقت. وفي سنة 440م تقريبًا طرد قصي خزاعة واستولى على مكة ليرث ملك أبي زوجته حليل الخزاعي. وخزاعة هو لقب حارثة بن عمرو الذي يشكل بنوه فخذًا من الأزد تركوا اليمن وجاءوا إلى مكة بعد انهيار سد مأرب.

وتشير بعض المصادر إلى أن سيدهم عمرو بن لحي الخزاعي هو الذي جاء بالأصنام من الشام وأسكنها الكعبة أو نصبها حولها. غير أن الوثنية في مكة أقدم من ذلك بكثير وليس هناك ما يؤكد ما ينسب إلى عمرو بن لحي.

وبعد أن استولى قصي على مكة جمع القبائل المتفرقة في كنانة والتي كانت تنزل جنوب مكة قرب الساحل الغربي، بينما اضطرت خزاعة للرحيل إلى الجنوب الشرقي منها. لم تكن مكة قبل قصي سوى تجمع لمضارب حول الكعبة، وعندما جاء قصي أسّس مكة وحوّلها إلى مدينة لها مكانتها قبل أن يولد النبي محمد ﷺ بأكثر من قرن. وبذلك أصبح قصي سيد قريش الذي جمع في يده مهام الدين والسياسة معًا ولقب لأجل ذلك بـ «المُجَمِّع». فقد كان يتولى قيادة الحملات العسكرية ورئاسة دار الندوة حيث يتم التشاور بين وجهاء قريش في مختلف القضايا، إضافة إلى سدانة الكعبة واللواء والرفادة والسقاية، لكن دون أن يتوج ملكًا.

لقد أدرك قصي بن كلاب بشكل مبكر أهمية الكعبة بما هي مركز ديني ومصدر اقتصادي. واستطاع أن يطرد منها الخزاعيين بعد أن نجح في عقد تحالفات مع أطراف مختلفة، ليجعل من الكعبة بعد ذلك مركزًا دينيًا يستضيف بقية الآلهة التي تعبدها القبائل العربية الأخرى. حتى اشتهرت قريش بأسماء عديدة تشير إلى ذلك. مثل: «آل الله» و«جيران الله» و«سكان حرم الله» و«قريش التجار».

وكان لابد لسيد قريش أن ينفتح على الخارج، فكان يوفد الرسل والسفراء إلى شمال الجزيرة وجنوبها ليضمن لقبائلها تجارتها التي ارتبطت باسم قريش من خلال توفير الحرس والمرشدين والمترجمين ومنظمي القوافل. واستطاع قصي من خلال ذلك أن يحقق علاقات ثقافية وتجارية مع العرب الآخرين كالغساسنة والمناذرة.. كما تعلم القرشيون من الحيرة أصول الكتابة، واكتسبوا مفردات لغوية جديدة.

ترك قصي أربعة أولاد هم عبد الدار وعبد مناف وعبد العزّى وعبد قصي. كان عبد مناف تاجرًا كبيرًا تمامًا كما هو شأن أخويه عبد العزّى وعبد القصي. أما الأخ الأكبر عبد الدار فهو الذي ورث سلطان والده. ثم ورّثها بدوره لأولاده من بعده.

لكن بني عبد مناف بدؤوا ينافسونهم في ذلك ليشتد الصراع بين أبناء

العمومة. ولينطلق كل طرف في نسج تحالفاته الخاصة. وعلى هذا النحو ستنقسم قريش إلى كتلتين: الأولى يتزعمها بنو عبد مناف الذين حالفهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث.. وستسمى هذه الكتلة بـ«المطيبين» لأنهم غمسوا أيديهم في جفنة من الطيب لحظة توقيع العقد. والكتلة الثانية يتزعمها بنو عبد الدار الذين حالفهم بنو مخزوم وبنو جمح وبنو عدي. وستسمى هذه الكتلة بـ«الأحلاف» أو «لعقة الدم» لأن أطرافها غمسوا أيديهم في الدم عند الحلف. أما بنو عامر وبنو محارب فسيبقون على الحياد.

لكن الطرفين تصالحا في النهاية وتقاسما الوظائف والمهام، فكانت السقاية والرفادة لبني عبد مناف بينما ذهبت الحجابة واللواء والندوة إلى بني عبد الدار. لقد كان من الضروري إيجاد حلول توافقية، فتم توزيع المهام المختلفة في إدارة الحج والتجارة وتنظيم الشؤون العامة في دار الندوة بما يخدم مصلحة أصحاب الثروة من الملإ القرشي.

لكن شعورًا بالمرارة كان يعتري بني عبد الدار، كانوا يرون أن توزيع المهام لم يكن عادلًا، وأن «ألوية الشرف» قد انتزعت منهم لمصلحة بني عبد مناف، وأن هاشم بن عبد مناف قد حظي بالقسط الأوفر دون بقية أخوته، ومع ذلك فإن السلطة بقيت موزعة بين وجوه الارستقراطية القرشية.

إننا هنا أمام هيمنة فئة من الأغنياء على قيادة قريش، فلا صوت لبقية الأفخاذ التي كانت تعاني الفقر الذي يعجز معه الكثيرون حتى عن إطعام أطفالهم. إن هذا يعني أن أصحاب الثروة كانوا هم الذين يملكون الوجاهة، فقيمة الفرد كانت تتحدد بما يملكه من مال في أكثر الأحيان.

لكن الصراعات داخل قريش لن تتوقف نهائيًا لتشتعل هذه المرة بين بني هاشم وبني أمية. فقد حدث أن عرض نوفل الابن الآخر لعبد مناف إلى رَكَح (مساحة من الأرض) في ملك ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم. فاستغاث الأخير ببني قومه فلم يجيبوه، فكتب إلى أخواله بني النجار في يثرب فجاءوه وأعادوا إليه حقه من عمه نوفل. وهذا ما دفع نوفل إلى التحالف مع أبناء عمه

عبد شمس فيما تحالف عبد المطلب مع رجال من خزاعة، يرتبط معهم بقرابة من جهة الأم[1].

بدأت المنافسة بين هاشم وعبد شمس ثم استمرت بين هاشم وابن أخيه أمية بن عبد شمس الذي كان كثير المال والأولاد. تنافر الرجلان وادعى كل منهما أنه أرفع مكانة وأعز نفرًا. وعندما تراهنا على خمسين من الإبل يدفعهما المنهزم وتنحر في مكة ويترك فوق ذلك مكة عشر سنين، احتكما إلى كاهن خزاعة فحكم لهاشم الذي أخذ الإبل ونحرها وأطعم الناس بينما سافر أمية إلى الشام حيث أقام عشر سنين. وهناك في منفاه سيقيم علاقات ستبقى رصيدًا لأحفاده من بعده.

كانت تلك أولى محطات العداوة بين بني أمية وبني هاشم، وسيشتد الأمر عندما سيتنافر هذه المرة حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم ويحتكمان إلى نفيل بن عبد العزى الذي حكم لعبد المطلب.

هذا العداء بين الطرفين سيستمر حتى ظهور الإسلام. فقد كان هناك تحالف بين بني هاشم والمطلب وتيم وزهرة وعدي والحارث بن مضر في مقابل تحالف بني عبد شمس ونوفل وأسد وعامر. بينما كان بنو مخزوم وسهم وجمح وعبد الدار يمثلون حِلفًا ثالثًا. لكن هذا الحلف الثالث، كانت تجمعه مع بني عبد شمس وحلفائهم مصالح تجارية. وهو ما جعلهم جميعًا يقفون ضد بني هاشم ثم لاحقًا ضد النبي ودعوته.

كانت السلطة إذن موزعة بين بطون قريش، وكان ذلك يشير إلى غياب الزعيم القوي الذي يستطيع أن يجمع في يده كل هذه السلطات، أو ربما كان ذلك يشير إلى تكافؤ القوى القبلية الموجودة بحيث لم يتمكن أي منها من الانفراد بالسلطة.. لم يظهر أي زعيم بقوة عمرو بن لحي الخزاعي الذي كان ذائع الصيت بين العرب، حتى أصبح كلامه وفعله القانون الذي لا يتجاوزه أحد.. ولا بقوة قصي مؤسس مكة وجدّ القرشيين.

---

(1) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج 1، صص 123 ـ 132.

وكان لقب الملك معروفًا لدى العرب وقريش، وهو لقب يطلق على كل من تصدى للحكم. فنجد في اليمن ملكةَ سَبأ، وفي الحيرة ملكَها امرؤ القيس. وقد لقّب نفسه في نقش وجد على قبره ويعود إلى سنة 328م بملك العرب كلهم. كما كان سائدًا بينهم لقب السيّد والأمير. وفي اليمن كانوا يطلقون على الزعيم لقب «القيل» لأنه هو القائل والمتكلم باسم قومه تمامًا مثل لفظ الزعيم الذي يعني أنه يزعم عن جماعته أي يقول عنهم ويتحدث باسمهم. وهذا يعني أن العرب كانوا يشترطون في الحاكم أن يكون خطيبًا وفصيحًا.. لكن قريش لم تتوج أحدًا ملكًا عليها حتى عندما كان قُصي يجمع في يده السلطات كلها.

وعندما ظهر الإسلام كانت قريش تتوزع المهام الإدارية فيما بينها من خلال مجلس مكون من عشرة أشخاص يمثلون بطون القبيلة. وهو ما يعني توسع دائرة السلطة لتشمل بقية الأفخاذ. وهذه البطون هي:

1 ـ **بنو هاشم**: وكانت لهم سقاية الحجاج إلى أن فتح النبي ﷺ مكة، وكان العباس هو من يتولى ذلك، أما سيد هذه العشيرة فهو أبو طالب، وبعد وفاته أخذ مكانه أبو لهب.

2 ـ **بنو أمية**: وكان يرأسهم أبو أحيحة ثم خلفه أبو سفيان، وكانت لهم القيادة ومنهم كان الأمير في الحرب والسّلم؛ وكان هو من يسير أمام الجيش في الحرب وأمام القافلة في التجارة. وله راية العقاب في الحرب، وهو الرئيس في السّلم.

3 ـ **بنو نوفل**: ويمثلهم الحارث بن عامر، كانت له رفادة الحجاج فهو من يقدم لهم الطعام مما تخصصه قريش لذلك كل موسم.

4 ـ **بنو عبد الدار**: وكان على رأسهم عثمان بن طلحة، وكان له اللواء وسدانة الكعبة، فهو حاجبها والمشرف عليها، فلا تقام الشعائر إلا بإذنه. كما كانت له رئاسة الندوة التي كانت بمثابة البرلمان الذي يجتمع فيه وجهاء القبيلة للتشاور في الشؤون العامة، وكان يتم هناك عقد لواء الحرب والزواج والختان.

5 ـ **بنو أسد**: وكان يمثلهم يزيد بن زمعة الأسود، وكانت له المشورة لأن القرارات المهمة التي يتخذها رؤساء قريش لا تأخذ طريقها للتنفيذ إلا بعد أن تعرض عليه.

6 ـ **بنو تيم**: كان يمثلهم أبو بكر بن أبي قحافة، وكانت له الأشناق وهي الديات والتعويضات، وكانت قريش تأتمنه على ما يصل إليه منها.

7 ـ **بنو مخزوم**: كان الوليد بن المغيرة هو سيدهم، ثم خلفه ابن أخيه أبو جهل عمرو بن هشام، وكانت له القبة التي يتم فيها تجهيز الجيش، كما كانت له الأعنّة التي يتقدم بموجبها خيل قريش ويدير شؤونها في الحرب. وبعد قتل أبي جهل في بدر، انتقلت السيادة في بني مخزوم إلى خالد بن الوليد.

8 ـ **بنو عدي**: كان يمثلهم النحام وكانت له السفارة التي يتصل من خلالها بالقبائل من أجل التفاوض معها، أو التنافر بحسب ما تقتضيه الحال. كما أنه كان يتفاوض مع الخصوم بعد انتهاء الحرب. وقد خلفه عمر بن الخطاب.

9 ـ **بنو جمح**: كان صفوان بن أمية على رأسهم، وكانت له الأيسار، وهي الأزلام التي يشرف صاحبها على السهام التي يستقسمون بها لمعرفة رأي الآلهة في ما يستخيرونها فيه من أمور.

10 ـ **بنو سهم**: ويمثلهم الحارث بن قيس، وكان يشرف على الأموال الموقوفة للآلهة، وهي تشمل النقد والحلي.

لقد كان هؤلاء في معظمهم يعادون النبي لحظة ظهور الإسلام، ولم يكن هناك إلا القليل ممن وقف يدافع عنه كما هي حالة أبي طالب على نحو خاص.

وفي كل الأحوال كانت النخبة الحاكمة في مكة تمثل استبدادًا نخبويًا بعد أن أصبح استبداد الفرد أمرًا محالًا. لقد اضطرت قريش إلى تشكيل هذا المجلس من أجل تأمين مصالحها التجارية ومن أجل منع التشتت والتشرذم داخل القبيلة. ومن الممكن أن تكون هذه الصيغة في الحكم قد حدّت كثيرًا من توسع سلطة القبيلة خارج مكة لتقتصر على بعض التحالفات مع بعض القبائل.

وما ينبغي التأكيد عليه هو أن عبد مناف جد الهاشميين والأمويين كان الأكثر أهمية. اعتبر بيته بمثابة بيت قريش، تمامًا كما كانت تعتبر قريش قبيلة العرب المقدسة المكونة من الارستقراطية الدينية المشرفة على شؤون الحج والعبادة. وكانت قريش تترفع عن الإغارة لكي تعيش وكانت تكتفي بمداخيل المواسم الدينية والأعمال التجارية. كما كان أهلها يظهرون الحُمس أو التشدد في الدين.. فكانوا يقولون: «نحن الحُمس والحُمس هم أهل الحرم»[1]. أما الآخرون الذين يأتون من خارج مكة فهم أهل الحل. ولذلك فإن القريشيين كانوا يمتنعون عن الإفاضة خارج الحرم بعد وقفة عرفة وكانوا يؤدون جميع المناسك في حدود الحرم[2].

كما كانت قريش تمنع أهل الحل من الطواف حول الكعبة بملابسهم الخاصة، وكان عليهم أن يطوفوا عراة أو أن يستعيروا ملابس أهل الحرم[3]. لكن سمة التشدد في الدين أو الحُمس استعارتها بعض القبائل من قريش بسبب روابط المصاهرة. وأصبحت قبائل عديدة تتصف بهذه الصفة مثل خزاعة وثقيف وعدوان وكنانة وعامر وتميم وكلب.

آلهة قريش

لم يكن الملأ من قريش يؤمنون كثيرًا بآلهتهم التي لم تكن ذلك المقدس الذي يستحق الموت من أجله. ووقوفهم ضد الدعوة لم يكن رفضًا لمضامينها التوحيدية، بل إن ذلك كان ينطلق على أساس التهديد الذي تمثله هذه الدعوة لمصالحهم الذاتية ووجاهتهم الاجتماعية.

كانت الكعبة ملأى بالأصنام منذ قصي بن كلاب وربما قبل ذلك بكثير، وكان العرب يحجون إليها ويهدون ويبيعون ويشترون. وهو ما جعل من مكة مركزًا دينيًا ومركزًا تجاريًا معًا. وهذا يعني أن آلهة العرب كانت قبل كل شيء

(1) ابن إسحاق، **سيرة سيدنا محمد**، غوتنغن، 1276 هـ، ص 127.

(2) ياقوت، **معجم البلدان**، ج 5، ص 184.

(3) م. س، ص 184.

وسيلة بالنسبة إلى قريش للحصول على المال وتنمية الثروة. لقد أهَّل مكة موقعها الجغرافي وأهميتها الدينية أن تكون محطة رئيسية في طريق التجارة بين الشمال والجنوب أي بين الشام واليمن.

وبسبب ذلك، فإن المس بأصنام العرب في مكة، كان يعني بالنسبة إلى قريش مسًّا بأمنها الاقتصادي. والاقتصاد خط أحمر لا يجوز لأي كان الاقتراب منه. وربما لأجل ذلك كان النبي ﷺ يريد تطمين قريش من هذه الناحية فكان يقول لهم إن إيمانكم بهذه الرسالة يعني أن تنقاد لكم العرب والعجم.

كانت قريش تعرف أن ما كان يدعو إليه النبي هو الحق والهدى لكن مصالحها الاقتصادية كانت تمنعها من التسليم له. وقد نقل القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾[1]. كانوا يتصورون أن التخلي عن وثنيتهم يعني طرد العرب لهم من مكة، لكن القرآن يرفض هذا التبرير ليقول لهم إن الذي مكنكم من السيطرة على مكة هو نفسه يمكنه أن يفعل ذلك مرة أخرى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

سلطة الملأ

لم يكن الذين واجهوا النبي رجال دين، إذ لم يكن هناك رجال دين في قريش، بل إن تاريخ الإسلام نفسه في مرحلته الأولى لم يكن يعرف أي وجود لطبقة أو فئة من هذا النوع. والنبي ﷺ نفسه لم يكن يختلف في شيء من حياته أو مظهره عن سائر الناس، ولم يقر قط وجود فئة من الكهنة تتميز في أزيائها أو مظهرها داخل الإسلام.. وحتى سدانة الكعبة والسقاية والرفادة لم تكن سوى مهام مدنية يقوم بها أشخاص عاديون.

لقد كان العرب يؤمنون بالله دون حاجة إلى رجال دين، لكنه كان إيمانًا مخلوطًا بالشرك: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ

(1) سورة القصص، الآية: 57.
(2) سورة القصص، الآية: 57.

لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾[1].

فهم إذن يؤمنون بالله، ولكنهم كانوا يعبدون غيره، كانوا يعبدون أصنامهم ظنًا منهم أنها تقربهم من الله وتشفع لهم عنده: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[2].

بل إن بين العرب وقريش خصوصًا كان هناك زنادقة دهريون لم تكن تهمهم إلا مصالحهم الخاصة كما هي حالة أبي سفيان بن حرب، وعقبة بن أبي معيط الذي كان شديد الأذى للنبي ﷺ وقتل في بدر، وأُبي بن خلف الجمحي، والنضر بن الحارث بن كلدة، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج السهميان، والعاصي بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة.. وهؤلاء هم خصوم الدعوة الكبار وقد تعلموا الزندقة من بعض أهل الحيرة[3]. وادعاء هؤلاء الزنادقة الدفاع عن آلهة العرب، لم يكن يعني شيئًا سوى ارتباط مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية بوجود هذه الأصنام في مكة حيث كان لكل قبيلة صنمها.

طقوس الحج

كان العرب يتجمعون في مكة في موسم الحج، وكان الحج يتضمن الطواف بالبيت والسعي بين الصفا، أين وُضع إساف، والمروة، أين وضعت نائلة. كانوا يلبون تلبية لا تخلو من الشرك، ويأتون المزدلفة فيرمون الجمار، ثم يحلقون رؤوسهم.. أما الهدي، فكانت كل قبيلة تهدي إلى آلهتها وتخصص نصيبًا لله. غير أن ما يخصص لله يؤول في النهاية إلى الآلهة، وقد ذكر القرآن ذلك فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا

(1) سورة المؤمنون، الآيات: 84 ـ 87.

(2) سورة يونس، الآية: 18.

(3) أبو جعفر محمد بن حبيب، **كتاب المحبر**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت، ص 161.

لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

وكان الهدْيُ من الإبل والغنم يخصص للآلهة، كما كان بعضهم يدفع بعض المال من الذهب والفضة تطوعًا. وبذلك كانت مكة مصدرًا للرزق. وإضافة إلى ما كان يقدم من هدي وصدقات، كان الحج موسمًا تجاريًا، وكانت هناك أسواق معروفة مثل سوق عكاظ ومجنّة وذي المجاز.

ويستمر هذا النشاط أربعة أشهر هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ثم رجب، وقد كانت هذه الأشهر حُرمًا عندهم حتى يمارسوا طقوسهم وتجارتهم بأمن وسلام.

وإضافة إلى ذلك كانت مكة محطة رئيسية في طريق التجارة العالمية بين أوروبا والهند. كما كانت لقريش تجارتها الضخمة مع الشام واليمن فيما كان يسمى برحلة الشتاء (إلى اليمن) والصيف (إلى الشام).

لقد كان العرب يتجمعون في مكة كل سنة فيشترون كل حاجاتهم التي يجدونها متوافرة هناك. وفوق ذلك كانوا يجدون ما يحتاجون إليه من الأمن لأداء طقوسهم. لم تكن مكة مجرد مركز ديني، بل كانت فوق ذلك مركزًا تجاريًا لا غنى عنه بالنسبة للعرب.

وعندما أراد أبرهة عامل ملك الحبشة على اليمن أن ينقل المركز التجاري الدولي من مكة إلى اليمن، لم يجد طريقة سوى هدم الكعبة وبناء كنيسة ضخمة في صنعاء. وقد كتب إلى النجاشي أنه قد بنى هذه الكنيسة وأنه يريد تحويل حج العرب إليها. ولما تناقل العرب الخبر، أخذت الحمية رجلًا من كنانة فقعد في المعبد - أحدث فيه - ثم التحق بأرضه. سمع أبرهة بذلك فغضب وقرر متابعة مشروعه فجهز جيشًا يريد أن يهدم به الكعبة. وعندما اقترب من مكة وعسكر خارجها، بعثت إليه قريش سيدها آنذاك عبد المطلب فعرض على أبرهة ثلث أموال تهامة، لكن أبرهة أصر على قراره هدم الكعبة. فعاد

(1) سورة الأنعام، الآية: 136.

عبد المطلب إلى قريش وأخبرها بفشل جهوده وطلب من الجميع الخروج إلى الجبال والشعاب مطلقًا قولته المشهورة: «للبيت رب يحميه». وبالفعل فشلت حملة أبرهة ونُكب جيشه وقد صوّر القرآن في سورة الفيل ذلك الفشل.

لقد كانت مكة مركزًا تجاريًا استثنائيًا، وهي لأجل ذلك كانت هدفًا لمختلف القوى. فقد استولى عليها إليوس ألوس والي إمبراطور روما على مصر في طريقه لاحتلال اليمن سنة 25 ق.م. وعندما أراد قصي بن كلاب السيطرة على مكة استعان بقضاعة التي كانت تحت حكم البيزنطيين. وعندما سقطت الدولة الحميرية بيد الأحباش في القرن الخامس ونشبت بين الفرس والبيزنطيين حروب دامية عرقلت التجارة العالمية في العراق، ازدادت أهمية مكة التجارية. فقد بدأ البيزنطيون يهتمون بطريق البحر الأحمر الذي كان خارج نفوذ الساسانيين. ورغم محاولة أنو شروان احتلال اليمن إلا أن التجارة ظلت ناشطة بين الشمال والجنوب عبر مكة[1].

(1) صالح العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**، ص 93 ـ 94.

الوصل الثاني

انطلاقة الإسلام

ليس مستبعدًا أن تكون المنطقة العربية مسرحًا لنبوات متعددة قبل الإسلام استطاعت أن تنشر الكثير من المعتقدات والشرائع الدينية الصحيحة التي لن يأتي الإسلام إلا من أجل ترسيخها. فقد ظهر شخص يُدعى فيميون، ونزل في نجران، وتقول المصادر إن شخصًا يدعى عبد الله بن الثامر كان يجلس إليه ويسمع منه حتى آمن بدعوته التوحيدية والتزم بشريعته.

ثم انتقل عبد الله بن الثامر هذا إلى الدعوة لهذا الدين وكان يقول: «يا عبد الله: أتوحد الله وتدخل في ديني!» فإن قال: نعم وحد الله وأسلم[1]. كما ظهر خالد بن سنان الذي قال عنه النبي ﷺ عندما مر بقبره فيما بعد: إنه نبي ضيعه قومه[2].

وكان من المتنبئين أيضًا أبو قيس بن أنس الذي ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة وترك النساء في الحيض. لكن هذا الشخص من المستبعد أن يكون نبيًا لأن النبي لا يترهب ولا يلبس المسوح ولا يعبد الأوثان أبدًا حتى يفارقها لاحقًا.

وقد عكس الشعر الجاهلي الكثير من تلك العقائد والتشريعات. فهذا الشعر كان موسوعة حقيقية للثقافة العربية آنذاك وهو لذلك سُمي بديوان العرب.

---

(1) ابن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، سلسلة تراث الإسلام، القاهرة، 1955، ج1، ص29.

(2) إمكانية ظهور أنبياء بين العرب قبل النبي محمد ﷺ لا يتعارض مع النص القرآني الذي يشير إلى أن بعثة الرسول جاءت على فترة من الرسل أي بعد فترة فراغ استمرت قروناً. فالنبي يختلف عن الرسول في كونه ليس مطالبًا بتبليغ رسالة، فليس كل نبي رسولًا كما هو معروف.

إننا نجد في هذا الشعر الكثير من المعتقدات والتشريعات التي سيقرها الإسلام لاحقًا بسبب وجاهتها.. ويكفي للتأكد من ذلك أن نراجع شعر أمية بن أبي الصلت ولبيد وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم.

لم تكن ظاهرة النبوة غريبة عن الإنسان العربي، ولذلك ليس عجيبًا أن نجد في بعض الشعر الجاهلي تعبيرًا عن تشوف العرب لظهور ملك أو نبي يوحّدهم. وهذا يعني أن العرب لم يكونوا يميزون بين مهمة الملك ورسالة النبي فكلاهما يمكن أن يوحّد الناس تحت سلطانه وإن اختلفت منطلقاتهما السياسية.

ولادة النبي

ولد النبي محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، في 17ربيع الأول 54 قبل الهجرة الموافق لـ7 ماي/أيار 570م، وهي السنة التي تسمى بعام الفيل كما هو شائع بين المؤرخين. لكن النقوش، بحسب هشام جعيط[1]، تشير إلى أن هجمة أبرهة على الكعبة وقعت سنة 547م. وبسبب ذلك لا يمكن أن يكون النبي قد ولد عام الفيل، وهو ما دفع جعيط إلى القول إن النبي قد ولد سنة 580م. غير أنه لا شيء يؤكد ما ذهب إليه هذا المؤرخ إذ ليس هناك أية وثيقة تدل على ذلك. لقد صح أن البعثة تمت سنة 610م وأن النبي كان وقتئذ قد بلغ الأربعين وهذا يعني أن النبي ﷺ ولد سنة 570م أو على أقصى تقدير سنة 571م. وقد أشار القرآن أن سن الأربعين هي السن التي يبلغ فيها الإنسان تمام نضجه وشدته: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ﴾[2]. إن ما يقوله جعيط من أن النبي بعث في الثلاثين من عمره ومات في الخمسين ونيف لا أساس له، ليس لأن ذلك مستحيلًا، فقد بعث الكثير من الأنبياء في سن أصغر من ذلك مثل المسيح ابن مريم ويحيى بن زكريا، ولكن لأن ذلك يخالف جميع المصادر التي في حوزتنا.

---

(1) هشام جعيط، **تاريخية الدعوة المحمدية في مكة**، م.س، ص 143.

(2) حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام**، ط 13، دار الفكر، 1991، ج1، ص 65.

أما أبوه وأمه فهما قرشيان، لا شك في ذلك. أبوه هو عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي.. وأمه هي آمنة بنت وهب من بني زهرة، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[1].

اسم النبي

شاع بين العرب أن النبي المنتظر اسمه محمد. وهو ما دفع بعضهم إلى إطلاق اسم محمد على بعض أبنائه عسى أن يكون هو النبي المنتظر. وربما كان سبب ظهور هذا القول اعتقادات الكتابيين من اليهود والنصارى، أو تكنهات الكهان أو رؤى العرافين أو حسابات المنجمين.

لم يكن هذا الاسم «محمد» معروفًا لدى العرب. لكن بعض الأسماء القريبة كانت معروفة مثل اسم «محمود» حيث نجد مثلًا محمود بن سبحان ومحمود بن دحية وغيرهما من قبيلة بني القينقاع اليهودية. ويروى عن محمد بن عدي عن كيفية تسميته بهذا الاسم فقال: «سألت أبي [في شأن ذلك] فقال: خرجت رابع أربعة من تميم نريد الشام، فنزلنا عند غدير عند دير، فأشرف علينا الديراني [من الدير] وقال: إن هذه للغة قوم ما هي لغة أهل هذه البلدة. فقلنا له: نحن قوم من مضر [بن ربيعة]. فقال: إن الله سيبعث فيكم خاتم النبيين. فقلنا: وما اسمه؟ قال: محمد، محمد.. فأضمر كل واحد منا إن رزقه الله غلامًا سماه محمدًا»[2].

غير أن ابن هشام لم يورد سوى ثلاثة أشخاص ممن سموا محمدًا لطمع آبائهم أن يكونوا النبي الموعود وهم: محمد بن سفيان بن مجاشع (جد الفرزدق الشاعر) ومحمد بن أحيحة بن الحلاج بن الجريش ومحمد بن

(1) سورة الجمعة، الآية: 2.

(2) علي بن برهان الدين الحلبي: **السيرة الحلبية**، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص 133. وهذه الرواية تثبت أن المسيح هو الذي بشر بالنبي الخاتم كما هو واضح في القرآن الكريم. وكما يؤيد ذلك إنجيل برنابا، الذي لا تعترف به الكنيسة بسبب نزعته التوحيدية وإدانته لبولس، الذي حرف العقائد والتشريعات المسيحية بحسب الكثيرين، وبشارته بالنبي محمد ﷺ بشكل واضح.

حمران بن ربيعة[1]. وليس بين هؤلاء محمد بن عدي. لكن البعض الآخر عدد ستة عشر شخصًا ممن حمل اسم محمد وفي ذلك يقول:

إن الذين سُمُّوا باسم محمد من قبل خير الخلق ضعف ثمان
ابن البراء مجاشع بن ربيعة ثم ابن أسلم يحمدي حرماني
ليثي السليمي وابن أُسامة سعدي وابن سواءة همداني
وابن الجلاح مَع الأسدي يا فتى ثم النقيمي هكذا الحمراني[2]

وهذه الروايات بمجموعها تدل على أن اسم محمد ليس جديدًا، ولم يكن النبي أول من حمل هذا الاسم. ورغم اختلاف الروايات حول الأشخاص الذين حملوا هذا الاسم قبل النبي وعددهم، إلا أنها تتفق على وجود معرفة مسبقة بقرب ظهور نبي بين العرب يحمل اسم محمد.

كان النبي، إذن، يدعى محمدًا ومعناه المحمود كثيرًا. لكن ورد في السيرة الحلبية أن عبد المطلب جد النبي سماه عندما ولد «قثم» بمعنى «مجمع الخير». وهو اسم عمٍّ له توفي وهو صغير. غير أن أمه آمنة قالت إنها رأت في المنام أن اسمه محمد[3]. وينقل البلاذري بخصوص والد النبي رواية في أنساب الأشراف يقول فيها عنه: «ويكنى أبا قثم ويقال أبا محمد».

وقناعتنا أن هاتين الروايتين لو صحتا، فإنهما تدلان على أن عبد المطلب أراد فعلًا أن يسمي حفيده «قثم»، لكنه تراجع عن ذلك وسماه محمدًا كما طلبت أمه آمنة. أما ما يزعمه بعض المستشرقين من كتاب السيرة النبوية من أن النبي اتخذ لنفسه اسم محمد بعد أن أصبح نبيًا فلا أساس له. وهو غير وارد في أي من مصادرنا.

وبغض النظر عن الروايات التي تتحدث عن ظهور اسم «محمد» قبل ولادة النبي ﷺ، فإن الرسول كان معروفًا قبل الإسلام بـ«محمد»

---

(1) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج1، ص 116.
(2) **السيرة الحلبية**، ص 134.
(3) **السيرة الحلبية**، م. س، ص 131.

وكان وجهاء قريش يدعونه بهذا الاسم. ولو كان معروفًا باسم «قثم» لوصل إلينا شيء من ذلك.

كما أنه لا يمكن القبول بالقول إن محمدًا صفة للنبي غلبت على اسمه «قثم» لأننا نعرف أن صفته هي الأمين حيث كان النبي أمينًا قبل الرسالة وصادقًا في قوله وفعله، وكان مستودعًا للأمانات في الجاهلية، وعندما هاجر إلى يثرب أوصى عليًا أن يعيد الأمانات إلى أهلها.. وهذا ليس جديدًا عند العرب، فقد كان هناك أشخاص تطلق عليهم بعض الصفات مثل الكامل صفة سويد بن صامت، والعدل صفة أبي ربيعة بن المغيرة، ويقال إنه كان هناك ثلاثة أشخاص لقب كل منهم «الفضل» كانوا من بين من عقدوا حلف الفضول، ولذلك سمي الحلف بهذا الاسم[1].

أما أحمد، الذي يعني من يحمد كثيرًا، والذي ورد مرة واحدة في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[2]، فإنه إلى الصفة أقرب تمامًا كما يسمى عيسى المسيح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[3]. فالمسيح هنا هو لقب وصفة لعيسى عليه السلام.

وفي كل الأحوال فإن النص القرآني يورد اسم محمد أربع مرات عند الحديث عن النبي ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[4]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[5]، و﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[6]، ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[7]. وهو ما يعني أن اسم النبي ﷺ هو محمد وليس شيئًا آخر.

---

(1) **السيرة الحلبية**، م س، ص 75.
(2) سورة الصف، الآية: 6.
(3) سورة آل عمران، الآية: 45.
(4) سورة الفتح، الآية: 29.
(5) سورة آل عمران، الآية: 144.
(6) سورة الأحزاب، الآية: 40.
(7) سورة محمد، الآية: 2.

ويؤكد ذلك أكثر ما ورد في «إنجيل برنابا» الذي لا تعترف به الكنائس اليوم. فهو يصرح باسم النبي محمد ﷺ ويبشر بظهوره: «أجاب يسوع: إن مَسَيّا عجيب لأن الله نفسه سمّاه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي. قال الله: اصبر يا محمد لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجمًّا غفيرًا من الخلائق التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركًا ومن يلعنك يكون ملعونًا، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تَهِنَان ولكن إيمانك لا يَهِن أبدًا، وإن اسمه المبارك «محمد». حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين: يا الله أرسل لنا رسولك. يا «محمد» تعالى سريعًا لخلاص العالم»[1].

وفي إنجيل يوحنا يرد ذكر بريكلاتس Paracletos وقد ترجمت إلى اللاتينية بكلمة advocatus وبالفرنسية بكلمة consoliteur أي المواسي بعدي. وأشار ابن إسحاق أن محمدًا بالسريانية هو «المنحمنّا» وهو نفسه بالرومية «البرقليطس»[2]. أي بريكلاتس Paracletos. ولذلك كله فإن اسم النبي منذ ولد هو، بالنسبة إلينا، محمد. أما ألقابه فكثيرة منها الأمين والصادق اللذان أطلقا عليه قبل البعثة والمصطفى والمختار والهادي والبشير، التي أطلقت عليه بعد نزول الوحي.

بدايات النبي

ولد النبي بينما كان أبوه عبد الله قد توفي بالمدينة عندما كان في زيارة لأخواله، أو ربما عندما كان عائدًا من تجارة له في غزة. لكن بعض الروايات الأخرى تشير إلى أن عبد الله توفي بعد ولادة النبي بثمانية عشر أو ثمانية وعشرين شهرًا، وهي روايات غير مقبولة لأن المصادر تتحدث عن عبد المطلب الذي تولى تسمية حفيده ورعايته منذ ولادته، ولا ذكر لعبد الله. وقد دفعه جده لاحقًا إلى حليمة السعدية، على الأرجح. واستمر النبي في كفالة

(1) **إنجيل برنابا**، ترجمة خليل سعادة، بيروت، د.ت، ص149.

(2) ابن إسحاق، **السيرة**، ص 94.

جده حتى الثامنة من عمره عندما توفي عبد المطلب، بينما كانت أمه قد توفيت وهو في الرابعة أو السادسة.

وبوفاة عبد المطلب انتقل النبي إلى كفالة عمه أبي طالب بوصية من عبد المطلب نفسه لأن أبا طالب كان أخًا شقيقًا لعبد الله بعكس الآخرين. وكان لذلك أقرب أخوته إلى محمد وأكثرهم حبًا له.. وهناك روايات كثيرة تشير إلى أن أبا طالب كان حنيفيًا موحدًا مثل أبيه، وهو ما يمكن أن يكون سببًا إضافيًا في اختيار عبد المطلب لابنه أبي طالب من أجل كفالة محمد الذي كان يتوقع أن يكون النبي المنتظر.

تزوج النبي خديجة بنت خويلد قبل أن يصبح نبيًا يوحى إليه. كان عمره ثلاثًا وعشرين أو خمسًا وعشرين سنة، بينما كان عمر خديجة ثماني وعشرين سنة حسب البلاذري[1]. كانت خديجة امرأة ثيبًا سبق لها الزواج وكانت امرأة غنية استطاع النبي أن يعتمد على ثروتها لخدمة الدعوة. وفي ذلك يشير القرآن الكريم: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[2] لأن النبي كان يعيش حياة الفقر كما هي حالة أكثر بني هاشم. وقد مكنه ذلك من تبليغ رسالته دون أن يطلب أجرًا: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وعلاقة النبي بخديجة ثم زواجه بها هو ما سمح له بالخروج إلى الشام من أجل التجارة. لقد فتح له ذلك أفقًا جديدًا ومكنه من أن يكسر الحدود المكية، لكن ذلك ليس بالطريقة التي صوّرها المستشرقون الذين بدأوا يخترعون كلامًا حول اطلاعه على اليهودية والمسيحية وتأثره بهما من أجل الادعاء في النهاية أن القرآن لم يكن في الحقيقة وحيًا من الله، بل كان من صنع العقل الجبار للنبي الذي تصور أن الصوت الملهم الذي في داخله هو صوت الله.. فنحن نجد عند نولدكه (1836م ـ 1930م) في كتابه «تاريخ القرآن» أن «جوهر النبي يقوم على تشبع روحه من فكرة دينية ما تسيطر عليه أخيرًا فيتراءى له أنه مدفوع بقوة إلهية ليبلغ من حوله من الناس تلك الفكرة على أنها حقيقة آتية من

(1) البلاذري، **انساب الأشراف**، ج 4، ص 85.

(2) سورة الضحى، الآية: 8.

الله»[1]. و«أن محمدًا حمل طويلًا في وحدته ما تسلمه من الغرباء وجعله يتفاعل وتفكيره ثم أعاد صياغته بحسب فكره..»[2]. وفي النهاية يصبح الإسلام عند نولدكه نسخة عربية عن المسيحية التي حفظها النبي وليس أكثر يقول: «إن الإسلام في جوهره دين يقتفي آثار المسيحية، أو بعبارة أخرى إن الإسلام هو الصيغة التي دخلت بها المسيحية إلى بلاد العرب كلها»[3]. ومن المؤسف أن يكرر هشام جعيّط ما يقوله هذا المستشرق وغيره دون الاستناد إلى أسس علمية ومنطقية حقيقية بدعوى الموضوعية العلمية![4].

المعارضة القرشية

عندما أطلق النبي دعوته كان وجهاء قريش من الطبقة الارستقراطية يحكمون مكة. ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء طليعة المحاربين للدين الجديد. كانوا يعرفون أن محمدًا ﷺ لم يكن يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام والاتجاه إلى الله الواحد فحسب، بل كان يحمل في دعوته عمقًا اجتماعيًا وسياسيًا يهدد زعاماتهم السياسية ووجاهاتهم القبلية. فالإسلام كان منذ البداية يمثل إحياء للأديان التوحيدية التي يتداخل فيها الروحي والسياسي. وكان بعيدًا عن خط الأديان الهندية ذات المنحى الوثني الذي لا يهتم بالأبعاد السياسية وينزع إلى تبرير الواقع والدفاع عنه مهما كان سيئًا.

وكان واضحًا منذ البداية أن النبي ﷺ يريد تأسيس أمة لها دينها الخاص، وليس مجرد طائفة أو مذهب، وهو لذلك سيصر على إزالة الشرك من الجزيرة العربية وتأسيس ثقافة توحيدية في العقيدة والاجتماع والسياسة.

وطوال 13 سنة، استمر النبي في دعوته، وكان يركز في البداية على عشيرته الأقربين من بني هاشم إذ لا يمكن له أن يواجه قريشًا دون أن يؤمن لنفسه حماية عشيرته. وبالفعل فقد آمن له علي أولًا ثم آمنت زوجته خديجة

---

(1) نولدكه، **تاريخ القرآن**، ترجمة جورج تامر، بيروت، 2004، ص 7.

(2) م ن، ص4.

(3) م ن، ص8.

(4) هشام جعيط، **تاريخية الدعوة المحمدية في مكة**، م.س، ص ص 155، 157.

وأبو طالب الذي ظل يكتم إيمانه حتى آخر حياته.. وكان لإسلام حمزة وقعه الخاص، فبإسلامه «عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه..» كما ينقل ابن هشام[1].

سطوة الغرائز القبلية

كانت الغرائز القبلية هي التي تحرك في أحيان كثيرة الملأ القرشي. فقد كانت هناك منافسة بين بني عبد مناف وبني مخزوم ثم بين بني أمية وبني هاشم. ورَفْضُ بني مخزوم وبني أمية لنبوة محمد ﷺ كان جزئيًا نتيجة هذا التنافس. يروي ابن هشام «إن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، على غير ميعاد. ولما تعرف الأخنس على صاحبيه سأل أبا سفيان عن رأيه فيما سمعه من النبي ﷺ فقال: والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد منها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد منها. ثم سأل أبا جهل فأجاب: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه. والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه»[2].

وفي معركة بدر خلا أُبَي بن شريق بأبي جهل فقال له: أترى محمدًا يكذب؟ فقال أبو جهل: «كيف يكذب على الله وقد كنا نسميه الأمين لأنه ما كذب قط. ولكن إذا اجتمعت في بني عبد مناف السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة فأي شيء يبقى لنا»[3]. وعندما سمع ابن شريق ذلك غادر أرض المعركة هو وقومه بنو زهرة وكانوا ثلاثمائة رجل.

لم يتردد هذا الزعيم المخزومي، إذن، في التصريح برفض الإقرار بنبوة

---

(1) **سيرة ابن هشام**، تهذيب عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، د. ت، ص 60.

(2) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج 1، ص 371.

(3) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، **الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام** (3 أجزاء)، بيروت دار المعرفة، د ت، ج 3، ص 82.

محمد لسبب واحد وهو أنه من بني عبد مناف. أما أبو سفيان زعيم الفرع الأموي لبني عبد مناف فقد رفض بدوره الإقرار بنبوة محمد للسبب نفسه، أي التنافس بين الأمويين والهاشميين. وعندما قُتل أبو جهل في معركة بدر، انفرد بقيادتها، ولم يستسلم إلا في فتح مكة عندما وجد نفسه عاجزًا تمامًا عن مواجهة النبي ﷺ. فأبو سفيان هذا لم يؤمن بالإسلام ولا بنبوة محمد ﷺ، وقد وَرَّث ذلك أحفاده الذين سيعملون على اختطاف السلطة بأي ثمن[1].

وأمام هذه الغرائزية القبلية، كان لابد للنبي ﷺ أن يحمي نفسه ودعوته إلى أن يتمكن من كسر الحصار الذي ضُرب حوله. وهنا كان تحرك النبي على ثلاثة خطوط؛ الخط الأول كسب ود الهاشميين والمتحالفين معهم. والخط الثاني إيفاد بعض المؤمنين إلى الحبشة. والخط الثالث البحث عن قاعدة جديدة للدعوة بعيدًا عن مكة.

لم يكن النبي يفكر بطريقة قبلية، لكن في المقابل فإن بني هاشم وحلفاءهم كانوا هم الحامي الحقيقي للنبي كما حدث ذلك مع أبي طالب ثم حمزة وعلي. لقد كان ذلك هو نظام العلاقات القائم على أساس الانتماء القبلي، ومهمة النبي كانت في جزء منها تدمير هذا النظام وإقامة نظام جديد للعلاقات قائم على القيم الإنسانية المشتركة.

بداية الوحي

كان محمد ﷺ قبل الوحي يتحنث في غار حراء شهرًا من كل سنة. لم يكن ذلك جديدًا، فقد كان بعض أهل مكة يفعلون ذلك[2]. وعندما بلغ الأربعين سمع لأول مرة نداء غريبًا بينما كان يتعبد في الغار[3]. كان مفاجأ

---

(1) عندما آلت الخلافة إلى عثمان، خاطب أبو سفيان بني أمية بقوله: «تلقفوها يا بني أمية.. تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار، ولتصيرن إلى أولادكم وراثة». وهذا ما يؤكد أن هذا الرجل لم يؤمن قط بالإسلام. وأن القضية بالنسبة إليه ليست إلا قضية سلطة استُخدم فيها الدين وسيلة.

(2) ابن هشام، **السيرة**، ج 1، ص 235.

(3) نزل الوحي القرآني على النبي لأول مرة في ليلة 23 رمضان سنة 13ق.هـ الموافق لـ16 أوت/ آب610م. وكانت ليلة القدر.

بالنسبة إليه وهو يسمع: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[1]. أخبر النبي ﷺ زوجته خديجة التي كانت تثق به وتصدقه. وعندما شاع الخبر في مكة، كانت ردة فعل القريشيين الأولى اتهام النبي بالسّحر والكهانة والجنون. وكان رد الوحي مباشرًا لتأكيد نبوة محمد ﷺ: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾[2].

لكن قريشًا لن تكف عن إيذاء النبي وادعاء اتصاله بالجن، وهو معنى اتهامه بالجنون. وعندما انقطع الوحي لم يُخف الملأ القرشي سروره فقالت زوجة أبي لهب أم جميل وهي أخت أبي سفيان التي سماها القرآن حمالة الحطب: «أرجو أن يكون شيطانك قد تركك»، لكن رجاءها خاب بعد أن نزلت سورة الضحى تؤكد أن الله لم يترك نبيّه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[3].

وكان أول من آمن مع خديجة بنبوة محمد ﷺ، علي الذي كان يعيش في كنف النبي، وكان في العاشرة من عمره، كما آمن زيد بن حارثة الذي كان عبدًا وهبه ابن عم خديجة لها فوهبته للنبي الذي أعتقه وتبناه. ثم دخل أبو ذر مكة وأعلن إسلامه على الملأ متحديًا بذلك قريشًا.. ثم أسلم بعد ذلك أبو بكر ابن أبي قحافة وكان يصغر النبي بسنتين وقد أسلم على يديه لاحقًا عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله.

ثم آمن بالنبي ورسالته مجموعة من أبناء القبائل الأخرى والمستضعفين الذين سيظلون أوفياء للرسالة حتى النهاية كما هي حالة عمار وبلال.

كان تركيز القرآن في المرحلة الأولى على أصول العقيدة الأساسية في

---

(1) سورة العلق، الآيات: 1 ـ 5.
(2) سورة القلم، الآيات: 1 ـ 3.
(3) سورة الضحى، الآيات: 1 ـ 3.

التوحيد والنبوة والمعاد.. وكان هناك تأكيد على وحدانية الله والمساواة بين الناس ورفض الظلم ومسؤولية الإنسان عن أعماله يوم القيامة.. وكان القرآن يقدم ذلك كله بأسلوب بلاغي آسر لم يعهده العرب من قبل ويختلف عن كل ما كان سائدًا من نثر وشعر وسجع. وفوق ذلك كان يحمل مضامين وحقائق تتجاوز الثقافة المتداولة والمعارف السائدة.

وكان لافتًا تركيز القرآن على وصف الجنة والنار وصفًا حسيًا دقيقًا، لا مبالغة فيه، من أجل ترغيب المؤمنين وترهيب الجاحدين. فمنذ البداية شدد القرآن على العذاب الأليم الذي ينتظر المستكبرين الذين يُسخّرون أموالهم الطائلة لمحاربة الحقيقة وإفساد العقول واستغلال الناس: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾[1]، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[2].

وعندما يتم التركيز في القرآن على طبقة المترفين من أجل إدانة ممارسات أفرادها، فذلك بسبب ما تمثله من قوة حقيقية مؤثرة على نحو سلبي في عقول الناس الذين ينفعلون عادة بما يقدم لهم.

معاناة النبي

واجه النبي أذى عظيمًا من الملأ القرشي منذ أن بدأ يجهر بدعوته، كان ذلك شأن أبي جهل بن هشام وأبي لهب بن عبد المطلب والوليد بن المغيرة.. وهؤلاء كانوا من أثرى أثرياء قريش. لكنهم لم يكونوا وحدهم في سخريتهم من النبي وإيذائهم له. وأبو جهل هو نفسه أبو الحكم قبل الإسلام واسمه الحقيقي عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي. لُقِّب بأبي جهل من قبل النبي نفسه على الأرجح؛ لأن هذا الرجل كان يمثل العنف الأحمق الذي لا حد له. كان يكبر النبي بقليل، وكان من أثرياء قريش الكبار. لكنه لم يصبح سيد بني مخزوم إلا

(1) سورة المزمل، الآيات: 11 ـ 13.

(2) سورة الماعون، الآيات: 1 ـ 3.

بعد موت عمه الوليد بن المغيرة. كانت مشكلته مع النبي أنه من بني عبد مناف كما عبر عن ذلك غير مرة. ولكنه أيضًا كان يحسب حسابًا لمصالحه الخاصة وموقعه الاجتماعي. وهذا الرجل هو الذي أصر على حرب النبي في بدر رغم معارضة أبي سفيان.

أما أبو لهب، فهو أبو المغيرة بن عبد المطلب. والقرآن هو الذي أطلق عليه هذا اللقب الذي عُرف به في سورة المسد. كان مؤذيًا للنبي، وكان لزوجته أم جميل دور في تحريضه ضد النبي. وصل به الأمر إلى حد إلقاء القاذورات على ابن أخيه وإشعال النيران في طريقه وقريبًا من بيته.

أما الوليد بن المغيرة فهو عم أبو جهل، كان سيد بني مخزوم ومن سادة قريش. وكان يقول: «أينزلُ على محمد الوحي وأترك وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين»، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1]. وقائمة المؤذين للنبي والمستهزئين به طويلة. لكن أوضحهم عقبة ابن أبي معيط والنضر بن الحارث والعاص بن وائل والحكم بن أبي العاص وعدي بن حمراء الثقفي وابن الأصداء الهذلي.

ورغم كل ما كان يتعرض له النبي من أذى وإساءات، إلا أنه قرر المضي في دعوته. وقد كان الدعم اللامحدود الذي لقيه من عمه أبي طالب حاسمًا في إصرار النبي على أداء رسالته وإيصالها إلى الناس.

لقد تدخل القرشيون مرارًا لدى أبي طالب من أجل أن يسلّمهم النبي الذي انتقل من الدعوة إلى التوحيد، إلى مهاجمة آلهة قريش. عرضوا عليه أن يسلمهم ابن أخيه مقابل أن يسلموه عمارة بن الوليد الذي كان شابًا قويًا ووسيمًا. ربما كان هذا العرض مجنونًا في تلك البيئة؛ لأن المعقول هو أن يطالبوا أبا طالب بتسليم النبي دون مقابل. وعندما رفض أبو طالب ما طُلب منه، قررت قريش محاصرة بني هاشم وبني المطلب المتحالفين معهم.

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 31.

ستستمر مقاطعة قريش لبني المطلب قرابة الثلاث سنوات، غير أن هذه المقاطعة لم تكن شاملة. فقد كان هشام بن عمرو بن ربيعة، من بني لؤي الذين وقفوا على الحياد بين المطيبين والأحلاف، كان يحمل الطعام إلى المحاصرين كل ليلة. ثم اتصل ببعض أقارب بني هاشم من جهة الأم واتفق معهم على نقض اتفاق المقاطعة. وبذلك انفرط عقد الحصار وأُخرجت الصحيفة، التي وُقّع فيها الاتفاق، من الكعبة ومُزّقت.

ولم يلبث أبو طالب أن مات وماتت معه خديجة بعد الحصار. كان ذلك قبل الهجرة بثلاثة أعوام. وفي مرض موته جاءه الملأ القرشي يريدون أن ينتزعوا منه صفقة يكف النبي بموجبها عن التعرض لآلهتهم مقابل أن يعطوه ما يريد من مال ونفوذ.. كان الوفد يتقدمه أبو جهل وأبو سفيان.. وعندما استدعى أبو طالب النبي ﷺ، لم يظفروا منه بغير قوله: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.. تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه..»[1].

سيموت أبو طالب، وسيكون موته خسارة كبيرة للنبي. لقد استطاع من خلال أسلوبه في إخفاء إيمانه أن يبقى على علاقته بالملأ القرشي، من أجل حماية النبي. فنحن نعلم أن بني هاشم كانوا قليلي العدد وليس بإمكانهم مواجهة قريش كلها. كان لابد من استخدام أسلوب التقية الذي يمكن من خلاله حماية النبي، ولو أعلن أبو طالب إسلامه بوضوح لما استطاع أن يقدم للنبي الحماية التي قدمها.

وقد استغل كهنة البلاط الأموي تستر أبي طالب على إيمانه لترويج فكرة موت أبي طالب كافرًا. إن ذلك لا ينسجم مع أشعاره التي يلمح فيها أحيانًا إلى إيمانه بالنبي ورسالته ويصرح أحيانًا أخرى[2]، ويتناقض مع دوره الكبير في

(1) **سيرة ابن هشام**، تهذيب عبد السلام هارون، م.س، ص90.

(2) يمكن أن نورد مثلًا بعض الأبيات لأبي طالب، وهي كثيرة، يحض فيها حمزة على نصرة النبي ﷺ بشكل علني، وهي أشعار لا يتصور عاقل أنها صادرة عن شخص لا يؤمن بنبوة محمد ﷺ: =

حماية الرسول والدفاع عنه، كما يتناقض مع تأكيدات الإمام علي على أن أباه مات مسلمًا مؤمنًا. وأنه، أكثر من ذلك، لم يشرك بالله قط وكان قبل إسلامه حنيفيًا موحدًا[1].

إن الذين يتهمون أبا طالب بالشرك يستندون إلى الآية الكريمة: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2]، في حين أن هذه الآية مدنية نزلت في الحارث بن نعمان بن عبد مناف الذي كان يرغب النبي في إسلامه لكنه أجابه: «إنا نعلم أنك على حق وأن الذي جئت به الحق ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تتخطفنا من أرضنا لكثرتهم وقلتنا ولا طاقة لنا بهم»[3].. لقد أسلمت فاطمة بنت أسد بشكل مبكر وكانت ثاني من أسلم من النساء بعد خديجة، ولو كان أبو طالب مشركًا كما يزعم البعض لطلب النبي منها أن تنفصل عنه كما هو أمر القرآن في آيات عديدة.

وفي حياة أبي طالب كان حمزة بن عبد المطلب العم الآخر للنبي قد أعلن إسلامه. لقد حدث أن تعرض أبو جهل للنبي، وعندما كان حمزة عائدًا من رحلة صيد إلى مكة استوقفته مولاة عبد الله بن جدعان وأخبرته بما صدر عن أبي جهل. وهنا أخذت الحمية حمزة وتوجه نحو أبي جهل الذي كان جالسًا في جماعة من قريش ولطمه بقوة بقوسه.. ثم قال له: «أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول»[4]. من الممكن أن يكون حمزة مؤمنًا

= **«فصبرا أبا يعلى على دين أحمد — وكن مظهرًا للدين وفقت صابرا**
نبي أتى بالدين من عند ربه — بصدق وحق لا تكن حمز كافرا
فقد سرني إذ قلت: لبيك مؤمنًا — فكن لرسول الله في الدين ناصرا
وناد قريشًا بالذي قد أتيته — جهارًا وقل: ما كان أحمد ساحرا»

فهل يمكن أن يشجع أبو طالب حمزة على التمسك بالإيمان والإسلام ونصرة النبي دون أن يكون هو نفسه مؤمنًا؟

ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج14، ص 79.

(1) بخصوص هذه المسألة انظر مثلًا: **المفيد**، إيمان أبي طالب، مؤسسة البعثة، إيران، د.ت.

(2) سورة القصص، الآية: 56.

(3) المجلسي، **بحار الأنوار**، ط2، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان1983، ج35، ص152.

(4) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج1، ص189.

بنبوة محمد ﷺ قبل ذلك ولم تكن هذه الحادثة إلا مناسبة لإعلان إسلامه. فطريقة حديثه تشير إلى ذلك.

ومع ذلك لم يستطع حمزة ملء الفراغ الذي تركه أبو طالب بعد موته فقرر النبي الخروج إلى الطائف. التمس في البداية نصرة ثقيف لكنهم خذلوه بفظاظة بسبب مصالحهم التجارية مع قريش. واضطر إلى طلب الإجارة من المطعّم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بعد عودته من الطائف فاستجاب له. لقد كانت التقاليد تقضي باحترام المجار، وكان ذلك عرفًا مقبولًا. وقد أمكن للنبي بفعل هذه الإجارة الدخول إلى مكة مرة أخرى دون أن يتعرض لأذى.

الوصل الثالث

النبي في المدينة

سيختار النبي ﷺ الهجرة إلى يثرب مع أصحابه[1]. ويثرب هذه مدينة قديمة، وتاريخها يكتنفه الكثير من الغموض. كانت تعيش على النشاط الزراعي حيث توفرت على تربة بركانية خصبة ومياه الأودية. وبسبب موقعها بين اليمن والشام لعبت دورًا تجاريًا دون أن تكون منافسًا حقيقيًا لمكة.

لم تكن في يثرب قبيلة واحدة مهيمنة لتستطيع إقامة نظام سياسي. فقد كانت هناك قبائل وثنية من الأوس والخزرج تسكن بطونها في شعاب مختلفة ذات بساتين وآبار. كما وجدت قبائل يهودية في شعاب أخرى، وكانت منقسمة إلى بطون هي بنو عكرمة وثعلبة ومحمر وزعورا والقينقاع وزيد والنضير وقريظة وبهدل وعوف والقصيص.

ومن الممكن أن يكون وجود اليهود في المدينة نتيجةً لاضطهاد الرومان. أما الأوس والخزرج فالأرجح أنهم جاءوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب. وقد كانت الخلافات شديدة بين القبائل اليهودية، ثم انتقلت بعد ذلك لتصبح خلافات دامية بين الأوس والخزرج كانت أسبابها في كثير من الأحيان تافهة. وقد كان اليهود يحرضون الطرفين الواحد ضد الآخر بشكل سافر أحيانًا، وهذه النزاعات الدامية ستجد مكانها بين أيام العرب المشهورة: يوم سمير ويوم السّراة ويوم حاطب ويوم بعاث. وهي الأيام التي لم تنقطع فصولها حتى مجيء النبي. لم تحقق أية قبيلة نصرًا حاسمًا يسمح لها بحكم المدينة، بل إن الوضع

(1) هاجر النبي إلى يثرب يوم 28 صفر 1هـ الموافق 8 سبتمبر 622م. وقد اختبأ في بداية الطريق في غار ثور مع صاحبه ثم غادره في 2 ربيع الأول 1هـ الموافق لـ 11سبتمبر622م.

الأمني وصل إلى حافة البؤس بحيث لم يكن الفرد قادرًا على الخروج من بيته دون التعرض لمخاطر.

وبالتوازي مع ذلك لم تكن المدينة محصنة ضد أي غزو خارجي، فلم تكن لها أسوار ولا خنادق تحميها، ورغم الدعوات التي ترددت غير مرة من أجل تتويج ملك يضبط الأمن في الداخل ويُحصّن المدينة ضد الاعتداءات من الخارج ويحمي القوافل التجارية ويوقف النفوذ اليهودي، إلا أن تراكم الأحقاد منع من تحقيق ذلك. وربما كان الأوس والخزرج يستعدون لتتويج عبد الله بن أبي سلول ملكًا عليهم لكن هجرة النبي قطعت الطريق عليه. وإذا صح ذلك، فربما أمكن تفسير كره هذا الرجل للنبي. وفي كل الأحوال فإن مجيء النبي إلى يثرب كان حاسمًا في توحيد المدينة وإنقاذ وجود الأوس والخزرج من الانهيار وربما الانقراض كما حدث لقبائل سابقة جلت عن يثرب.

دلالات الهجرة

كانت الهجرة واحدة من المقدمات الضرورية لبناء الكيان الحضاري للإسلام، تمامًا كما هو شأن كل الحضارات، فعندما انتشر اليونان شرقًا بنوا حضارتهم اليونانية، وعندما انتقل الفينيقيون غربًا أسسوا حضارة قرطاج، وعندما بدأ الأوربيون رحلاتهم الاستكشافية عبر العالم كانت الحضارة الغربية.. وعندما هاجروا إلى أميركا واكتشفوا العالم الجديد أصبحت الولايات المتحدة سيدة العالم.

إن هذا يعني أن الحركة في المكان والتغيير في طريقة التفكير شرطان لا غنى عنها في بناء الحضارة. وكثيرًا ما أكد القرآن على ذلك: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[1]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

إن الإنسان وهو يغير في جغرافيته يفتح أمامه حدودًا كانت مجهولة،

(1) سورة النساء، الآية: 99.

(2) سورة الرعد، الآية: 11.

فتتغير رؤيته للعالم، لأن الهجرة تسمح له بالتعرف إلى ثقافات مختلفة وتعطيه أفقًا جديدًا لم يكن ليحصل عليه دون ذلك. فالثبات في المكان لا يورث إلا الجمود والانغلاق وضيق الأفق.. والإنسان الذي يعيش في إطار مغلق لا يمكنه أن يرى العالم إلا في حدود ذلك الإطار. إنه يختصر العالم ضمن أفقه الضيق. أما الإنسان الذي يعيش الحركة، فإنه يرى العالم واسعًا ومفتوحًا لا تحده حدود، ولأجل ذلك دفع القرآن نحو ثقافة السياحة والهجرة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[1].

إن الجمود الذي يصيب الأفراد والجماعات هو نتيجة مباشرة للالتصاق بالأرض بحيث تصبح هذه الأرض المقدس الذي ترتبط به روح هذا الإنسان فيتجمد عقله عند ما هو شائع من عقائد وأخلاقيات وأفكار بين بني قومه[2].

وعندما يدعو القرآن الإنسان إلى تغيير مواقعه من أجل اكتشاف العالم، فإن ذلك لا ينبغي أن ينطلق على أساس غزو الشعوب الأخرى ونهب ثرواتها. بل ينبغي أن يكون ذلك على أساس التواصل بين المجموعات البشرية من أجل بناء الحضارة وإنتاج الثقافة.

سُنّة الهجرة هذه وضعها النبي ﷺ موضع تنفيذ. طلب في البداية من مجموعة من المسلمين الهجرة إلى الحبشة. وهذه الهجرة مكنت من الاطلاع على ثقافة جديدة ومجتمع مختلف. كان ذلك حدثًا مهمًا بالنسبة إلى قبيلة استقرت في مكة منذ زمن بعيد.. لكن الهجرة الأهم كانت نحو يثرب، المدينة التي ستصبح قاعدة الانطلاق نحو العالم الخارجي. فبهذه الهجرة انفتح القرشيون على قبائل عربية جديدة تعيش ثقافة مختلفة وفي محيط مغاير. ومع اتساع دائرة الإسلام بدأ العرب يتواصلون مع شعوب أخرى مجاورة لهم أفادوا من علومها ومعارفها.

لقد أعطت الهجرة إلى يثرب العرب ما لم يكن ممكنًا تحقيقه من دونها.

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.

(2) علي شريعتي، **محمد خاتم النبيين من الهجرة إلى الوفاة**، تر: أبو علي الموسوي، الهدى للنشر والتوزيع، طهران، 1410هـ، ص4.

ولأجل ذلك كان تأكيد القرآن على الهجرة في آيات كثيرة. وكما كان هناك تأكيد على الهجرة في المكان: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُوا يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[1]. كان هناك أيضًا تأكيد على الهجرة في النفس: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾﴾[2]. فهناك دائمًا هجرتان: هجرة خارجية في آفاق الأرض وهجرة داخلية في نفس الإنسان وعقله.

أما أولئك الذين يرفضون الهجرة ويقبعون في أماكنهم رغم الظلم الذي يتعرضون له ورغم قدرتهم على الهجرة، فهؤلاء يصيبهم الجمود والتيبس، ويسيطر عليهم التعصب والانغلاق وضيق الأفق. وهم فوق ذلك يخضعون للسائد ويعجزون عن المقاومة وينخرطون في أحيان كثيرة في الفساد والانحراف. إن هؤلاء هم الذين يُسميهم القرآن «ظالمي أنفسهم»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُوا فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُوا كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓا أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُوا فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[3].

إن الإنسان عندما يتخلى عن حريته ويختار حياة العبودية والقهر، يظلم نفسه. والهجرة في هذه الحالة تصبح واجبة لأنها تحقق مجموعة من الأهداف دفعة واحدة: تحرر الإنسان وتعطيه قاعدة مناسبة للنضال وتمكنه من نشر أفكاره وتزوده معارف جديدة.

بل إن أي علم من العلوم يحتاج اليوم إلى «السّير في الأرض». أي يحتاج إلى اعتماد منهج تجريبي، استقرائي، وهو ما يعني تقدمه على المنهج الاستنباطي الصوري الذي كثيرًا ما يُسقط الإنسان في أحكام وهمية لا علاقة

---

(1) سورة النحل، الآية: 41.

(2) سورة المدثر، الآية: 5.

(3) سورة النساء، الآيات: 97 ـ 100.

لها بالبحث العلمي الذي يحتاج إلى المشاهدة والمعاينة والتجريب. إن هذا هو التوجه الذي أراد القرآن للإنسان اعتماده حتى عندما يتعلق الأمر بالميتافيزيقا: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(1).

وعلى هذا النحو تنتهي الهجرة أن تكون مفهومًا بسيطًا وضيقًا لتصبح ذلك المفهوم الواسع الذي استخدمه القرآن بمعناه الكلي الذي يستوعب مصاديق لا حصر لها. إنه بهذا المعنى لن يقتصر على معنى «الانتقال من مكان إلى آخر» بل يستوعب معاني أخلاقية وفكرية ودينية وعلمية.. واسعة. وتصبح الهجرة مانعًا من الجمود والخفوت والموت، وسببًا في التطور والتقدم والحياة. فهذه كلها لا تنفك عن الحركة التي يتضمنها مفهوم الهجرة.

وربما كانت تسمية المسلمين الأوائل من المكيين بالمهاجرين له دلالته العميقة. فهؤلاء أصبحوا مهاجرين ليس فقط لأنهم انتقلوا من مكة إلى المدينة، بل لأنهم ـ وهذا هو الأهم ـ انتقلوا من الجاهلية بجمودها وانغلاقها وجهلها وعنفها، إلى الإسلام بحركيته وانفتاحه وعلمه وسماحته.. وحتى عندما أراد المسلمون اتخاذ بداية للتاريخ اختاروا الهجرة(2)، ولم يفعلوا كما فعل الآخرون الذين كانوا يتخذون ولادة بعض القادة أو الأنبياء بداية للتاريخ، أو يجعلون من بعض الأحداث هذه البداية كما كان يفعل العرب قبل الإسلام. حتى البعثة النبوية لم تُتَّخذ بداية للتاريخ الإسلامي.

الهجرة إلى يثرب

شبع النبي ﷺ حصارًا وأذى من قريش، وكان لابد له من مغادرة مكة. كان النبي يخطط لذلك منذ زمن، وهو لذلك هيأ قاعدة جديدة تحتضن دينه وتنصره ضد قريش. أمر النبي أصحابه بترك المدينة سرًا وفرادى حتى لا تتمكن

(1) سورة آل عمران، الآية: 137.

(2) اتخذ عمر بن الخطاب، في العام 17 أو 18 بعد الهجرة، بإشارة من علي بن أبي طالب، الهجرة بداية للتاريخ بدلًا من عام الفيل وسواه من التواريخ الشائعة. **اليعقوبي**، ج 2، ص145. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، ص74. **المستدرك على الصحيحين**، ج3، ح4287 .**الطبري**، ج4، ص39.

قريش من منعهم. فقد كانت قريش تخطط من جهتها لمنع المسلمين من الخروج وقد اعتقلت فعلًا بعضهم وسجنتهم، بينما احتجزت نساء آخرين رهائن لديها.

وهكذا بدأ أصحاب النبي ﷺ مغادرة معقل الشرك تاركين وراءهم ارتباطاتهم العاطفية والاجتماعية مختارين على ذلك حريتهم وكرامتهم.. لكن خروج النبي نفسه كان محفوفًا بالمخاطر وكان يحتاج إلى براعة سياسية ومكر ودهاء لم يكن النبي يفتقدها.. لقد أخفى النبي نيته في الخروج حتى عن أقرب الناس إليه. فلم يكن القرشيون يعلمون شيئًا عن عزمه ترك مكة. وعندما قرر أبو بكر الرحيل هو الآخر وطلب إذن النبي أشار إليه بشكل مبهم: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا!».

غادر المسلمون إلى يثرب ولم يبق سوى النبي وعلي وأبو بكر. أما بقية المسلمين فبعضهم أصبح في يثرب، بينما لا يزال آخرون هناك في الحبشة. لكن العبيد والمستضعفين والشباب الذين اختاروا الإسلام لا يزال بعضهم يعيش في الأسر ويخضع للتعذيب، فيما كان البعض الآخر هاربًا من ظلم قريش.

بدأت مكة تخلو من المسلمين وبدأ الخوف يقتحم قلوب القرشيين ليغرق وجهاؤهم في التفكير: كيف يمكن مواجهة محمد وأنصاره، فقد أصبحت يثرب قاعدة انطلاقهم الجديدة، وقرروا الانتقال من مرحلة النضال السلبي؛ مرحلة الصبر على الأذى إلى مرحلة النضال الإيجابي؛ مرحلة القتال والمواجهة.

مكر قريش

اجتمع أبو سفيان وعتبة وشيبة وجبير بن مطعم وأبو البختري وحكيم بن حزام وأبو جهل وأمية بن خلف.. في دار الندوة، وبدأوا يتشاورون في أمر محمد ﷺ. اقترح أبو البختري أن يُقيّد النبي بسلاسل من حديد ويُلقى في السجن. لكن هذا الاقتراح لم يُقبل إذ سيشكل ذلك صداعًا مستمرًا وسينقذه أصحابه في النهاية. ثم اقترح أبو الأسود ربيعة بن عامر بن لؤي نفيه من مكة وحينذاك يخلو الجو لقريش فتلتفت إلى شؤونها الخاصة. لكن هذا الاقتراح لن

يقبل هو الآخر لأن «محمدًا رجل حسن الحديث، عذب اللسان، قوي الحجة، ويمكنه بسهولة استمالة قلوب الرجال وعقولهم حتى يبايعوه فيسير بهم إلى قريش ويفتح مكة»[1].

وأخيرًا تكلم أبو جهل الأكثر حقدًا على النبي والأشد مكرًا. قال: «أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسبيًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل، فعقلنا لهم»[2]. لقي هذا الرأي قبولًا. وبدأ القرشيون محاصرة بيت النبي. بقوا واقفين ينتظرون خروجه. كانوا يراقبون حجرته طوال الليل، فقد شاهدوه وهو يستلقي على فراشه ويستسلم للنوم، وظنوا أنها نهاية محمد ﷺ.

وعلى طريقته تدخل أبو جهل ساخرًا: «إن محمدًا يزعم لكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها..»[3].

وفي هذه الأثناء أطل عليهم رجل وسألهم: «ماذا تنتظرون ها هنا؟ فقالوا: محمدًا. قال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد». لقد خرج النبي دون أن يشعر به الجماعة. أما الذي كان نائمًا في فراش النبي، فلم يكن سوى علي الذي قبل أن يكون الفدائي الأول في الإسلام.

أفلت النبي من القرشيين وسلك طريق الجنوب مع صاحبه بدلًا من سلوك طريق الشمال الذي يؤدي إلى المدينة. واختفيا في غار ثور. فقد كان النبي يعلم أن قريشًا ستبحث عنه في كل مكان. بقيا هناك ثلاثة أيام. وتكفل طوال هذه المدة عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وأسماء ابنته بإخفاء أثرهما وإحضار الطعام لهما.

---

(1) **سيرة ابن هشام**، تهذيب عبد السلام هارون، ص 106.

(2) م ن، ص 106.

(3) ابن هشام، **السيرة النبوية**، تهذيب عبد السلام هارون، ص 107.

أما قريش فقد أصيبت بالخيبة، وحاولت أن تستدرك ما حدث فجعلت مائة ناقة جائزة لمن يدلها على النبي أو يقبض عليه. لكن مساعيها باءت بالفشل، وواصل النبي طريقه إلى يثرب مع أبي بكر بعد أن أصر على شراء ناقة منه ولم يقبل ركوبها دون مقابل!

وصل النبي إلى قباء يوم 12ربيع الاول1هـ، الموافق لـ22 سبتمبر 622م، ظهرًا حيث كان الناس في انتظاره، وأقام في منزل لرجل أعزب هو كلثوم بن هرم جعله مقرًا للمهاجرين العُزّاب، وبقي هناك أربعة أيام من الاثنين إلى الخميس قبل أن ينتقل إلى مكان آخر، وبنى مسجد قباء باقتراح من عمار بن ياسر فكان أول مسجد بُني في الإسلام.

أما علي الذي بقي في مكة للتغطية على خروج النبي ﷺ وإيصال الأمانات إلى أهلها، فقد قرر أن يشق الصحراء ماشيًا في اتجاه يثرب. وبعد خمسة عشر يومًا من المسير، وصل هو والنساء اللاتي كن معه إلى قباء وأقام مع النبي ليلة أو ليلتين. وفي يوم الجمعة ترك النبي قباء متجهًا نحو المدينة وهناك سيبدأ بناء الدولة.

خرج النبي وأصحابه من مكة في اتجاه يثرب. لكن هذا الخروج لم يكن اختياريًا بل كان إجراءً اضطر إليه. إنه في الحقيقة إخراج غير مباشر، لأن البديل الآخر وهو التعرض للقتل أو السجن والتعذيب في مكة. ولأجل ذلك يصر القرآن على استخدام كلمة «أخرجوكم» و«أخرجوك».. لقد اضطر القرشيون النبيَّ إلى الخروج ولكنهم لم يكرهوه عليه. فهناك فرق بين الاضطرار والإكراه لأن الأول هو أحد حلين يلجأ إليه المضطر ولكنه ليس مجبرًا عليه بينما الإكراه يتضمن إجبارًا.

ومن هنا فإن النبي ﷺ هاجر هو وأصحابه إلى المدينة ولم يُهَجَّروا كما ذهب إليه هشام جعيط[1]. أي إنهم اضطروا إلى الهجرة ولم يُكرَهوا عليها. لقد حدد النبي توقيت هجرته ووجهته، وهو ما يعني أن النبي هو من اختار الهجرة.

(1) جعيط، م.س، ص 291.

والقرآن نفسه يتحدث عن الهجرة والمهاجرين وليس عن التهجير والمهجَّرين. لقد حسمت قريش أمرها وقررت قتل النبي. وكان أمام النبي خياران: إمّا أن يستسلم لقريش، وإما أن يهاجر ويترك مكة. لم تخير قريش النبي بين الخروج أو القتل، وهذا يعني أن خروج النبي لم يكن شيئًا مرغوبًا فيه لدى قريش لأن الحل الوحيد الذي ينهي رسالة محمد ﷺ بالنسبة إليها هو تصفيته والاستراحة منه نهائيًا. فهذا القتل هو وحده الكفيل بإعادة توحيد صفوفها وإعادة الهيبة إليها.

لقد كانت قريش مجموعة قبلية صغيرة غير أنها كانت قوية الشخصية، وماكرة وقادرة على التخطيط.. ومشكلتها أنها وجدت نفسها أمام نبي يتفوق عليها في كل شيء. لكن هذا النبي العظيم لن يُقْصِيَها بعد انتصاره عليها بل سيدخلها في نظامه ليصبح الكثير من أفرادها قادة عسكريين وسياسيين.. لم يحاول النبي تهميش أي كفاءة قرشية حتى لو كانت مهزوزة في إيمانها بالرسالة، بل إنه سيسعى للإفادة منها بأكبر قدر ممكن.

لقد قرروا قتله، وقرر هو الهجرة. ولو هُجِّر لما حاولت قريش ملاحقته في كل مكان. والذي لا شك فيه هو أن الهجرة كانت ضرورية للرسالة ونجاحها. فقد وجد النبي صدًّا عنيفًا من وجهاء قريش، ولم يكن عدد الداخلين في الدين الجديد بحجم التضحيات المقدمة. وبقي النبي ضعيفًا في عدد الأنصار الذين اتبعوه وفي العدة التي يملكها، وكان لابد من البحث عن طريقة يتمكن من خلالها من بناء القوة التي تجعله قادرًا على المواجهة والنصر.

بناء الدولة

كان الهدف الأول للنبي ﷺ في المدينة معالجة الوضع الاجتماعي للمهاجرين الذين تركوا كل ما يملكونه في مكة. فكانت أول خطبة ألقاها تشجع المسلمين وتدفعهم إلى التضامن فيما بينهم من أجل مساعدة فقرائهم وإيواء مشرديهم. وقد ترجم النبي ذلك من خلال مؤاخاة المهاجرين فيما بينهم. ثم المؤاخاة بينهم وبين الأنصار حتى أن بعضهم كان يرث الآخر رغم انتفاء أية قرابة بينهما. كان ذلك يشير إلى تحول أساس الأخوة عن الأطر القبلية ليصبح

الدين هو الإطار الجديد لهذه الأخوة. وحتى أن المستضعفين الذين سموا بـ«أهل الصفّة» والذين لم يجدوا من يؤاخيهم من الأنصار تكفل النبي وأصحابه بإطعامهم وإيوائهم. كانوا يقيمون في مكان مسقوف هو صُفّة المسجد.

كان ذلك مجرد خطوة في اتجاه بناء الدولة؛ لأن الإسلام كان يملك منذ البداية مشروعه السياسي الذي لا يستغني عن الدولة التي تحتضنه في قيمه وتشريعاته ومفاهيمه. وإذا كان الإسلام يرى نفسه ممثلًا للحقيقة، فإن هذه الحقيقة تحتاج إلى القوة من أجل أن تنتشر وتستمر.

وكان النبي ﷺ يبشر المكيين بملك العرب والعجم إذا هم اتبعوه وقد نقل ذلك عنه في مناسبات مختلفة. فقد رُوي عن عفيف الكندي قول العباس عندما سأله: ما هذا الدين؟ عندما كان في تجارة في مكة فأجابه: «هذا محمد ابن عبد الله ابن أخي زعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستُفتح عليه، وهذه امرأته خديجة آمنت به، وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به. وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض أحدًا على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة..»[1]. ويذكر ابن هشام في سيرته أن النبي قال لزعماء قريش عندما ذهبوا يشكونه إلى عمه أبي طالب: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم». وعندما حاصر القرشيون بيت النبي ليلة الهجرة يريدون قتله قال أبو جهل لجماعته: «إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم»[2]. ولما عرض النبي نفسه على بني عامر بن صعصعة بعد أن يئس من قريش أجابه رجل منهم: «أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك. قال الأمر لله يضعه حيث يشاء. فقال له: أتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه»[3].

هذه النصوص تعلن بوضوح أن النبي كان يملك منذ البداية مشروعًا

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 3، ص 37.

(2) **سيرة ابن هشام**، تهذيب عبد السلام هارون، ص 107.

(3) م ن، ص 96.

سياسيًا وليس مجرد دعوة لدين جديد. وما يعطي هذه النصوص دلالتها هو أن الإسلام كان لا يزال في أيامه الأولى، وهو ما يُعَرّي الموقف الرافض لوجود هذا المشروع منذ البداية ويجعله دون أساس. لقد برهن الإسلام دائمًا أنه ليس مجرد عقيدة على نحو الأديان الوثنية، برهن على أنه لا ينفك عن البعد السياسي بما أنه يطرح منهجه وقوانينه وقيمه التي لا يمكن تطبيقها إلا في إطارها السياسي الذي يؤمن بها.

ولو كان الإسلام مجرد عقيدة دون أن تكون له أبعاده السياسية لما كان ذلك مستفزًا لقريش على النحو الذي يرويه المؤرخون. لقد كان دفاع قريش عن أصنامها يخفي وراءه تمسكًا بما هو قائم لأن المتضرر الأول من أي تغيير هم وجهاء قريش، كما أن اندفاع الفقراء والعبيد والموالي نحو اعتناق الدين الجديد يمكن أن يفسره المضمون السياسي الذي كان يحمله الإسلام في المساواة والعدالة والحرية والأخوة الإنسانية.. لقد اندفع هؤلاء المستضعفون نحو الإسلام بينما ظل وجهاء قريش متمسكين بأوثانهم إلى أن قتلوا في المعارك أو اضطروا للاستسلام.. كان المستضعفون يبحثون عن حقوقهم وحريتهم من خلال الإسلام. فيما كان القرشيون يريدون المحافظة على مصالحهم من خلال الأصنام.

لقد كان النبي ﷺ مهددًا في حياته قبل أن يقرر الهجرة إلى المدينة. فبعد وفاة عمه أبي طالب سنة 4ق.هـ، لم يعد هناك من يستطيع تأدية هذا الدور. حتى حمزة لم يستطع أن يفعل ذلك. لقد نجح أبو طالب في التغطية على النبي من أجل أن يأخذ حريته في الدعوة دون أن تتمكن قريش من إسكاته. ولكنه اليوم أصبح مطوقًا وكان لابد من التفكير في حل. كان النبي على علاقة ببعض أهل المدينة الذين كانوا يأتون إلى مكة ويدعوهم إلى الإسلام. كانوا ستة أشخاص من الخزرج في البداية. أسلموا وعادوا إلى المدينة التي لم يبق فيها بيت ليس فيه حديث عن النبي الجديد[1]. ثم بايعه اثنا عشر رجلًا في بيعة العقبة الأولى وبعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن

(1) م ن، ص 96.

ويصلي بهم. وحين عاد مصعب إلى مكة مع مجموعة من أهل المدينة التقوا النبي وتمت بيعة العقبة الثانية على أن يحموا النبي ويحارب من حاربوا ويسالم من سالموا. فسميت لذلك بيعة الحرب.

كان النبي ﷺ يبحث عن قاعدة جديدة لدعوته، وكان أهل يثرب يبحثون عن الرجل الذي ينقذهم من الفوضى الأمنية التي لم يجدوا لها حلًا. فقد اشتعلت بين بطون أهل يثرب حروب ومعارك مدمرة كان آخرها وقعة «بعاث»، وكان لابد من وضع حد لذلك كله. وهنا التقت مصلحة النبي في إيجاد قاعدة لدعوته ومصلحة أهل يثرب في الخروج من شرنقة العنف الدموي. لقد كان ذلك التقاءَ مصالح إذ لا معنى للصدفة في التاريخ.

لكن من جهة أخرى، لم يكن الأمن هو الهاجس الوحيد، رغم أنه ربما كان الأهم، بل كان هناك الكثيرون يبحثون عن الإيمان الحقيقي. لقد وجدوا لدى النبي ما كانوا يبحثون عنه وهم لذلك آمنوا به وتقبلوه. فمن الصعب أن يقبل مجتمع تنصيب شخص من خارجه حاكمًا عليه إذا لم يكن ذلك منطلقًا من قناعات فكرية وإيمانية.

كانت يثرب تضم قبائل عربية مشركة وأخرى يهودية، فالأوس والخزرج كانا أهم القبائل العربية في هذه المدينة، بينما كان بنو قريظة وبنو النضير وبنو القينقاع أهم القبائل اليهودية. كانوا يملكون الحصون والمزارع وكثيرًا من الصناعات بينما كان العرب المحذرون من أصول يمنّية قحطانية يعملون لديهم.

كان بينهم نوع من الموالاة إلا أن ذلك لم يمنع من اشتعال الصراعات التي كانت تحدث بشكل متكرر بين الأوس والخزرج. وحتى اليهود كانوا منقسمين فيما بينهم. ففي حين كان بنو القينقاع يحاربون إلى جانب الخزرج، كان بنو النضير وبنو قريظة يقفون إلى جانب الأوس.

وقد كان ليهود يثرب صيت لدى العرب باعتبارهم الأكثر اطلاعًا على اليهودية رغم أنهم لم يكونوا يلتزمون تمامًا بالشريعة اليهودية. أرسلت إليهم قريش عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث يستفتيانهم في أمر النبي[1].

(1) إسرائيل ولفنسون، **تاريخ اليهود في بلاد العرب**، القاهرة 1927، ص 107.

فاليهود كانوا ينشرون بين عرب يثرب أن زمنهم هو زمن ظهور نبي. وكانوا يقولون إنهم سيحاربون تحت لواء هذا النبي العربَ كلَّهم وسيبيدونهم. وربما كان ذلك سببًا إضافيًا في تسريع اتصال عرب يثرب بالنبي في مكة ثم المبادرة إلى مبايعته قبل أن يفعل ذلك اليهود. من الممكن أن يكون النبي المنتظر لدى اليهود هو مسيحهم، إلا أن مجرد معرفة عرب يثرب بأن هناك نبيًا منتظرًا، يمكن أن يدفعهم إلى المسارعة إليه.

دستور المدينة

أصبح النبي ﷺ الحاكم الفعلي في المدينة بعد أن اختاره الناس لذلك، وكان لابد له من تنظيم حياتهم على أساس قوانين واضحة يكون الجميع متساوين أمامها. ومن هنا كانت فكرة وضع «صحيفة المدينة» التي ستكون بمثابة الدستور أو القانون الأساسي للمجتمع الجديد. أقرت الصحيفة ما كان معمولًا به من قوانين داخل المجموعات المختلفة التي وقّعت هذه الوثيقة، كما هو شأن مسائل الدية والعاقلة. وهي تدعو إلى معاملة الأسرى معاملة إنسانية، وتطالب بالعدالة في افتدائهم. وهذا الإقرار يعطي كل فئة الحق في أن تحل خلافاتها على أساس قوانينها الداخلية الخاصة. أما النزاعات الخارجية بين الفئات المختلفة فإن الدولة هي التي تتولى الحكم فيها.

وتدعو الصحيفة إلى التضامن بين المؤمنين بحيث يساعدون من كان مثقلًا بالديون ومن كان مطالَبًا بفداء أو دية، ويقفون إلى جانب من كان مظلومًا. وتوصي أن لا يُقتل مؤمن في كافر وأن لا يُنصر كافر على مؤمن، وإذا أجار مؤمن ضعيف كافرًا فإن إجارته تكون ملزمة للجميع. أما اليهود الذين دخلوا في عهد مع المسلمين فإن لهم كل ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وعندما يكون هناك صلح فيجب أن يكون جماعيًا وليس فرديًا والدولة هي التي تتولاه وليس القبيلة. وتقرر الصحيفة أن الغزو يكون بالتناوب بين القبائل ودماءهم في القتال متكافئة لا فرق بين قوي وضعيف. وكل من قتل مؤمنًا فإنه يُقتل به إلا أن يعفو ولي الدم. كما أنه لا يحق لمن أقر بهذه الصحيفة أن ينصر مجرمًا أو يُؤويه.

أما الطرف الثاني في هذه الوثيقة فهم اليهود. وهم يتحملون نفقات

الحرب مع المؤمنين لأن نفقات المحارب كان يتحملها هو نفسه. وهذا يعني أن المؤمنين واليهود «أمة واحدة» في مجتمع مدني يخضع للقوانين نفسها. أما الخصوصية الدينية فتبقى محترمة لكل فريق.

وكما تلزم الصحيفة المسلمين بالرجوع إلى النبي، فكذلك تفعل مع اليهود خصوصًا عندما يتعلق الأمر بالخروج من المدينة أو التعرض إلى مظلمة، لأن النبي كان يمثل السيادة في المدينة والمرجعية التي لابد للجميع أن يلتزم بها.

وتحرم الصحيفة القتال في يثرب وتدعو إلى الدفاع المشترك عنها، وهي تشترط على المشركين واليهود عدم إجارة أي شيء لقريش سواء كان مالًا أو شخصًا، وفي حالة الحرب يجب الامتناع عن مساعدة قريش بأي نحو[1].

كما تؤكد الصحيفة على مرجعية الدولة في حل الخلافات بين المسلمين بعضهم مع بعض أو بين المسلمين واليهود. وهي في النهاية، تلح على أهمية المعاملة الحسنة بين الجميع والحفاظ على أمن المجموعة[2].

كانت الصحيفة المنظّم الفعلي للعلاقات العامة بين أهل المدينة في الحرب والسّلم. ورغم أن هذه الوثيقة جاءت في ظرف متوتر بسبب تهديدات قريش، إلا أنها لم تهمل قط العلاقات الداخلية التي أكدت الصحيفة على أهمية أن تنطلق على أساس «البر والإحسان». وأكدت أن المجرم لابد أن يحاسب مهما كان انتماؤه الديني أو القبلي لأن المسألة الأمنية في الداخل خطّ أحمر لا يجوز الاقتراب منه. وبسهولة يمكن اعتبار هذه الوثيقة المؤسس الفعلي لمجتمع مدني قائم على أساس حقوق المواطنة حيث يتساوى الجميع أمام القانون دون تمييز على أساس الانتماء الديني أو الطائفي أو الإثني.

لقد أراد الإسلام منذ البداية أن يطرح مفهوم الأمة بدل مفهوم القبيلة.

(1) **سيرة ابن هشام**، تهذيب عبد السلام هارون، م.س، ص119.
(2) م.ن، ص120.

فالفرد الذي يختار نظام الإسلام ويخرج على نظام القبيلة، لن تصبح حياته مهددة، بل إنه سيجد في انتمائه الجديد بديلًا عما كان يجده في القبيلة وأكثر.. لقد أراد الإسلام تفكيك سلطة القبيلة، وإعطاء هذه السلطة للأمة بوصفها كيانًا يتجاوز القبيلة لينتهي بذلك الرابط العرقي والإثني أن يكون أساسيًا ويترك مكانه للرابط الفكري والسياسي[1].

المواجهة المسَلّحة

أنهت آية القتال مرحلة الصبر وأعطت المسلمين الإذن بالدفاع المسلح ردًا على محاولات قريش المستمرة إيذاءهم. لقد كانت قريش هي البادئة بإعلان الحرب على المسلمين عندما مارست ضدهم الحصار والإبعاد والتعذيب، ولم يكن بإمكان المسلمين آنذاك الدخول في معارك دفاعية مسلحة ضد قريش، لكنهم اليوم أصبحوا يملكون هذه القوة وأصبح بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم بقوة السلاح. عقد النبي ﷺ وثيقة الدفاع المشترك مع أهل المدينة بمكوناتهم المختلفة. وكان الهدف محاصرة قريش في تجارتها وضرب مصالحها الاقتصادية من جهة واستفزازها عسكريًا من جهة أخرى. لم يكن النبي يريد مواجهة عسكرية مبكرة يكون هو البادئ بها. ولكنه كان يريد دفع قريش إلى اختيار المواجهة العسكرية دون أن يبادر هو إلى ذلك. كان ذلك كمينًا وقع في شركه أبو جهل والبقية الذين قتلوا في المعركة.

لقد أسعف الموقع الجغرافي للمدينة بين مكة والشام المسلمين لتوجيه تهديدات جدية إلى قوافل قريش التجارية. ولم تمر سوى سبعة أشهر على وصول النبي ﷺ إلى المدينة حتى بدأ بالإعداد للتحدي الجديد، فنظّم سرية أسند قيادتها إلى عمه حمزة وكلفها اعتراض قافلة قرشية قادمة من الشام كان يقودها أبو جهل. غير أن حليفًا للطرفين تدخل ومنع وقوع القتال. وفي الشهر التاسع بعد الهجرة بعث النبي سرية يقودها سعد بن أبي وقاص مهمتها

(1) بعد مرور أكثر من 14 قرنًا، لا تزال القبيلة في الكثير من البلدان العربية والإسلامية تملك سلطة تتجاوز سلطة الدين والدولة معًا.. وهذا يعني أن ثقافة الإسلام لم تحكم على نحو كامل وحقيقي بعد وفاة النبي ﷺ إلا في فترات قصيرة.

الاستطلاع، لكن القافلة التي كانت هدفًا لهذا الاستطلاع كانت قد مرّت قبل يومين[1].

وفي الشهر الثالث من السنة الثانية بعد الهجرة قاد النبي بنفسه غزوة الأبواء يريد قريشًا وبني ضمْرة. لكن بني ضمرة وادعوه فرجع إلى المدينة. ثم خرج إلى بواط في الشهر نفسه في مائتين من أصحابه يريد اعتراض قافلة قرشية كان يقودها أُمية بن خلف، غير أن احتكاكًا بين الطرفين لم يقع. ثم خرج مرة أخرى في الشهر ذاته في غزوة «ذات العشيرة» يريد اعتراض قافلة قادمة من الشام[2].

هذه المحاولات المتعددة لاعتراض قوافل قريش القادمة من الشام، كانت إشارة واضحة إلى أن النبي حدد الهدف وحدد الأسلوب. ولعل تعدد القوافل القرشية يشير إلى المدى الواسع لتجارة قريش، فقد كانت مكة مركزًا دينيًا وتجاريًا معًا.

كان النبي يريد إشعار قريش أن ضرب مصالحها التجارية أصبح أمرًا في متناول المسلمين، وهو لذلك سيستمر في حملاته على قوافل قريش. فقد بعث النبي عبد الله بن جحش في شهر رجب من السنة الثانية بعد الهجرة على رأس مجموعة صغيرة لاستطلاع تحرك القوافل بين مكة والطائف. وقد أغارت المجموعة على قافلة تجارية وأسرت رجلين أخذتهما إلى المدينة. لم يكتف النبي بضرب التجارة القرشية بين مكة والشام بل وسع دائرة استهدافاته لتشمل الطائف المتحالفة مع مكة.

والمشكلة أن هذه السّرية وقعت في رجب وهو شهر حرام. لم يأمر النبي المجموعة بالقتال، لكن القتال وقع. وبدأ نقاش حول المسألة بين أصحاب النبي الذين خاف بعضهم أن تعيّره قريش بذلك. وهنا نزل قرآن يجيز القتال معتبرًا أنه رد طبيعي على إخراج قريش للمسلمين من ديارهم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

(1) **سيرة ابن هشام**، م.س، ص125.

(2) م.ن، ص125.

ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾[1].

لكن المعركة الكبرى ستحدث بعد ذلك في شهر رمضان عندما سيواجه المسلمون قريشًا في معركة بدر 17 رمضان2هـ/ 12 مارس 624م. سبق هذه المعركة بمدة قصيرة تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، أي في 16 شعبان 2هـ، وكان ذلك حدثًا مهمًا قطع الطريق على القريشيين الذين كانوا يقولون إن محمدًا ترك قبلة آبائه واتبع قبلة اليهود. وتغيير القبلة كانت له رمزيته. لقد عنى ذلك نية النبي استرجاع الكعبة وتحويلها إلى مركز للإسلام. وفهمت قريش أن النبي لا يستهدفها في تجارتها فقط وإنما أيضًا في مقدساتها الدينية.

وربما لأجل ذلك أصرت قريش على الحرب. فعندما أبلغ أبو سفيان الملأ القرشي أنه قد نجا بقافلته وأن عليهم العودة إلى مكة، أصر أبو جهل على التوجه إلى بدر. لقد كان أبو سفيان قادمًا من الشام يقود قافلة في سبعين راكبًا.. ولما علم النبي ﷺ بهم أخبر أصحابه فخرجوا يريدون القافلة. وعندما وصل خبر خروجهم إلى أبي سفيان أرسل إلى قريش يطلب النجدة. فجهزت قريش جيشًا قوامه 950 رجلًا يقودهم أبو جهل، غير أن أبا سفيان عرج بجيشه نحو البحر ودخل مكة، ثم أرسل إلى أبي جهل يعلمه بذلك. لكن الأخير أصر على الذهاب إلى بدر التي كانت مكانًا تقام فيه الاحتفالات كل سنة حتى يسمع العرب بذلك وتحتفظ قريش بهيبتها![2].

وبعد نقاش بين النبي وأصحابه، قرروا مواجهة قريش رغم قلة عددهم الذي لم يتجاوز 313 رجلًا. لكن في المقابل لم يبق جيش أبي جهل على تماسكه، بل انسحب منه بنو زهرة بعد أن علموا بنجاة قافلة أبي سفيان. انتصر المسلمون في بدر وقُتل أبو جهل مع 70 من رجاله. بينما استشهد 14 من المسلمين، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 217.

(2) **سيرة ابن هشام**، م.س، ص135.

لكن هذه الغنائم لم تكن هدفًا للنبي. كان هدفه الأول انتصار الإسلام، وهو لأجله رفض منذ البداية إغراءات قريش. لكن أصحاب النبي لم يكونوا جميعًا بمستوى قيم الإسلام. ولذلك نجد أن بعضهم نزلوا برجل من بني سليم وهو يسوق غنمًا فسلم عليهم فقالوا ما سلّم علينا إلا تقية، فقتلوه واستولوا على غنمه وفيهم نزل قرآن يوبخهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[1]. وعندما قرر النبي دخول مكة واستنفر المسلمين تلكأ الأعراب وامتنعوا عن مرافقته. وبعد عودته ظافرًا جاء هؤلاء الأعراب يريدون مرافقته إلى خيبر طمعًا في الغنيمة.

بعد أشهر من معركة بدر، خرق بنو القينقاع من اليهود الصحيفة وبدأوا يُسيئون إلى المسلمين، فحاصروهم أسبوعين إلى أن استسلموا وتم إجلاؤهم عن المدينة نحو الشام. وبعد معركة أحد التي هزم فيها المسلمون، حدث أن قتل أحد المسلمين رجلين سبق أن أعطاهما النبي الأمان، فطلب الرسول من يهود بني النضير المساهمة في دفع الدية وفق اتفاق الصحيفة. أظهروا الموافقة على ذلك ثم بدأوا يتآمرون لاغتيال النبي. ولما علم الرسول بذلك عاد إلى المدينة وقرر الاستعداد لحربهم، فحاصرهم في حصونهم أسبوعًا إلى أن طلبوا الكف عنهم مقابل بعض المال. قبل النبي ذلك، لكنهم قرروا مغادرة المدينة إلى خيبر بينما اتجه البعض الآخر نحو الشام[2].

لكن من تبقى من اليهود لن يقبل الأمر الواقع، وسيسعون إلى التحالف مع قريش وغطفان وبني سليم. تجمع هذا الحلف الكبير الذي كان بنو قريظة طرفًا فيه حول المدينة فيما عرف بغزوة الأحزاب أو الخندق. لكن عليًا بن أبي طالب استطاع قتل عمرو بن عبد ود في هذه المعركة وهو ما أدى إلى زرع الشك والخلاف بين الأحزاب. فعمرو هذا كان الفارس والقائد العسكري الكبير في التحالف المعادي للمسلمين. ثم جاءت رياح شديدة دفعت هذا الحلف إلى

(1) سورة النساء، الآية: 94.

(2) **سيرة ابن هشام**، م.س، ص 147.

فك حصاره عن المدينة. وقد ساهم الخندق الذي حفره المسلون بنصيحة من سلمان في حماية المسلمين.

وبعد انتهاء الحصار، توجه النبي إلى بني قريظة الذين نقضوا بدورهم ميثاق الصحيفة بانضمامهم إلى الأحزاب، فحاصرهم إلى أن قبلوا تحكيم أحد الخبراء من حلفائهم السابقين.

وعلى هذا النحو فشلت الأحزاب التي كانت مكونة من عشرة آلاف مقاتل في النيل من المسلمين الذين خرجوا أكثر قوة وبدأ عددهم يتزايد بشكل مستمر بعد أن أصبحت قبائل كثيرة تتجه للدخول في الإسلام. وأصبح المسلمون أكثر اقتدارًا على التحكم في طرق تجارية أخرى كطريق العراق. وبقيت خيبر تثير قلق المسلمين، حتى قرر النبي مهاجمتها، فحاصرها ثم فتح علي حصونها الواحد تلو الآخر إلى أن طلب اليهود حقن دمائهم مقابل مغادرتهم خيبر وهو ما قبله النبي[1].

لقد انتهت قريش عمليًا ولم يعد بإمكانها مواجهة النبي ﷺ بعد أن قضى على حلفائها اليهود. وهو لذلك سيقرر التوجه إلى مكة لزيارة البيت الحرام دون أن تكون لديه نية الحرب. لكن قريشًا قررت منعه من الدخول. ولما سمع النبي بذلك قال: «ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة»[2].

كانت تلك رسالة موجهة ليس إلى قريش فقط بل إلى القبائل العربية كلها. فقد بدأ النبي يفكر في طي صفحة قريش والتوجه نحو العرب. عرفت قريش أنه لم يبق أمامها سوى التفاوض. وهنا تدخل رجال من خزاعة وهم حلفاء تاريخيون لبني هاشم وذهبوا إلى النبي للاستفسار عن سبب مجيئه، فأخبرهم أنه لم يأت من أجل الحرب ولكن من أجل زيارة البيت الحرام. أبلغوا ذلك

---

(1) م.ن، ص218.

(2) م ن، ج 2، ص 317.

إلى قريش. لكنها كانت في حاجة إلى طريقة لحفظ ماء وجهها، ذلك أن دخول المسلمين مكة دون اتفاق سيُعتبر دخولًا بقوة السلاح. ولذلك كانت إجابتهم للوسطاء: «إن كان [النبي] جاء ولا يريد قتالًا فوالله لا يدخلنها علينا عنوة أبدًا ولا تحدث بذلك عنا العرب»[1].

كانت قريش تريد بهذا الرد الدخول في مفاوضات مع النبي، فهي رفضت فقط أن يدخل النبي مكة عنوة، ولم ترفض دخوله في كل الحالات. وهكذا انتدبت مبعوثًا من جانبها فيما أرسل النبي من جانبه عثمان بن عفان بعد أن اعتذر عمر بن الخطاب الخائف من قريش. أوصت قريش مبعوثها: «ائت محمدًا فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنّا عامه هذا». وقبل النبي عرض قريش، وأبرم الصلح في مكان قريب من مكة يسمى الحديبية سُمي الصلح باسمه. وكان نص الصلح: «أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.. وإنك [يا محمد] ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها»[2].

وبذلك أعلنت قريش من خلال هذه المعاهدة اعترافها بالمسلمين لأول مرة.. بل إنها بهذه المعاهدة تعترف بعجزها عن مواصلة مواجهة المسلمين عسكريًا. وكان هذا في الحقيقة ما يريده النبي. وفي السنة التالية عاد النبي إلى مكة كما نصت الوثيقة وأدى العمرة مع المسلمين ومكث ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة.

وخلال هذه الفترة، بعد العودة إلى المدينة، سيخوض المسلمون عدة معارك ضد قبائل عربية متمردة من أجل تأديبها وتأمين طرق التجارة مع الشام. كما سيرسل النبي جيشًا إلى مؤتة لقتال الروم لكن قادته سيستشهدون ليعود الجيش إلى المدينة.

---

(1) م ن، ج2، ص 318.

(2) م ن، ج2، ص 318.

فتح مكة

لم يستخدم القرآن الكريم ـ وهو يشير إلى معارك النبي ـ مصطلح الغزو الذي يحيل على معنى الهيمنة والإخضاع من خلال القوة المسلحة، بل استخدم مصطلح الفتح الذي يعني إزالة الحواجز التي تمنع من الدخول. لقد كان الإسلام في حركته كلها يريد تحرير الناس من الظلم والتجهيل والحرمان الذي يمارسه ضدهم الحكام الطغاة الذين يمثلون دائمًا حاجزًا أمام وصول رسالة الدين الإلهي إلى الناس. كانت مهمة النبي ﷺ إبعاد الطغاة الفاسدين من طريقه من أجل الوصول إلى الناس، وكان يقول لقريش: «خلوا بيني وبين الناس»، وهو لذلك كان يقدم دائمًا الوسائل السلمية من أجل تحقيق أهدافه ولم يكن يلجأ إلى وسائل القوة إلا عندما يكون ذلك ضروريًا. وهذه القوة عندما تكون ضرورة، لم تكن موجهة إلا ضد الطغاة وأدواتهم ولم تكن قط تستهدف الناس المسالمين. إن هذا يعني أن الفتح كما يمكن أن يتم بالقوة المسلحة، يمكن أن يتم أيضًا بالوسائل السلمية. وهذا ما سيفعله النبي في فتح مكة.

لقد حدث أن اعتدت قبيلة بني بكر حليفة قريش على قبيلة خزاعة حليفة المسلمين. فطلبت الأخيرة نجدة المسلمين بعد أن أيدت قريش بني بكر، وهنا تخوفت قريش وتراجعت خشية ردة فعل النبي. فتوجه أبو سفيان إلى المدينة للاعتذار من الرسول فقصد بيت ابنته أم حبيبة حديثة الزواج بالنبي ثم طلب من علي التدخل لدى النبي. لكن عليًا نصحه بالعودة إلى مكة.

لقد قرر النبي ﷺ دخول مكة ولم يكن مستعدًا للتراجع وتضييع فرصة فتح مكة. جهز عشرة آلاف من المسلمين. وعندما اقترب الجيش من مكة خرج العباس للقائه، وهو الذي لم يسبق له مغادرة مكة، فأُسر لكنه افتدى نفسه بالمال وعاد إلى تجارته في مكة. أما أبو سفيان فقد خرج هو الآخر مع مجموعة من القرشيين يستطلع الأخبار، لكنه التقى صدفة العباس عائدًا إلى مكة، فأعلمه أن النبي قادم إلى مكة وأن الرسول سيضرب عنقه لو ظفر به واقترح عليه أن يردفه خلفه ويأخذه إلى النبي ويستأمنه له. لم يفكر أبو سفيان كثيرًا وقبل اقتراح العباس لينجو بنفسه. لقد خان قضيته وترك قومه يواجهون

مصيرهم مختارًا سلامته الشخصية. وهو ما يعني أن الرجل لم يكن يدافع عن مبادئ بل كان يدافع عن مصالح شخصية ضيقة.

أمر النبي ﷺ العباس أن يأخذ أبا سفيان معه.. وعندما جاءه في صباح اليوم التالي طلب منه الإسلام. لكن أبا سفيان تلكأ، وعندما طلب منه النبي أن يشهد بنبوته قال: «أما هذه والله فإن في النفس [منها] شيء حتى الآن!». لكنه في النهاية نطق بالشهادتين حقنًا لدمه. لقد استسلم أبو سفيان للأمر الواقع، ولم يكن مطلوب منه أكثر من ذلك. ومن أجل حفظ ماء وجهه طلب العباس من النبي أن يجعل له شيئًا. فقال النبي: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[1].

ثم أمر النبي العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي حتى يشهد الاستعراض الذي ستنظمه جيوش المسلمين. وبعد مرور الكتائب وانتهاء الاستعراض التفت أبو سفيان إلى العباس وقال: «والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا!»، فأبو سفيان لا يؤمن بنبوة محمد وهو يراه ملكًا ليس أكثر. عندئذ رد عليه العباس «إنها النبوة..»، وطلب منه أن يذهب إلى قريش يخبرهم بما رأى.

كان النبي ﷺ يريد بهذا الاستعراض إدخال الرعب في قلب أبي سفيان ودفعه إلى الاستسلام نهائيًا. وهذا ما حدث بالفعل عندما خاطب أبو سفيان قريشًا بأعلى صوته: «هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[2].

دخل جيش المسلمين مكة يوم 21 رمضان 8هـ/ 9 جانفي ـ يناير630م، بعد أحد عشر يومًا من مغادرة المدينة، واجتمع الناس حول النبي فخطب فيهم وقال: «ما ترون إني فاعل بكم؟» قالوا: «أخ كريم وابن أخ كريم» فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» إذ لا مجال للحقد والانتقام في قلب النبي.

---

(1) ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ج 2، ص 389 ـ 405.

(2) م ن، ص 405.

وبفتح مكة، استطاع النبي أن ينهي أشد خصومه، ويطهر البيت من الأوثان التي كانت تُعبد فيه. كان ذلك حدثًا مفصليًا سيمكن النبي من تمشيط المناطق المحيطة بمكة والسيطرة على الجزيرة العربية.

بعد فتح مكة كانت قبائل هوازن وثقيف تستعد للهجوم على المسلمين طمعًا في الحلول محل قريش. وكان لابد للنبي أن يواجه الموقف الجديد فخرج بجيشه الذي ضم إليه بعض الطلقاء ثم عسكر في حنين بين مكة والطائف يوم 10 شوال 8هـ/ 29 جانفي 630م، واستطاع المسلمون أن يهزموا حشود هوازن وثقيف بعد قتال شديد مالت فيه الكفة في البداية للمهاجمين.

كانت الغنائم كثيرة، لكن النبي ﷺ اختار توزيعها على المهاجرين والطلقاء دون الأنصار. كان ذلك أمرًا مزعجًا لأهل المدينة الذين آووا النبي.. وكان لابد للنبي أن يبرر خياره أمام سعد بن عبادة الذي أخبره بذلك. جمع النبي الأنصار وخطب فيهم.. ذكرهم بما كانوا عليه قبل الهجرة من ضلال وفقر وخوف ولكنه ذكرهم أيضًا بتصديقهم له ونصرهم ومواساتهم.. حتى يكون متوازنًا ومنصفًا.. ذكرهم بذلك ثم بيّن لهم أنه أراد بما فعل تأليف قلوب القرشيين الخارجين توًا من هزيمة مرّة.. لقد أوضح لهم أنه اشترى من القرشيين إسلامهم بالمال.. ثم وضع النبي ﷺ الأنصار في حركة لافتة بين خيارين إما العودة بالبعير والشاة وإما العودة بالنبي.. ولا يمكن للأنصار إلا أن يختاروا العودة برسول الله. ومن أجل أن يُنهي النبي تمامًا أي شعور بالغبن في نفوس الأنصار واصل خطابه: «والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ولو سلك الناس شعبًا وسلك الأنصار شعبًا سلكت شعب الأنصار.. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار..»[1] وهنا بكى الأنصار حتى «أخضلوا لحاهم» وقالوا: «رضينا برسول الله قسمًا وحَظًا..»[2] لقد أراد النبي أن يُفهم الأنصار أنهم أصحاب مبادئ وأن دينهم لا يباع ولا يشترى.

(1) **سيرة ابن هشام**، تهذيب عبد السلام هارون، م.س، ص 258.
(2) م.ن، ص259.

كان النصر الذي حققه النبي كبيرًا. لكن ذلك لن يخفي سلبيات كثيرة ستظهر لاحقًا. فقد أصبح الكيان الإسلامي يضم إضافة إلى المهاجرين والأنصار مجموعات كبيرة من المنافقين والطلقاء والمنبهرين والمترددين.. كما انضمت إلى صفوف المسلمين أعداد كبيرة من الأعراب الذين دخلوا في الإسلام لأسباب شتى ليس بينها الإيمان العميق في أغلب الأحيان. وهؤلاء جميعًا لم يخلعوا عنهم تمامًا ثقافتهم الجاهلية ولم يتمثلوا في العمق ثقافة الإسلام، فذلك ما يحتاج إلى صيرورة تاريخية طويلة. ومن هنا كان لابد من إستراتيجية تضمن تربية الناس تربية إسلامية صحيحة تقطع مع تنويعات الثقافة الجاهلية.

ويجب القول، إن فتح مكة كان حدثًا عالميًا تجاوز الإطار العربي. فقد أصبح النبي الآن يسيطر على معظم الجزيرة العربية، وأصبحت مكة بثقلها الديني والتجاري في يد المسلمين. بل إن المسلمين أصبحوا يتحكمون في الطرق التجارية المختلفة. وكان الروم على الحدود الشمالية يرون في ذلك تهديدًا لمصالحهم الاقتصادية والسياسية وبدأوا يجهزون جيشًا يضم القبائل العربية في الشام يريد مهاجمة المدينة وإسقاط الدولة الإسلامية الوليدة.

أراد النبي ﷺ استباق الأمور وقرر تجهيز جيش لإيقاف الروم عند حدهم وثنيهم عن مخططاتهم. لكن الناس أبدوا تثاقلًا وكان الفصل صيفًا والموسم موسم حصاد. وفوق ذلك كان العرب يهابون مواجهة الفرس والروم.

فذكرى غزوة مؤتة المؤلمة لا تزال حاضرة في الأذهان. كانت تلك الغزوة ردًا على قتل أحد شيوخ القبائل العربية في الشام رسولًا بعثه النبي إلى هرقل. جهز النبي حينها جيشًا من ثلاثة آلاف للثأر لمبعوثه، لكن هرقل كان ينتظرهم في جيش كبير. انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، واستشهد منهم عدد كبير من بينهم قادة الجيش الثلاثة جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحه، واضطر المسلمون بعد ذلك للانسحاب إلى الصحراء والرجوع إلى المدينة بتدبير من خالد بن الوليد.

عانى النبي كثيرًا في سبيل تجهيز جيش تبوك حتى سُمي ذلك الجيش

«جيش العسرة». وكان النبي يعرف مسبقًا طول الطريق وصعوبته فأعلن منذ البداية، على غير عادته، ذلك لأصحابه وحدد الهدف المنشود. وكانت فرصة للمنافقين للعمل من أجل تمزيق معنويات المسلمين، والوقوف دون تعبئة الجيش، فبدأوا بعقد الاجتماعات في بيوت سرّية لتحقيق أهدافهم. أدرك النبي ذلك فأمر بإحراق تلك البيوت التي تحولت إلى أوكار للتآمر ضد المسلمين.

وفي النهاية نجح النبي ﷺ في تجهيز جيش يتقدمه عشرة آلاف فارس قاده بنفسه[1]. وعندما وصل الجيش إلى تبوك في شهر رجب من السنة الثامنة للهجرة، وصلت الأخبار أن الروم انسحبوا منهزمين. مكث النبي عدة أيام على الحدود الشمالية مع الروم وعقد عدة معاهدات مع القبائل العربية الخاضعة للبيزنطيين ثم عاد إلى المدينة.

كانت هذه آخر غزوات النبي، وقد أصبحت الدولة الإسلامية دولة قوية مترامية الأطراف تخيف المحيطين بها. وبدأ النبي ﷺ يرسل عماله وولاته إلى أرجاء الجزيرة العربية المختلفة لتنظيم حياة الناس وتعليمهم أحكام الدين وحل مشاكلهم واستلام الزكاة والجزية من أغنيائهم لتوزيعها على فقرائهم.

وفي هذه الفترة مات عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين، وكان ذلك حدثًا مهمًا تخلص فيه المسلمون من عنصر خطير لم يتوقف لحظة عن التآمر ضدهم.

وعندما أصبح موسم الحج على الأبواب، قرر النبي الحج للمرة الأولى إذ لم يسبق له سوى العمرة. لكن المشكلة هي أن المشركين لا يزالون يحجون

---

(1) ترك النبي ﷺ في هذه الغزوة عليًا نائبًا عنه في المدينة، لكن المنافقين بدأوا يقولون: «إن النبي أراد أن يتخفف من علي». فذهب إليه وقال له ما يتناقله هؤلاء. وهنا أجابه النبي ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي». ومعلوم أن هارون كان أخًا لموسى ووزيرًا وخليفة. لم تكن المسألة مجرد تطييب لخاطر علي كما يقول البعض لأن تطييب الخاطر لا يكون بهذه الطريقة، ولأن النبي لا يقول غير الحقيقة.. لقد كان النبي يخشى مؤامرات هؤلاء المنافقين الذين أزعجهم بقاء علي في المدينة نائبًا عنه وأرادوا التخلص منه على هذا النحو.. كان عارفًا بما يخططون له وكان الحل في بقاء شخص قوي وأمين، مثل علي، يحفظ المدينة.

على طريقتهم. نزلت سورة براءة التي تضمنت هجومًا عنيفًا على المشركين والمنافقين، فبعث النبي أبا بكر في ثلاثمائة شخص إلى الحج لقراءة السورة، غير أن الوحي نزل وأمر الله نبيه أن يبلغ هو بنفسه سورة براءة أو أن يبعث أحدًا منه. وهنا بعث النبي ﷺ عليًا لتبليغ السورة إلى الناس وإدارة الحج وعزل أبي بكر في شهر ذي الحجة سنة تسعة للهجرة[1]. كان ذلك تحذيرًا استباقيًا، فإذا كان أبو بكر غير مهيأ لتبليغ سورة من القرآن وإدارة الحج، فكيف بتبليغ الإسلام كله وإدارة شؤون المسلمين جميعًا؟ لقد كان ذلك تأكيدًا جديدًا على هوية الشخص الذي بإمكانه أن يخلف النبي ﷺ في مهامه التبليغية والسياسية، ذلك أن النبي كثيرًا ما كان يؤكد على شخصية علي، رجل المهمات الصعبة، بوصفه المرشح الأفضل لخلافته تلميحًا وتصريحًا.

لقد تم فتح مكة بعد أن نقض المشركون كل معاهداتهم، ولم يعد لهم أي حق في المشاركة في الحج. وكان لابد من تطهير الحرم من المشركين وممارساتهم من أجل أن يدخل النبي مكة حاجًا وليس في الحرم مشرك.

(1) **الطبري**، ج3، 122. **الكامل في التاريخ**، ج1، 644. **مسند ابن حنبل**، ج1، ح1296، ص318. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص190..

الوصل الرابع

أول الوهن.. اختطاف السلطة

لم يُسَمِّ القرآن الجماعة المسلمة التي بناها النبي طائفة أو شعبًا أو مجتمعًا، بل سماها أُمّة، ربما لأن مفهوم الأمّة هو وحده الذي يتضمن في الوقت نفسه معنى الحركة ومعنى الهدف. فمفهوم الطائفة مثلًا يتضمن مفهوم الحركة ولكنها حركة دائرية حول نقطة معينة، وهي من ثَمّ حركة عقيمة. كان القرآن يريد حركة تقدمية وهو لذلك كان يتحدث كثيرًا عن الهجرة والصراط والشرعة والسبيل.. لأن الحركة والمسير يحتاجان إلى الطريق الذي يوصل إلى الهدف.

وإذا كان القرآن قد جاء من أجل أن يحدد هذا الصراط الذي يوصل إلى الله في كل صفاته التي تعكس قيمًا سامية تمثل هدفًا للإنسان، فإن ذلك لم يكن كافيًا لأنه كان تحديدًا نظريًا، في حين أن الإنسان يحتاج دائمًا إلى المرشد الذي يدله على الطريق الذي ينبغي له أن يسلكه. وهذا المرشد هو من يسميه القرآن «الإمام». إن مفهوم الإمام هنا يكمل مفهوم الأمة. فكلاهما مأخوذ من الأصل: «أَمَّ» الذي يعني قَصَد وعزم واتجه نحو.. والذي يتضمن معاني الاختيار والحركة والتقدم والهدف.

لقد أراد الإسلام منذ البداية بناء أمة، وليس مجتمعًا أو شعبًا أو طائفة.. لأنه كان يريد أن يصنع إنسانًا يتحرك نحو أهدافه من أجل أن يتكامل باستمرار.. ولم يكن قط يريد كسب أتباع جامدين يرفضون الحركة والتقدم. لقد أراد الإسلام لأنصاره أن يكونوا أمة لأنه أراد لهم أن ينطلقوا في طريق واحد وراء قيادة واحدة وعلى أساس رؤية كونية واحدة من أجل إدراك الأهداف نفسها. وهذا يعني أن ما يجمع الأمة ويجعلها واقعًا وحقيقة أربعة أعمدة هي: وحدة العقيدة ووحدة الطريق ووحدة الهدف ووحدة القيادة.

فالعقيدة هي الرؤية الكونية التي يقدمها الإسلام لأتباعه فيما هي مسائل الوجود والمبدأ والمصير.. والطريق هو الشريعة والقوانين التي يلتزمون بها في حياتهم، والهدف هو القيم التي يريدون تحقيقها، أما الإمام فهو القائد والقدوة الذي لا تستغني عنه الأمة من أجل معرفة ما يجب معرفته وتحقيق ما يجب تحقيقه.

مفهوم الإمامة

إن الإمام، من خلال ما تقدم، هو الذي يدل على الطريق، لأنه هو الذي يعرف الشريعة في تفاصيلها كلها باعتبارها الطريق الموصل إلى الأهداف المقصودة. وهو الذي يعرف كل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية ورؤيتها للوجود. وهو، فوق ذلك، الذي استطاع أن يحقق في ذاته كل القيم الرفيعة التي تمثل هدفًا للأمة. إن الإمام، على هذا الأساس، يجب أن يكون الهادي والمرشد الذي يملك العلم والمعرفة، والذي استطاع أن يكون الإنسان الكامل، وهو ما أكدت عليه الآيات الكريمة: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[1] و﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2]، لأن الإمام إذا لم يمتلك المعرفة والاستقامة، لم يكن قادرًا على لعب دور المرشد والهادي. وهذا بالضبط ما كانت تشير إليه الآية الكريمة عندما تقول: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[3]).

لقد امتُحن إبراهيم عليه السلام، وعندما نجح في الامتحان أصبح إمامًا. لاشك أنه كان قبل ذلك نبيًا ورسولًا، لأنه طلب ذلك بعد أن رزق أولادًا وهو شيخ متقدم في السن. إن هذا يعني أن الإمامة مقام أعلى من مقام النبوة والرسالة. فإذا كانت النبوة لا تعني أكثر من العلم الذي يتلقاه النبي بواسطة الوحي، فإن الرسول يزيد عليه بكونه مطالبًا بتبليغ ذلك العلم الذي تلقاه بواسطة الوحي إلى الناس. أما الإمام، فإنه فوق ذلك يمارس قيادة الناس ويقدم نفسه قدوة لهم.

---

(1) سورة يس، الآية: 12.

(2) سورة الرعد، الآية: 7.

(3) سورة البقرة، الآية: 124.

ومن هنا تأكيد الآية على أن الإمامة هي عهد الله الذي لا ينال الظالمين. إن هذا هو ما يفسر لنا ارتباط مفهوم الإمامة بمفهومي القيادة والقدوة.

وعلى أساس ذلك كله فإن الإمام يحمل الصفتين السياسية والدينية، وهو مكلف مهمتين الأولى هي إدارة شؤون الأمة والثانية هي هداية الأمة[1]. وهنا يكمن الاختلاف في مفهوم السياسة بين الإسلام وغيره من الفلسفات. إنه يرى أن هذا المفهوم يتضمن بعدي الإدارة والتربية بعكس الفلسفة الغربية مثلًا التي لا ترى في السياسة سوى إدارة لشؤون الناس بعيدًا عن أية مهمات تربوية. إن هذا يعني أن الإسلام يتبنى مفهوم الصيرورة الاجتماعية ويرفض الجمود والخمول.. وهو من أجل ذلك يعلن أنه يطرح منظومته أمام الإنسانية من أجل تحقيق أهدافها في السمو والرفعة.

وعندما نأتي إلى نبي الإسلام ﷺ، فإننا نجد أنه كان إمامًا فوق كونه نبيًا ورسولًا. فهو لم يكن رسولًا يحمل مهمة تبليغ الإسلام إلى الناس فحسب، بل كان فوق ذلك الإمام الذي يدير شؤون أمته، ويرشدها إلى صلاحها.

إن الإمامة تتضمن مفهومي القدوة والقيادة كما أشرنا، والإمام قدوة لأنه استطاع أن يكون الإنسان الذي حقق في ذاته كل تلك القيم الإنسانية الرفيعة فهو عالم وحكيم وقوي وشجاع وكريم.. وهذا الجانب لا دخل للناس في وجوده في شخصية الإمام لأنه جانب ذاتي وحقيقي. إن هذا هو ما يجعل من الإمامة في هذا الجانب مقامًا وجوديًا يعكس صفات حقيقية يتوفر عليها الإمام في شخصه. غير أن جانب القيادة يختلف أمره لأنه يتوقف على إرادة الناس واختيارهم، فهو جانب موضوعي واعتباري. إن النبي، مثلًا، لم يصبح حاكمًا إلا عندما قبله أهل المدينة وارتضوه لهذا المنصب. وهذا يعني أن الزعامة والرئاسة منصب اعتباري يتوقف على اختيار الناس أو قبولهم ورضاهم.

إن الإمام بهذا المعنى وصي على الإسلام ولكنه ليس وصيًا على المسلمين. ومعنى كون الإمام وصيًا على الإسلام، هو معرفته به في خطوطه

---

(1) علي شريعتي، **الأمة والإمامة**، م.س، ص42.

التفصيلية كلها والتزامه الكامل بأحكامه وقيمة جميعًا بأعلى درجة ممكنة بحيث يكون وحده الناطق باسم هذا الدين.. فأي شخص يحاول التحدث باسم الإسلام وهو لا يملك معرفة الدين في أحكامه التشريعية وقيمه الإنسانية ورؤيته الوجودية لن يكون إلا متقوِّلًا على الإسلام، ومحرفًا لمفاهيمه ومبادئه. إن هذه المسألة تبدو واضحة، فنحن نلاحظ كيف أن الأنظمة والمؤسسات والإيديولوجيات التي تحترم نفسها تتخذ دائمًا ناطقًا باسمها، والأحرى أن يفعل ذلك الإسلام وهو الدين الخاتم الذي يريد إنقاذ الإنسانية كلها من ضلالها. إنه من غير المعقول أن يترك النبي ﷺ الإسلام ريشة في مهب الأهواء تتلاعب به كيف تشاء لينطلق الجهلة والمنحرفون من أجل أن ينصبوا أنفسهم ناطقين باسم هذا الدين.

وهذا كله يعني أن الإمام هو الذي حدده الوحي الإلهي مرجعًا للمسلمين بعد وفاة النبي ﷺ في شؤونهم الدينية والدنيوية كلها، لأن الإسلام ليس فيه فصل بين الدين والسياسة. إن النص الصادر عن النبي يكشف عن الإمام الحقيقي ويحدد من هو. وهو يفعل ذلك من أجل أن يرشد الناس إلى الالتزام بخطه لأنه وحده المؤهل لتحديد الموقف الإسلامي على نحو صحيح. والإمام هو الذي ينبغي للمسلمين، من الناحية الشرعية، أن يبايعوه بالقيادة السياسية من خلال الشورى المنطلقة على أساس وصايا النبي.

غير أن الإسلاميين لم يتمكنوا في معظمهم من التمييز بين هذين الجانبين؛ القدوة والقيادة، في مفهوم الإمامة. وهم لذلك سيُغيّبون مفهومًا مركزيًا في الإسلام هو مفهوم الشورى ليكون الخاسر الأكبر في ذلك كله الإنسان المسلم الذي ستفرض عليه أنظمة تيوقراطية وشمولية تنتهك حقوقه ولا تحترم فيه حريته وكرامته. لقد خلط هؤلاء بين مسألة الإمامة بوصفها مسألة ذاتية وجودية ومسألة الحكم بوصفه جانبًا موضوعيًا اعتباريًا، ولم يستطيعوا التمييز بين الإمامة باعتبارها مقامًا وجوديًا يكشف عنه النص، وقضية الحكم الخاضعة للشورى.

صحيح أن الإسلام لم يتوقف لحظة عن تقديم مساعدته للإنسان المسلم

من أجل أن تكون خياراته صحيحة، غير أنه كان دائمًا يريد أن ينطلق ذلك على أساس قناعاته الفكرية والإيمانية، إذ لا مكان لأساليب الضغط والإكراه في الإسلام.

وعندما نجد في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1] فإنه بذلك يريد أن يجعل من الشورى الأساس الذي تنطلق في إطاره عملية الاختيار عندما يتعلق الأمر بالشأن العام كله وليس فقط عندما يتعلق الأمر بمسألة الحكم، لأن كلمة «أمرهم» المركبة من نكرة مضاف ومضاف إليه تعطي معنى العموم. لقد أعطى الإسلام الشورى بوصفها قيمة إنسانية المكانة التي تستحقها، بل إنه رفعها إلى مستوى العمل العبادي عندما جعل منها مصداقًا من مصاديق الاستجابة لله ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾[2].

مستقبل الإسلام

هذه المقدمة النظرية يمكن أن تعيننا على فهم الموقف الذي سيتخذه النبي ﷺ من مستقبل الدعوة والدولة معًا. لقد كان النبي إمامًا لكل المسلمين، كان في الوقت نفسه قائدًا لهم وقدوة. وهذا يعني أن خليفة النبي يجب أن يخلفه في هذين الموقعين، ليكون في مستوى تلك الخلافة. والسؤال المطروح: هل كانت الأمة قادرة على تحديد ذلك الشخص الذي يمكن أن يكون إمامًا لها بعد وفاة النبي، أم أنها تحتاج إلى مساعدة الوحي من أجل ذلك؟ لقد كان أمام النبي ثلاثة خيارات، وكان عليه ـ بعد تدخل الوحي ـ أن يختار ما يخدم مستقبل الإسلام ومصلحة المسلمين.

الخيار الأول: أن يترك النبي ﷺ أمر خلافته للناس دون أن يتدخل. ومثل هذا الموقف لن يكون إلا موقفًا لا مسؤولًا لا يمكن أن يصدر عن النبي. فعلاوة على أن المسلمين كانوا خليطًا من المؤمنين والمنافقين والطلقاء

(1) سورة الشورى، الآية: 38.

(2) سورة الشورى، الآية: الآية 38.

والأعراب، فإن النبي لم يترك مؤسسات سياسية واضحة يمكن من خلالها حل مشكلة الخلافة بشكل سليم وسلمي. لقد كان الإسلام يتضمن منذ البداية اتجاهًا تغييرًا ثوريًا يستهدف بناء أمة تفكر بطريقة إسلامية، وتتحرك في حياتها على أساس أحكام الدين وقيمه. والخطأ الكبير أن يترك القائد المؤسس أمته ضائعة يمكن أن تتلاعب بها بعده الأهواء والعصبيات.

كان المسلمون منقسمين فعلًا في حياة النبي إلى مهاجرين وأنصار، ومؤمنين ومنافقين، وقرشيين وعرب.. وكانت تظهر بين الحين والآخر، هنا أو هناك، بعض الاشتباكات التي كان النبي يتدخل عادة لإخمادها. وكان من الممكن أن تظهر تلك الانقسامات بعد النبي على نحو يهدد مستقبل الإسلام ويرمي به في المجهول.

وإذا اعتبرنا أن خليفة النبي مسؤول عن تبليغ الإسلام بكل تفاصيله، تمامًا كما هو مسؤول عن إدارة شؤون المسلمين وقيادتهم نحو أهدافهم، فإن ذلك يعني أن سكوت النبي عن مسألة خلافته يعني فتح الباب أمام كل المدّعين الذين يملكون القوة من أجل الاستيلاء على السلطة والتحدث باسم الإسلام.

والخيار الثاني: أن يختار النبي ﷺ في حياته شخصًا، ولا يكتفي بذلك بل يفرضه حاكمًا على المسلمين من بعده بوسائل القوة المادية. وهذا ما يحتاج إلى الإجراءات والوسائل التي لابد للنبي من تهيئتها من أجل أن يكون قراره نافذًا. فأي تنصيب إذا لم يكن مستندًا إلى قوة حقيقية على الأرض لا يمكن أن ينجح، لأن أية جهة داخل المجتمع يمكنها الاستيلاء على السلطة في غياب أية جهة أخرى تملك قوة الردع والتصدي.

والحقيقة أن النبي لم يحاول أن يفرض أحدًا خليفة له في قيادة المسلمين بوسائل القوة. ولو أراد النبي ﷺ أن يفعل ذلك لما أمكن لأحد أن يخرج عنه؛ لأن النبي في هذه الحالة سيتخذ كل الإجراءات التي تضمن تنفيذ قراره بالقوة المادية بعد وفاته. وإذا كان النبي لم يفرض أحدًا في حياته خليفة له بأساليب القوة، فلأن ذلك يناقض قيمة أساسية في الإسلام هي قيمة الشورى. فكما كان وصول النبي إلى السلطة والحكم باختيار أهل المدينة ورضاهم، فإنه لم يقبل

قط أن يكون وصول خليفته إلى السلطة فوق رغبة المسلمين ودون اختيار منهم حتى لو كان ذلك من خلال طليعتهم من المهاجرين والأنصار[1].

ولا يبقى بعد ذلك سوى الخيار الثالث: وهو أن يتخذ النبي ﷺ موقفًا إيجابيًا من مستقبل الدولة والدعوة دون أن يؤدي ذلك إلى فرض أحد على المسلمين بالقوة المادية. لقد كان النبي طوال حياته بعيدًا عن أية ممارسات إكراهية، وكان دائمًا يريد للناس أن يكونوا أحرارًا ومسؤولين. وكان في ذلك كله يتمثل إرشادات القرآن الذي كان دائمًا يؤكد أن مهمة الرسول هي تبليغ الرسالة وليس ممارسة الإكراه والسيطرة.

ومسألة خلافة النبي لم تخرج عن هذا التحديد. إننا نجد أن التواريخ تشير إلى أن النبي عندما كان عائدًا من مكة بعد حجة الوداع سنة 10 للهجرة، نزل الوحي يأمر الرسول بتبليغ ما أنزل إليه إلى الناس: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾[2].

من الواضح أن الآية الكريمة تأمر النبي ﷺ بتبليغ أمر خطير إلى الناس والاكتفاء بذلك. لقد بلّغ الرسول رسالة الله إلى الناس، ولم يبق إلا شيء واحد إذا لم يبلغه، فكأنه لم يبلغ الرسالة. وهو ما يوحي أن هذا الأمر في غاية الأهمية ومن دونه تضيع جهود الرسول كلها. كما أنه من الواضح أن تبليغ هذا

(1) الخوارزمي، **المناقب**، ج49، ص11 يقول: «خرج علي عليه السلام فأتى منزله، وجاء الناس يهرعون إلى علي، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون أمير المؤمنين علي حتى دخلوا عليه داره، فقالوا له، نبايعك فمد يدك، فلا بد من أمير. فقال علي ليس ذلك إليكم، إنما ذلك لأهل بدر، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة. فلم يبق من أهل بدر إلا أتى عليا..». وفي موضع آخر يقول الإمام: «إنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إمامًا كان ذلك لله رضا..». ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج14، ص35. وفي رأينا لو كان لأهل بدر رأي بعد وفاة النبي ﷺ لما كان اختيارهم حينذاك مختلفًا عن اختيارهم بعد قتل عثمان. ولا شك لدينا أن جماعة السقيفة كانوا يعرفون نتيجة الشورى التي يحضرها أهل بدر من المهاجرين والأنصار وهم لذلك عجلوا بمبايعة أبي بكر من أجل فرض أمر واقع.

(2) المائدة: الآية 68.

الأمر إلى الناس كان يمكن أن يشكل خطرًا على حياة النبي نفسه، ولأجل ذلك جاء التطمين الإلهي لرسوله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

وتشير السير والتواريخ المختلفة إلى أن النبي سارع بعد نزول هذه الآية إلى جمع المسلمين في مكان يسمى غدير خم يوم 17 أو 18 ذوالحجة 10هـ/ 13 مارس 632م، ثم خطب فيهم وقال بعد أن حمد الله ووعظ الناس: «قد دعيت ويوشك أن أجيب وقد حان مني خفوق من بين أظهركم وإني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض». ثم نادى بأعلى صوته: «ألست أولى بكم منكم بأنفسكم؟». قالوا: اللهم بلى. فقال لهم على النسق من غير فصل وقد أخذ بضبعي أمير المؤمنين [علي] عليه السلام فرفعهما حتى بان بياض إبطيهما: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله.. ثم نزل..»[1].

إنه يتحدث عن الولاية، وهو يقرن بين الولاء لشخصه والولاء لعلي وهو ما يعني أن كل مسلم مطالب، بعد وفاة النبي، بالولاء لعلي في جميع شؤونه تمامًا كما كان مواليًا للنبي. بل إن الآية المذكورة تقول في ذيلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهو ما يعني أن رفض ولاية علي هو رفض لولاية النبي ﷺ نفسه وخروج على الإسلام.

والولاية مفهوم مجمل، يحتمل أكثر من معنى، وهو لذلك يشمل الولاء الديني والولاء السياسي. إنه ليس مجرد حب ومودة كما ذهب إليه بعضهم لأنه من غير المعقول أن يجمع النبي عشرات الآلاف من الناس تحت أشعة الشمس المحرقة ليقول لهم: أحبوا عليًا.. كما أنه لا توجد أية قرينة تصرف إجمال هذا اللفظ إلى هذا المعنى بعينه. بل إن الأمر لو كان يتعلق بحب علي فحسب لما

(1) **أنساب الأشراف**، ج1، ص108. **صحيح الترمذي**، ج5، ص 297، ح3797. **وسنن ابن ماجة ج1**، ص 245، ح 2121. **ومسند أحمد بن حنبل ج1**، ص 88 وج 2، ص 282. **والحاكم، المستدرك على الصحيحين**، ج 3، ص 116 ـ 371. المفيد، الإرشاد، ص91.

قرن النبي ولاية علي بولايته هو، ولما كان عدم تبليغه لواجب الولاية عدم تبليغ الرسالة كلها، ولما كان ذلك سببًا في خوف النبي من ردة فعل الناس حتى طمأنه الوحي ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

لقد قرن النبي ﷺ ولايته بولاية علي، وهذا يعني أن ولاية الإمام واجب إسلامي تمامًا كما هي ولاية النبي، بلغها الرسول إلى المسلمين كما بلغ واجب الصلاة والصوم.. ليصبح المسلم مطالبًا من الناحية الدينية بالولاء لعلي في الدين والسياسة، وليكون هذا الإمام مرجعًا لكل المسلمين في جميع شؤونهم والرجوع إلى غيره بعد النبي ﷺ لن يكون مقبولًا عند الله كما أكدت الآية الكريمة. إن النبي هنا يكشف عن مؤهلات علي وقدراته التي تجعل منه الإمام الذي يملك كل مواصفات الإمامة[1]. إنه يحدد الإمام الذي يجب على كل مسلم أن ينصره ويواليه ويرجع إليه في شؤونه الدينية والدنيوية.

وإذا كانت الولاية واجبًا دينيًا، فإنه لا يمكن فرضها على الناس بأساليب القوة تمامًا كما هي فروض الدين. لقد طلب الوحي من النبي أن يبلّغ إلى المسلمين وجوب موالاة علي، أما مسألة استجابتهم لذلك فتبقى مسؤوليتهم التي ينبغي لهم أن يتحملوها. وهذا يعني أن عليًا كان مرشح النبي لخلافته السياسية دون غيره على أساس أوامر الله ـ سبحانه ـ كما حددتها هذه الآية، لأن مهمة النبي تتوقف عند مسألة التبليغ، وهو ليس وكيلًا على الناس، ولا هو حاكم متسلط يريد أن يخضع الجميع لإرادته[2].

لم يكن هناك أي إلزام سياسي في ولاية علي، لكن في المقابل كان هناك إلزام ديني يخاطب في الناس قناعاتهم الدينية.. وهذا يعني أن مسألة الولاية كانت تتحرك على مستوى الوجوب من الناحية الدينية، ولكنها من

---

(1) سورة المائدة، الآية: الآية 68.

(2) هذا الأمر سيتضح أكثر مع الإمام علي عندما طلب منه أصحابه أن يستخلف الحسن بعد أن ضربه ابن ملجم فقال: «لا آمركم ولا أنهاكم وأنتم أبصر..» انظر مثلًا: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج3، ص291. وهذا الموقف الذي أبداه الإمام يمثل جوهر وصية القرآن للنبي: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: 22، 23]. وكذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الشورى: 6]..

الناحية السياسية كانت تتحرك على مستوى الترشيح. وهذا كله يعكس حرص الإسلام على احتفاظ الناس بحرياتهم السياسية، وكل ما أراده هو تنوير العقول من أجل تحديد ما هو صائب وما هو خاطئ، ليترك بعد ذلك للإنسان حريته في أن يختار ما يشاء دون إكراه.. لقد كان علي إمامًا وقدوة ولم يفعل الرسول سوى الكشف عن هذه الحقيقة، وهذا يعني أن مسألة الإمامة لا دخل للناس فيها تمامًا كما هي الموهبة أو العبقرية.

وهذه الإمامة هي أحد مصاديق الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1]. لكن مسألة خلافة الإمام علي للنبي في السلطة والحكم تبقى معلقة على مدى استجابة الناس للأمر الإلهي بعد أن رفض النبي ﷺ فرضه عليهم بالقوة المادية، واكتفى بالتأكيد على أن موالاته ونصرته واجب ديني وأن معاداته وخذلانه نكوص وردّة.. إن الآية هنا لا تتحدث عن أمر تكويني ولكنها تتحدث عن أمر تشريعي من الممكن عدم الاستجابة له. وهذا ما يعني انتفاء أي جبر أو إكراه في اختيار الناس لحكامهم من زاوية إسلامية لأن الإنسان في الإسلام يبقى حرًا تمامًا في أن يستجيب لأمر الله أو أن لا يفعل، دون أن يعفيه ذلك من تحمل نتائج اختياراته أمام الله، إذ لا حرية دون مسؤولية.

أنْ يكون الإنسان عالمًا أو مفكرًا أو حكيمًا أو إمامًا أو نبيًا أو رسولًا.. فهذا لا يحتاج إلى انتخاب أو اختيار لأنه واقع. أما أن يصبح الإنسان حاكمًا فهذا ما يحتاج إلى انتخاب الناس واختيارهم، أو قبولهم وإقرارهم عندما يَفرض هذا الشخص نفسه حاكمًا بوسائل القوة والغلبة. وإذا كان الوحي قد اختار عليًا لخلافة النبي ﷺ في قيادة المسلمين؛ فلأنه يختلف عن الجميع، ويتفوق على الجميع. لقد تربى في حجر النبي منذ طفولته فعجنت روحه بالإسلام، وهو الوحيد بين أصحاب النبي الذي لا تربطه بالجاهلية رابطة.

كان علي سيد الكلام حين يخاطب الناس، وبطل الميدان حين يحمل السيف، ورجل السياسة حين يتخذ القرارات، والقاضي العادل حين يحكم بين

(1) سورة الأحزاب، الآية: 36.

الناس، ولكنه كان فوق ذلك كله رجل العلم والتقوى والأخلاق.. لا أحد يجادل في ذلك. كان رجلًا مدهشًا واستثنائيًا في كل شيء. وهو لأجل ذلك كان إمامًا، وكان لابد للنبي أن لا يختار أحدًا غيره خليفةً له.

النبي يموت

بعد أن أنهى النبي ﷺ شعائر الحج في مكة، عاد إلى المدينة وبدأ يفكر في مواجهة الأعداء في الشمال. كان الرومان يخشون المسلمين بشدة خصوصًا بعد أن اختاروا الفرار في غزوة تبوك. كانوا يتربصون بالمسلمين لعلهم ينجحون في إنهائهم؛ لأن دينهم الجديد يهدد مسيحيتهم بشكل مباشر.

جهز النبي جيشًا كبيرًا وعهد بقيادته إلى أسامة بن زيد الذي كان شابًا دون العشرين، وأوصاه أن يتحرك نحو مؤتة حيث استشهد أبوه، وأن يغير عليهم فجرًا فيباغتهم.. عسكر الجيش في الجرف قرب المدينة من أجل استكمال تجهيزه.. كان النبي يؤكد على تعبئة هذا الجيش حتى يمكنه أن يحقق هدفه. كان هذا الجيش يضم وجوه الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد[1].. لكنه لم يكن يضم عليًا. كان هذا الأمر ثقيلًا عليهم. كانوا يعترضون بصراحة على النبي ويقولون: «أمّر غلامًا حدثًا على جلّة المهاجرين والأنصار». وهو ما أغضب النبي بشدة. من الواضح أن قرار النبي كانت له دلالاته؛ لأن هؤلاء الذين كانوا يسمون أنفسهم جلة المهاجرين والأنصار، لم يكن النبي يراهم مؤهلين حتى لقيادة الجيش وأمّر عليهم شابًا يافعًا. إنه يلمح إلى أن خليفته يمكن أن يكون شابًا أيضًا.

لم ينم النبي ﷺ تلك الليلة، كان قلقًا حيال مستقبل الأمة، وكان يرى الموت يقترب. استدعى مولاه أبا مويهبة وانطلق معه إلى مقبرة البقيع، كان يقول له إنه أُمر بالاستغفار لأهلها.. لكن الصداع كان يضغط عليه، فعاد إلى بيته، وفوق ذلك كان يتألم بسبب عدم تحرك الجيش. كان يعلم أن بعض الصحابة لا يريدون الخروج، وهم يترقبون ما سيحدث. كان النبي يريد إفراغ

(1) **أنساب الأشراف**، ج2، ص115. **المغازي**، ج3، ح 1118. **شرح نهج البلاغة**، ج6، ص 52.

الساحة منهم من أجل تسهيل انتقال السلطة بشكل صحيح، لكنهم كانوا يعرفون ذلك وكانوا يريدون شيئًا آخر. خرج إلى المسجد، ثم بدأ يخطب في الناس: «.. أيها الناس، أنفذوا جيش أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته. لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليق لها»[1].

كانت الحمى تُشعل جسد النبي ﷺ، بدا متعبًا بشدة، ولكن ذلك لم يمنعه من بث مواعظه ودعوة الناس إلى محاسبته والاقتصاص منه إذا صدرت عنه أية إساءة تجاه أحدهم، وهو الذي لم يؤذ أحدًا في حياته دون وجه حق. كان الموت يقترب، ترك المسجد وعاد إلى بيته.. أمر عائشة أن تقسم ما ادخره من مال؛ مبلغ لا يزيد على سبعة دنانير.. ثم أغمي عليه. أفاق وعلم أن عائشة لم تنفذ أمره. تأثر بشدة وأكد مرة أخرى على ضرورة إخراج كل ما لديه من البيت وتوزيعه على الفقراء.

ولم يلبث أن جاء بلال يدعو النبي إلى الصلاة. لم يكن النبي يقوَى على الحركة فقال: مروا من يصلي بالناس، لكنه عندما سمع كلًا من عائشة وحفصة تنوه بأبيهما علم أن الرجلين لا يزالان يصران على عصيان أوامره، وأنهما لم يخرجا في جيش أسامة. تحامل النبي على نفسه واعتمد على علي والفضل بن العباس من أجل منع استغلال هذا الموقف. وعندما وصل إلى المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب فأومأ إليه ليتأخر، ثم أخذ النبي مكانه في إمامة الصلاة، فكبر ثم استأنف الصلاة.

وعندما انصرف إلى منزله استدعى أبا بكر وعمر وسألهما: ألم آمر أن تنفذا جيش أسامة؟ قالا: بلى يا رسول الله. قال: فلم تأخرتما عن أمري. قال الأول إنه يريد أن يجدد العهد بالنبي وقال الثاني إنه لم يرد أن يسأل عنه الركب[2]. عندئذ قال النبي: «جهزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه»[3].

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج2، ص317.

(2) **الإرشاد**، ج1، ص183. **إعلام الورى**، ج1، ص265.

(3) **الملل والنحل**، ج1، ص23. **شرح نهج البلاغة**، ج6، ص52. ولَعْنُ النبي المتخلفين عن جيش أسامة يحيل على النيات السيئة التي كانت تخفيها هذه الفئة، إذ لو كان الأمر يتعلق بالاطمئنان إلى صحة النبي ﷺ لما صب لعناته عليهم بهذه الطريقة.

كان النبي مرهقًا ومتعبًا وكان يغمى عليه مرة بعد أخرى، وعندما أفاق أمر بإحضار دواة وكتف من أجل أن يكتب للمسلمين شيئًا ما إن تمسكوا به لن يضلوا أبدًا. كان عمر، الذي رفض الاستجابة لأمر النبي بالخروج في الجيش، حاضرًا. وعندما سمع أمر النبي منع من الاستجابة له وقال: «إنه يهجر»[1]. لقد اتهم النبي بالهذيان من أجل أن يوقف تنفيذ أمره. من المستبعد أن يكون ذلك أمرًا عفويًا والأقرب أن يكون ذلك تواصلًا مع خطوة رفض الالتحاق بجيش أسامة.

أمر النبي بذلك ثم أغمي عليه، وعندما أفاق سأله بعضهم: هل نأتيك بالكتف والدواة. فقال: أبَعْد الذي قلتم؟ لقد سمع ما قاله عمر وفهم أن أية وصية يمكن أن يكتبها سيقال إن النبي كتبها وهو خارج وعيه، سيقال إنه كتبها وهو في حالة هذيان. وهو لذلك أعرض عن طلبه وأوصى بأهل بيته خيرًا. لقد عرف أن الأمر خارج لا محالة من أيديهم وأنه لم يبق له إلا أن يوصي بهم. كان النبي يريد أن يوصي لعلي بالخلافة كما اعترف عمر لاحقًا لكنه وجد نفسه مضطرًا لأن يوصي بأهل بيته.

استدعى عليًا وأوصاه أن يتولى أمره ويغسله ويدفنه ويصلي عليه[2]. أما فاطمة الموجوعة على أبيها، فكانت تبكيه بحرقة وتردد بيت شعر لأبي طالب، طلب النبي أن تقرأ بدلًا منه ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن

(1) **مسند احمد بن حنبل**، ج5، ح 13732، ص115. **الطبقات الكبرى**، ج2، ص243. **مسند أبي يعلى**، ج2،ح1864 و1866، ص347. **شرح نهج البلاغة**، ج12، ص78. **الإرشاد**، ج1، ص184..

(2) صلى علي على النبي ﷺ ثم أدخل عليه الرجال ثم النساء ثم الأطفال يصلون عليه صفًا صفًا بشكل متفرق. وكان الإمام علي يقول للناس: «هو إمامكم حيًا وميتًا»، مبررًا عدم جواز تقدم إمام للصلاة بالناس عليه ﷺ. لكن الإمام مع ذلك كان قائما بجانب النبي ﷺ ويقول: «سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته! اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله، حتى أعز الله دينه وتمت كلمته! اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل الله إليه، وثبتنا بعده، واجمع بيننا وبينه! فيقول الناس: آمين آمين! حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان». انظر **الطبقات الكبرى**، ج2، 291. **والبداية والنهاية**، ج5، ص265. **وكنز العمال**، ج7، ص228، ح18741.

مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[1].. كان ذلك موحيًا لأن النبي كان يعرف أن انقلابًا سوف يحدث بعد وفاته لا محالة. كانت تلك نبوءة القرآن الذي لا يمكن إلا أن يصدق.

صباح يوم الاثنين 28صفر11هـ/ 22ماي ـ أيار 632م، اليوم الذي سيكون آخر يوم يطل فيه النبي على العالم، بدا الرسول وكأنه يتعافى من مرضه، خرج إلى المسجد وبدأ يتحدث هذه المرة عن الفتنة: «أيها الناس سُعّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله لا تمسكون عليَّ شيئًا، إني لم أحل لكم إلا ما أحل لكم القرآن ولم أحرم عليكم إلا ما حرّم عليكم القرآن»[2]. كان يتوقع أن الفتنة ستحدث مباشرة بعد وفاته، رغم الوصايا والتحذيرات، لتضيع الحقيقة بين أهواء الطامحين. إن هذا يعني أن الفتنة لم تبدأ في خلافة عثمان كما يتوهم الكثيرون، بل إنها بدأت قبل ذلك بكثير. لقد بدأت بعد وفاة النبي مباشرة حين تم اختطاف السلطة.

رجع الجيش من الجرف ودخل المدينة، حتى قائده عاد ودخل بيت النبي ﷺ. جلس إلى جانب الرسول الذي فعل كل ما يمكن فعله من أجل الرسالة. كان النبي قد طلب من علي، الذي ظل ملازمًا له في أيامه الأخيرة، أن يضع رأسه في حجره[3]، كان يناجيه. وعندما شعر بوجود أسامة إلى جانبه،

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 144.

(2) **تاريخ الطبري**، ج 3، ص 188. وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص 318.

(3) **الطبقات الكبرى**، ج2، ص263. ويورد ابن هشام وغيره رواية عن عائشة تقول فيها إن روح النبي فاضت في حجرها، لكن هذه الرواية مختلقة تمامًا مثل الروايات التي تقول إن النبي أمر أبا بكر أن يصلي بالناس. انظر مثلًا: **مسند احمد بن حنبل**، ج10، ص190، ح26627، يروي عن أم سلمة قولها: «والذي أحلف به، أن كان علي لأقرب الناس عهدًا برسول الله ﷺ، قالت: عدنا رسول الله ﷺ غداة بعد غداة يقول: «جاء علي؟» مرارًا. قالت: وأظنه كان بعثه في حاجة، قالت فجاء بعد فظننت أن إليه حاجة، فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب، فكنت من أدناهم إلى الباب، فأكب عليه علي فجعل يساره ويناجيه، ثم قبض رسول الله ﷺ من يومه ذاك، فكان أقرب الناس به عهدًا». وانظر أيضًا **الطبقات الكبرى**، ج2، ص263. **وفتح الباري**، ج8، ص139. **والمستدرك على الصحيحين**، ج3، ح4671. **والمعجم الكبير**، ج23، ص375.

رفع يديه إلى السماء وحدّق لحظة ثم وضع يده على رأسه ثم أنزلها. وخرج أسامة مسرعًا. أما فاطمة والنساء فكن يراقبن النبي.. وإذا بشفتيه تتحركان : بل الرّفيق الأعلى.

اختطاف السلطة

توفي النبي ﷺ، وبوفاته انتهت مهمة جبرائيل في تبليغ الوحي، وفقد العالم كله محمدًا الإنسان والنبي والرسول والإمام الذي أراد الله لرسالته أن تكون الرسالة الخاتمة.. لكن عمر الذي كان قريبًا من بيته رفض الإقرار بذلك مدعيًا أن النبي ذهب إلى ربه وسيعود. تقول الرواية: استأذن عمر ودخل مع المغيرة بن شعبة على النبي وهو مسجى، قال عمر: «ما أشد غشي رسول الله! فقال المغيرة: مات والله رسول الله. فقال عمر: كذبت، ما مات رسول الله، ولكنك رجل تحوسك فتنة، ولن يموت رسول الله حتى يفني المنافقين»[1]، ثم خرج إلى الناس يهددهم ويقول: «إن رسول الله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى عن قومه، غاب أربعين ليلة. والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجل من يزعمون أنه مات»[2]. ويضيف «من قال إنه مات، علوت رأسه بسيفي، وإنما ارتفع إلى السماء». حاول البعض أن يبرر لعمر هذا الموقف فقال إنه نطق بذلك تحت تأثير الصدمة. ربما أمكن قبول ذلك لولا أن عمر انفرد بهذا الموقف وانطلق يهدد الذين قالوا إن النبي قد مات بالقتل، فالمصدوم لا يهدد بالقتل. لم يكن عمر شخصًا لينًا رقيق العواطف كما يجمع المؤرخون، ولا معنى للصدمة لديه. ولو كان هناك مصدومون لكانت ابنته فاطمة وزوجاته وقرابته من بني هاشم وسائر المؤمنين. لكن الجميع كان يعرف أن النبي قد مات، فقد نعى نفسه قبل موته، كما أكد العباس وفاته بما عهده لدى بني هاشم عندما يموتون.

ثم ما معنى تهديد كل من يقول بموت النبي بالقتل؟ وهل يقتل الرجل

---

(1) أحمد بن حنبل، **مسند أحمد**، ج6، ص219.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج1، ص1818.

لمجرد موقف يراه حتى لو كان خاطئًا؟ كان عمر في الحقيقة يخطط لشيء ما. كان يريد إثارة الشكوك حول موت النبي ﷺ حتى لا يسرع الناس إلى حسم مسألة خلافته، وحتى يعود أبو بكر الذي ذهب إلى السنح عند زوجته بعد أن ظن أن النبي قد تعافى.

كان عمر يهدد بالقتل كل من يقول إن النبي قد مات. وحتى عندما قرأ عليه عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم في المسجد: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾، رفض ذلك واستمر في تهديده حتى نقل بعضهم: «ما زال عمر يتكلم حتى ازبدّ شدقاه»[1].

ولم يهدأ إلا عندما جاء أبو بكر وقرأ الآية التي قرأها عليه عمرو بن قيس. كان عمر في حالة استنفار قصوى من أجل منع انتخاب خليفة للنبي إلى حين عودة أبي بكر. وعندما عاد أبو بكر، التفت إلى الناس وقال: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». بدل أن يؤبن الفقيد الكبير انطلق يتحدث عن عبادة محمد. ولا ندري: هل كان الناس يعبدون محمدًا حتى يخاطبهم بهذه الطريقة؟ وهل كان في كلام عمر شيء يدل على هذا المعنى؟ أليس العكس هو الذي حدث عندما قرر الكثيرون الردة والعودة عن الإسلام؟. من الواضح أنه أراد إنهاء ادعاء عمر بعد أن أدى ذلك الادعاء مهمته بعودته هو. قال أبو بكر ذلك وانطلق مع عمر وأبي عبيدة ابن الجراح نحو سقيفة بني ساعدة.

كان أبو بكر وعمر والبقية قد دخلوا الإسلام مبكرًا، لكنهما لم يشاركا فعليًا في حروب النبي ربما حرصًا على حياتهما. فقد أدرك كثير من العرب أن النبي سيكون له شأن عظيم. لاشك أنهما فهما ذلك، وكانت فرصة لأن ينتقلا من حضيض انتمائهما العشائري إلى شرف الانتماء إلى الإسلام، عسى أن يكون ذلك يومًا سلّمًا للمجد. إن بقاءهما إلى جانب أبي جهل وأبي سفيان

(1) **سنن الدارمي**، ج1، ص42. **الطبقات الكبرى**، ج2، ص266. **أنساب الأشراف**، ج2، ص243.

والملأ القرشي لن ينفعهما في شيء. في هذه الحالة حتى لو انتصرت قريش على النبي، فإن وضعهما لن يتغير.. أما إذا انضما إلى النبي وانتصر الإسلام فإن كل شيء يمكن أن يحدث.

كان عمر وأبو بكر يعرفان أن الطريق الصحيح لاختيار خليفة النبي هو اجتماع من كان موجودًا من أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار في المدينة بشكل هادئ بعد مواراة النبي ﷺ في الثرى. غير أن ذلك كان مرفوضًا بالنسبة إليهما، ستنتهي عندها أحلامهما في السلطة، وسوف يرمى بهما في دفاتر النسيان. وهما لأجل ذلك أسرعا إلى سقيفة بني ساعدة حيث كان يجلس سعد ابن عبادة الذي كان مريضًا مع عدد من الأنصار. ربما كان ذلك المجلس يبحث في خلافة النبي، لكن مجيء الثالوث وطرحهم مسألة الخلافة هو ما استفزهم ودفعهم إلى المطالبة بحصة في السلطة.

وبعد جدل عنيف تبادل فيه الطرفان الكلمات القاسية، بايع عمر أبا بكر ثم بايعه بعد ذلك قسم من الأنصار. كان عمر واضحًا في إقراره أن بيعة أبي بكر تمت دون مشورة من المسلمين عندما قال لاحقًا: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة غير أن الله وقى شرها فمن بايع رجلًا من غير مشورة المسلمين فإنه لا بيعة له»[1]. لقد بايع عمر صديقه بقرار منفرد، وهو الآن يقول إن من عاد إلى ذلك، فإنه لا بيعة له!. إن هذا يعني أن بيعة أبي بكر لا شرعية لها بالنسبة إلى عمر لأنها تمت خارج مشورة المسلمين.

بدأ أبو بكر بالاحتجاج على الأنصار فقال: «.. إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش وهم أوسط دارًا ونسبًا..». وبعد أن أنهى كلامه تعالى الصياح، فعاد وقال: «منا الأمراء ومنكم الوزراء». وهنا فاجأ عمر الجميع وقال لأبي بكر: «أبسط يدك أبايعك..» فبسط يده وبايعه[2].

كانت العصبية القبلية هي الحاضر الأبرز، أما الغائب الأكبر فهو قيم

(1) **تاريخ الطبري**، ج 3، ص 205. **والسيرة النبوية**، ج2، ص 372.

(2) **تاريخ الطبري**، ج3، ص205.

الإسلام ووصايا النبي التي كانت تتناقض بشدة وطموحات هذا الثالوث. لقد كانت أحداث السقيفة مرتبطة تمامًا بخطوات سابقة. كانت الخطوة الأولى رفض الخضوع لأوامر النبي بالالتحاق بجيش أسامة، وكانت الخطوة الثانية منع النبي من كتابة وصيته الأخيرة، أما الخطوة الثالثة فكانت رفض الإقرار بموت النبي والادعاء بأنه ذهب إلى ربه وسيعود، من أجل ضمان عودة أبي بكر قبل أن تتم مبايعة شخص آخر. ثم جاءت أحداث السقيفة تتويجًا لذلك كله.

إن أحداث السقيفة لا يمكن فصلها أبدًا عما وقع قبل وفاة النبي وفي أثنائها عندما طلب النبي كتفًا ودواة، واعترض عمر متهمًا النبي بالهذيان. والربط بين هذه الخطوات المتلاحقة لا يعني شيئًا غير وجود مخطط مسبق للاستيلاء على السلطة.

لقد قال عمر عندما منع من إعطاء النبي كتفًا ودواة: «حسبنا كتاب الله». لكن كتاب الله كان غائبًا تمامًا في جداله مع الأنصار، وكانت نقطة الارتكاز في ذلك الجدل انتماؤه هو وأبو بكر إلى قريش. كانت بيعة أبي بكر فلتة كما وصفها عمر، كانت حدثًا تم دون تعقل أو رويّة أو مسؤولية تجاه مستقبل دين وأمة.

ومن هنا تخوف الأنصار من تسلط قريش عليهم بعد وفاة النبي الذي كان يكثر من الوصية بهم. كانوا يخافون أحقاد رجالها وظلمهم.. ولعل العنف الذي صوره عمر نفسه بعد أن بايع أبا بكر يلخص حقيقة هذا الهاجس.. يقول عمر: «ثم نزونا [وثبنا ووطأنا] على سعد [بن عبادة زعيم الخزرج] حتى قال قائلهم قتلتم سعدًا..»[1].

لقد غابت حينها لغة الحوار الهادئ وحلت محلها لغة العنف المتشنج. يقول عمر: «فقام رجل منهم وقال: نحن الأنصار وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر قريش رهط نبينا وقد دفت [هجمت] إلينا من قومكم دافة. قال [عمر]

(1) **الطبري**، ج 3، ص 206.

فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر، وقد كنت قد زورت في نفسي مقالة أقدمها بين يدي أبي بكر.. »[1].

وقف عمر يرد على الحباب بن المنذر من الأنصار الذي طرح فكرة أميرين واحد من المهاجرين والآخر من الأنصار في لهجة فيها كثير من التهديد: «هيهات هيهات، لا يجتمع سيفان في غمد واحد، إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم. ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم وأولو الأمر منهم. لنا بذلك على من خالفنا الحجة الظاهرة والسلطان المبين. من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل، أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة»[2]. إنه منطق القبيلة الذي يحضر بقوة دون سواه، وهو المنطق الذي علق عليه علي لاحقًا: «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[3].

وهنا يرد الحباب بن المنذر بلهجة عنيفة: «يا معشر الأنصار: املكوا عليكم أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبون بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبَوا عليكم ما سألتم فاجلوهم عن بلادكم وتولوا هذا الأمر عليهم، فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم، فإنه دان لهذا من لم يكن يدين له بأسيافنا. أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة. والله لا يرد عليّ أحد ما أقول إلا حطّمت أنفه بالسيف»[4]. وهنا اضطرب عمر وداخله رعب شديد ولاذ بالصمت.

ثم تدخل أبو عبيدة بن الجراح ليقول: «يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآوى فلا تكونوا أول من يبدل ويغير». كان يريد تهدئة الأمور، غير أن التبديل والتغيير لن يأتي من جهة الأنصار الذين سيهمشون ويضطهدون.

ويبدو أن ما قاله أبو عبيدة كان له أثره. لقد أحدث ذلك انشقاقًا في صفوف الأنصار ليكون ذلك سببًا في اندفاع عمر لمبايعة أبي بكر. فقد تناول

---

(1) م ن، ص 206.
(2) م ن، ص 206.
(3) **نهج البلاغة**، ج 1، الخطبة67.
(4) م س، ص 207.

بشير بن سعد الكلمة، وكان من سادة الخزرج، وقال: «يا معشر الأنصار، أما والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين والسابقة في الدين ما أردنا، إن شاء الله، غير رضا ربنا وطاعة نبينا والكرم لأنفسنا. وما ينبغي أن نستطيل بذلك على الناس ولا نبتغي به عوضًا من الدنيا، فإن الله تعالى ولي النعمة والمنة علينا بذلك. ثم إن محمدًا رسول الله ﷺ رجل من قريش، وقومه أحق بميراثه وتولي سلطانه. وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا، فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم»[1].

إنه المنطق القبلي نفسه وإن أخذ اتجاهًا معاكسًا[2]. لم يقل بشير بن سعد إن هذا الأمر يُحل على أساس وصايا النبي أو على أساس الشورى التي يحضرها الجميع.. وهذا كله يعني أن الثقافة الجاهلية لا تزال تحكم العقول، وأن ثقافة الإسلام لم تكن حاضرة لدى أي منهم. لم يكن بشير بن سعد، عندما سارع إلى مبايعة أبي بكر بعد أن بايعه عمر، مقتنعًا بأهليته في تولي السلطة بل كان ينطلق من عُقده تجاه سعد بن عبادة. ولذلك خاطبه الحباب بن المنذر وهو الأعلم بدوافع الرجل: «يا بشير بن سعد: عقك عقاق، ما أخطرك إلى ما صنعت؟ حسدت ابن عمك على الإمارة». ويتضح ذلك أكثر في بقية الرواية: «ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد، وهو من سادات الخزرج، وما دعوا إليه المهاجرين من قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض: لئن وليتموها سعدًا عليكم مرة واحدة لا زالت لهم بذلك عليكم الفضيلة ولا جعلوا لكم نصيبًا فيها أبدًا، فقوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا إليه فبايعوه. فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه وأخذه فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة»[3].

(1) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص 8.

(2) لو صح هذا المنطق القبلي الذي استخدمته جماعة السقيفة ـ وهو غير صحيح من زاوية إسلامية لأن المعيار في الإسلام هو العلم والكفاءة والتقوى والنزاهة وليس القرابة ـ، فإنه لا يمكن أن يكون حجة لمصلحتهما لأن أقرب الناس إلى النبي ليس أبا بكر ولا عمر بكل تأكيد، فالنبي ﷺ هاشمي والأقرب إليه نسبًا لابد أن يكون هاشميًا.

(3) م ن، ج 1، ص9.

إنه التصدع، إذن، في جبهة الأنصار. لم ينس الأوس والخزرج حروبهما الطويلة قبل الإسلام، وطفت إلى السطح فجأة كل أحقاد الماضي، وهنا اغتنم عمر الفرصة وبايع صديقه ليبايع من ثَمّ كلٌ من حضر من الخزرج.

أما سعد بن عبادة الذي ذهب تحت الأقدام، فقد اشتبك مع عمر ثم دخل بيته غاضبًا ومتوعدًا دون أن يبايع. وعندما طُلب منه لاحقًا أن يبايع رفض بشكل قاطع مهددًا بالحرب إذا حاول الجماعة إرغامه على ذلك. فتُرك وشأنه بإشارة من بشير بن سعد.. لكن عمر لن ينسى له ذلك رغم أن الرجل كان مسالمًا. وسوف يبعث إليه من يغتاله عندما سيصبح خليفة كما يورد البلاذري ذلك في نص يقول فيه: «إن سعدًا لم يبايع أبا بكر وخرج إلى الشام فبعث عمر رجلًا، وقال: ادعه إلى البيعة واحتل له، فإن أبى فاستعن الله عليه، فقدم الرجل الشام فوجد سعدًا في حائط [بستان]، بحوارين فدعاه إلى البيعة فقال: «لا أبايع قريشًا أبدًا. قال فإني أقاتلك. قال: وإن قاتلتني. قال: أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟ قال: أما من البيعة فإني خارج، فرماه بسهم فقتله»[1]. وكان هذا أول اغتيال سياسي في الإسلام.

لقد استغل عمر انشغال علي وكثير من الصحابة بتجهيز النبي ليفرض أبا بكر خليفة في غيابهم. لكن ذلك لم يكن حبًا في الرجل أو تقديرًا لكفاءته، بل إن ذلك كان وسيلة عمر الفعالة من أجل تحقيق طموحه في السلطة، لقد كشف علي ذلك عندما خاطبه بعد بيعة أبي بكر عندما طلب منه أن يبايع: «احلب حلبًا لك شطره، والله ما حرصك على إمارته اليوم إلا ليؤثرك غدًا»[2]. لقد كان عمر يحمل في نفسه بعمق طموح السلطة وطموح التميز من أجل أن يصنع لنفسه تاريخًا[3]. وقد استطاع أن يحقق ذلك من خلال أبي بكر، ولكن على حساب الدين وأهله.

---

(1) البلاذري، **انساب الأشراف**، ج1، ص 291. وكذلك ج2، ص272. **الطبقات الكبرى**، ج7، ص391.

(2) م ن، ج2، ص269.

(3) عندما وصل عمر إلى السلطة أوقف العمل بكثير من الأحكام الإسلامية التي تتعلق بمجالات متعددة مثل الصلاة والحج والزواج والطلاق والاقتصاد. فمنع مثلًا الزواج من الكتابيات، =

بايع الكثيرون أبا بكر في السقيفة، غير أن ذلك لم يكن كافيًا، وكان لابد لهذا الثالوث من أخذ البيعة، بطريقة أو بأخرى، من بقية أهل المدينة. ينقل ابن أبي الحديد عن البراء بن عازب قوله: «كنت أتردد إلى بني هاشم، وهم عند النبي ﷺ في الحجرة وأتفقد وجوه قريش، فإني كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر، وإذا قائل يقول القوم في سقيفة بني ساعدة.. وإذا قائل آخر يقول: قد بويع أبو بكر، فلم ألبث وإذا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالأزر الصنعانية لا يمرون بأحد إلا خبطوه [ضربوه] وقدموه فمدوا يده، فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه شاء ذلك أم أبى»[1]. هذه الصورة تعكس الطريقة التي وصل بها أبو بكر إلى السلطة.. وتجعل كل تلك الادعاءات التي يطلقها أصحابها حول شورى السقيفة بلا أساس. لم تكن هناك أية شورى، بل كان هناك فقط مكر وخداع وإكراه من أجل تحقيق طموحات شخصية ضد مصلحة الدين والأمة.

وإذا استطاع عمر وجماعته أن يفرضوا أنفسهم بهذه الأساليب على الكثيرين، فإنهم سيجدون معارضة قوية تضم الهاشميين من قريش والأوس من الأنصار وبقية المؤمنين من المستضعفين كما هي حالة أبي ذر والمقداد وسلمان وعمار والكثيرين غيرهم.

وعلى هذا النحو سيكون ثالوث السقيفة المؤسس الفعلي لنظرية الغلبة.

= وحرم زواج المتعة، وجعل الطلاق مرة واحدة بدل ثلاث مرات، وأوقف العمل بسهم المؤلفة قلوبهم، وقسم العطاء بشكل متفاوت على أسس دينية وعرقية، واخترع صلاة التراويح، والتكتيف في الصلاة، وحذف «حي على خير العمل» من الأذان، وأضاف «الصلاة خير من النوم» في أذان الفجر، واستباح النبيذ، ومنع متعة النساء في الحج.. لكن يبدو أن عمر كان يطمح إلى شيء آخر أكثر راديكالية وقد وقف يومًا يخطب في الناس ويسألهم: ماذا لو صرفناكم عما تعرفون إلى ما تنكرون، وكان علي حاضرًا، فأجابه: إذن لقومناك بسيوفنا.. هذه كلها وغيرها تثبت أن الرجل كان يبحث عن التميز حتى لو كان ذلك على حساب القرآن والسنة.. واللافت أن أغلب ما فعله عمر يتجه نحو تعقيد حياة الناس من خلال تحريم أشياء أباحها القرآن والنبي ﷺ، وهو ما يفسر إلى حد بعيد نزعة التحريم المهيمنة على عقول قسم كبير من المسلمين يقدسون عمر ويجعلون إجراءاته الخاطئة مقدمة على أحكام القرآن والسنة.

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج1، ص 219.

أما نظرية الشورى التي يتحدث عنها الكثيرون اليوم، فإنها تناقض تمامًا ممارسات الخلفاء الثلاثة الأوائل إذ لا أحد منهم سيكون خليفة منتخبًا ليكون استلامه للسلطة خيار أكثر الناس.

تغييب الشورى

لقد كانت الشورى أول الضحايا بعد وفاة النبي بعد أن استيقظت فجأة الغرائز القبلية والأحقاد الشخصية والأهواء السياسية، ونجح ثالوث السقيفة في فرض أمر واقع. لكن ذلك لن يكون نهاية المطاف بل سيكون على الأصح أول الوهن كما عبر سعد بن عبادة. سيتم استبعاد الأنصار وتهميش الهاشميين واستضعاف المؤمنين على نطاق واسع. وستشتعل لاحقًا الحروب والمعارك بعد أن انتهت السلطة مع عثمان وسيلة للاستئثار العائلي، لينفتح بسبب ذلك جرح غائر في جسد الأمة سيبقى ماثلًا حتى اليوم.

من الواضح أن المسلمين الأوائل لم يكونوا في معظمهم مهيئين لممارسة سياسية ناضجة ونظيفة، وهم لذلك استبعدوا الشورى، وحسموا الخلاف بينهم بقوة الأمر الواقع. فهذه الشورى لو تمت لأفرزت عليًا خليفة، وهو ما لم يكن يقبله القرشيون الذين كانوا لا يزالون يحملون أحقادهم وعقدهم تجاه مرشح النبي ﷺ.

أما أبو سفيان فقد كان خارج المدينة في مهمة لجمع أموال الزكاة عندما توفي النبي، وعندما وصله الخبر، اصطحب معه خالد بن الوليد، وتوجه إلى علي يريد مبايعته بعد أن بويع لأبي بكر في السقيفة. كان يعلن طعنه في أبي بكر ويقول: «والله لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم»[1]. ويحرض عليًا والعباس: «يا آل عبد مناف.. فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين علي والعباس؟ والله لو شئت لأملأنها عليهم خيلًا ورجالًا»[2]. لم يكن أبو سفيان يريد الانتصار لعلي حقيقة، ولكنه كان يريد أن يدخل المسلمين في

(1) **الطبري**، ج3، ص209.

(2) **الطبري**، ج2، 237.

حرب أهلية تنتهي بتدمير الإسلام.. كان علي واعيًا مكر أبي سفيان، وهو لذلك واجهه بالحقيقة: «والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة وإنك والله طالما بغيت للإسلام شرًا، لا حاجة لنا في نصيحتك»[1]. لقد كان أبو سفيان الزعيم الفعلي لقريش قبل فتح مكة، وكان لا يزال يحلم باسترجاع موقعه، لكن عليًا قطع عليه الطريق.

هذا الموقف الذي أطلقه أبو سفيان سيثير مخاوف أبي بكر وعمر على موقعهما، وهما لذلك تركا له أموال الزكاة التي كانت معه فرضي وبايع[2]. ثم سيعملان على إنجاز صفقة معه ومع الارستقراطية القرشية وعموم الطلقاء تقضي بإسناد الكثير من المواقع الحساسة في الدولة إليهم. سيكون ذلك واضحًا عندما يتعلق الأمر بيزيد ومعاوية ابني أبي سفيان وبقادة الجيوش وبالكثير من الولاة الآخرين على البلاد المفتوحة.

وبالفعل، فبمجرد قيام حركة تمرد واسعة ضد أبي بكر، استعان ببني أمية وبني مخزوم. فعقد أحد عشر لواءً على إحدى عشرة فرقة عسكرية. وكان منهم على هذه الجيوش خمسة قادة هم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن أبي أمية وخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص.. وهؤلاء هم الذين قضوا على حركة التمرد بشكل عنيف. وعندما قرر أبو بكر فتح العراق والشام كلف خالد بن الوليد على جيش العراق، وعقد ليزيد بن أبي سفيان على جيش الشام، ثم أمده بجيوش أخرى يقودها أخوه معاوية ثم التحق بهما خالد بن سعيد بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة وخالد بن الوليد.. فكان فتح الشام كلها تقريبًا على يد قواد من بني أمية وبني مخزوم. ثم جاء بعد ذلك عمر بن الخطاب فلم يخرج عن نهج سلفه وكان عماله على مكة والطائف واليمن وعمان واليمامة والبحرين والشام والجزيرة ومصر من بني أمية وحلفائهم. لكن اللافت في ذلك كله توليته ليزيد بن أبي سفيان على الشام وعندما مات يزيد استخلف

(1) **الكامل في التاريخ**، ج2، ص 325.

(2) العقد الفريد، ج3، 271.

أخاه معاوية دون الرجوع إلى عمر. بل إن عمر كان يحاسب جميع ولاته، لكنه كان يستثني من ذلك معاوية.

وأمام هذا الواقع، سيجد علي نفسه وحيدًا إلا من بعض المستضعفين في مواجهة بني أمية والارستقراطية القرشية التي أصبحت القوة المتنفذة الحقيقية داخل الدولة.. لقد كان النبي ﷺ يستعمل أصحاب الكفاءات بعيدًا عن انتماءاتهم القبلية. وبحسب ابن إسحاق: «كان رسول الله ﷺ قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان. فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه العشي وهو بها، وبعث زياد بن لبيد أخا بياضة الأنصاري إلى حضرموت، وعلى صدقاتها، وبعث عدي بن حاتم على طي وصدقاتها، وعلى بني أسد. وبعث مالك بني نويرة على صدقات بني حنظلة. وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية. وكان قد بعث العلاء بن الحضرمي على البحرين. وبعث علي بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليه بجزيتهم»[1]. لم يحاول النبي أن يولِّي أحدًا على أساس انتمائه القبلي، غير أن الذي حدث بعد وفاته هو تسليط بني أمية وحلفائهم على مفاتيح السلطة.

وبوصول عثمان إلى الخلافة سيكون جميع ولاته ومستشاريه المهمين من بني أمية.. كان ذلك تحقيقًا لحلم أبي سفيان الذي قال بعد مبايعة عثمان: «تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة، فوالله لا زلت أرجوها لكم، فلا جنة ولا نار..»[2]. وعلى هذا النحو استطاع الذين حاربوا النبي طويلًا ولم يسلموا إلا كرهًا أن يختطفوا السلطة والدين معًا.

ذهبت الخلافة إلى أبي بكر، وستبدأ كرة السلطة منذ تلك اللحظة بالتدحرج إلى أن تصل إلى الحضن الأموي.. وقد حاول عمر أن يبرر لاحقًا اختطافه للسلطة في غياب أهل الشورى، عندما خاطب ابن عباس: «أما والله يا بني عبد المطلب، لقد كان فيكم علي أولى بهذا الأمر مني ومن أبي بكر،

(1) ابن هشام، **السيرة**، تهذيب عبد السلام هارون، م س، ص 298.

(2) الراغب الأصفهاني، **الاغاني**، ج26، صص 355 ـ 356.

ولكن خشينا أن لا تجتمع عليه العرب وقريش لما قد وترها.»[1]. إنه يعترف أن عليًا أولى منه ومن أبي بكر بخلافة النبي، غير أن مبرره لا أساس له، لأن الذين كانوا يعارضون عليًا هم فقط بعض القرشيين، وهؤلاء لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا شيئًا لو وصلت السلطة إلى علي منذ البداية.. إن المبرر الحقيقي لاختطاف السلطة هو الطموحات الخفية لعمر وأبي بكر[2].. وهذه الطموحات هي التي دفعت عمر إلى عصيان أوامر النبي في أكثر من موقف، ومنعه في مرض موته عندما أراد أن يكتب وصيته الأخيرة التي قال عنها عمر نفسه: «لقد كان النبي يريد أن يصرح باسم علي فمنعت من ذلك خوف الفتنة». وفي نص آخر: «منعت من ذلك إشفاقًا وحيطة على الإسلام»[3]. لقد سبق لعمر أن اتهم النبي بالهذيان، وهو هنا يتهمه بسوء التدبير، ويقول إن قرار النبي بالتصريح باسم علي كان سيؤدي إلى فتنة!.

أمام واقع الاستبعاد، وجد علي نفسه أمام خيارين: إما أن يتحدى السلطة الجديدة على أساس لا مشروعيتها مما يمكن أن يهدد الكيان الإسلامي برمته ويتسبب في ارتداد الناس والدخول في حروب داخلية قد تُنهي وجود الإسلام نفسه، وإما أن يختار مصلحة الدين ويقبل الأمر الواقع. وقد اختار علي الحل الثاني. ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن سجل احتجاجه بشدة ضد الذين اختطفوا السلطة ثم استبعدوه. فلم يبايع إلا مكرهًا في حياة فاطمة أو

---

(1) **كنز العمال**، ج6، ص391. **ومحاضرات الراغب الأصفهاني**، ص213. وعلي الوردي، **وعاظ السلاطين**، ص192.

(2) في رسالة جوابية إلى محمد بن أبي بكر يقول معاوية: «.. ذكرت حق ابن أبي طالب، وقديم سوابقه وقرابته من نبي الله ونصرته له، ومواساته إياه في كل مخوف وهول، واحتجاجك علَي بفضل غيرك لا بفضلك، فأحمد إلها صرف الفضل عنك وجعله لغيرك. وقد كنا وأبوك معنا في حياة من نبينا نرى حق ابن أبي طالب لازمًا لنا، وفضله مبرزًا علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده وأتم له ما وعده.. كان أبوك وفاروقه أول من ابتزه وخالفه. على ذلك اتفقا واتسقا، ثم دعواه إلى أنفسهم، فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهما به الهموم، وأرادا به العظيم [أرادا قتله]، فبايع وسلم لهما لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضا وانقضى أمرهما..» ابن مزاحم، **صفين**، ص118. والمسعودي، **مروج الذهب**، ج3، ص11.

(3) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة ج12**، ص 21. وفي ج3، ص97 نص مماثل.

ربما بعد وفاتها[1] مكسورة الخاطر، وهي التي تعرضت بعد وفاة أبيها لكل أشكال الظلم والاعتداء، فهوجمت في بيتها وصادر أبو بكر إرثها من أبيها ومنعها أرض فدك التي نحلها النبي لها في حياته فكانت ملكًا لها.

موقف فاطمة

لم يكتف أبو بكر بمصادرة فدك ولكنه منع فاطمة إرثها من النبي ﷺ فيما تركه، كما منعها نصيبها من سهم ذي القربى. وقد حاول أن يبرر ذلك بحديث انفرد بروايته ويتناقض بشدة مع نصوص قرآنية واضحة[2]. وقفت حينها الزهراء لتحتج بشدة على ممارساته. كانت متأكدة أنه لن يذعن للحقيقة ولن يعيد إليها حقوقها، لكنها كانت تريد إقامة الحجة عليه. خرجت إلى المسجد في مجموعة من أهل بيتها. وهناك خطبت خطبتها المشهورة فتحدثت بعمق عن حال العرب قبل الإسلام حيث كانوا يعيشون الفقر والجهل والاقتتال والتخلف والتبعية، وذكّرت بالجهود العظيمة التي بذلها النبي من أجل انتصار هذا الدين، وإنقاذ الناس من بؤسهم، وأكدت على جهاد علي الذي كان سيف النبي في معاركه كلها.. تحدثت عن أحكام الدين وقيمه بلغة باهرة ثم انطلقت توبخ الحاضرين الذين كانوا متواطئين وساكتين على الظلم الذي تعرضت له لتخاطب أبا بكر:

«يا ابن أبي قحافة! أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئًا فريًا، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ

---

(1) **مروج الذهب**، ج2، ص271. **الكامل في التاريخ**، ج2، ص14. **صحيح البخاري**، ج4، ح1549/ 3998. **الإمامة والسياسة**، ج1، ص31.

(2) أطلق أبو بكر كلامًا نسبه إلى الرسول ﷺ ونصه كما أخرجه الترمذي: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة..». لكن هذا الكلام يناقض ما يؤكده القرآن من أن سليمان ورث داود ويحيى ورث زكرياء. ولو كان هذا الحديث قد صدر فعلًا عن النبي لما سمحت فاطمة لنفسها بالمطالبة بإرثها من أبيها وهي سيدة نساء العالمين والعالمة بتفاصيل رسالة الإسلام.. وإعادة عمر بن عبد العزيز لاحقًا هذه الأرض إلى ورثة السيدة الزهراء يؤكد أن الرسول ﷺ لم يقل ما نسبه إليه أبو بكر وأن حقها ثابت في إرث أبيها، وهي التي احتجت في حينها بالأساليب العقلية والنقلية.. لقد كانت القضية، في عمقها، قضية سياسية لا هدف لها سوى محاصرة علي اقتصاديًا تمامًا كما تم إقصاؤه سياسيًا.

سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكرياء: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي، ألا رحمَ بيننا! أفخصَّكم الله بآية أخرج منها أبي؟ أم هل تقولون أهل ملتين لا يتوارثان، ولست أنا وأبي من ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطمة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة ما تخسرون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾..»[1].

لقد أغضبت ممارسات أبي بكر فاطمة التي ربما تعرضت فوق ذلك للاعتداء عندما أرادت أن تَحُول بين علي والأشخاص الذين هاجموا بيتها من أجل اعتقال زوجها وإجباره على البيعة هو ومن معه، وماتت بسبب مضاعفات ذلك كما تقول بعض المصادر[2]. لكن غضبها لم يكن فقط بسبب حرمانها من حقها في إرث أبيها والاعتداء عليها، بل كان بالأساس بسبب اختطاف السلطة وما سينجم عنه من ممارسات ستنتهي بالأمة إلى حضيض الجهل والبؤس والاستعباد والتقتيل.

كان النبي يريد بناء الإنسان على أساس قيم الإسلام، وكان ذلك يحتاج إلى المساحة الزمنية الكافية التي يمكن من خلالها إيصال الرسالة إلى الناس، غير أن ذلك لم يكن ممكنًا من الناحية العملية، وكان لابد من خليفة له يملك معرفة الإسلام في أبعاده كلها ويلتزم ثقافته في تفاصيلها جميعًا.. لقد كان الهدف بناء الإنسان وكان لابد لكل مرحلة من إمام يبني إنسانها. أما بناء الحضارة فقد

---

(1) **بحار الانوار**، ج8، ص109.

(2) الهجوم على بيت علي وفاطمة والتهديد بإحراق البيت على من فيه من أجل إجبار علي على البيعة أثبتته المصادر التاريخية المختلفة. انظر مثلًا: **أنساب الأشراف**، ج2، ص268. **وتاريخ الطبري**، ج3، ص202. **وشرح نهج البلاغة**، ج2، 56. **وتاريخ اليعقوبي**، ج2، 126. **والإمامة والسياسة**، ج1، ص20.

كان هدفًا بعيدًا بالنسبة إلى النبي ﷺ لأن ذلك لابد أن يكون نتيجة لبناء الإنسان. غير أن الذي حدث بعد النبي هو توقف عملية بناء الإنسان لتعود إلى الواجهة أخلاق الجاهلية وممارساتها في الاستبداد والتجهيل والظلم والإفقار والإقصاء.. وعوض أن يكون الإنسان غاية الحضارة التي يبنيها بجهده وعرقه، أصبح مجرد وسيلة تستخدمها فئة قليلة من أجل تحقيق أهدافها الخاصة.

لقد أغضب ذلك فاطمة بشدة فانطلقت تتوعد ظالميها الذين اختطفوا الدين والسلطة معًا، وترفض حتى حضورهم جنازتها عندما طلبت أن تدفن ليلًا في مكان لا يزال مجهولًا حتى اليوم.. صادر أبو بكر أرض فدك التي نحلها النبي ﷺ لابنته في حياته. وكان ذلك خطوة إضافية من أجل تجريد علي من أية عناصر للقوة. لقد كان يخشى الإمام، وكان يفكر في محاصرته بكل وسيلة.

الوصية لعمر

لم يكن علي مخطئًا حين خاطب عمر الذي طالبه بالبيعة لأبي بكر: «احلب حلبًا لك شطره، والله ما حرصك على إمارته اليوم إلا ليؤثرك غدًا»[1]. كان عمر حينها حريصًا على بيعة أبي بكر على نحو مريب، لكن عليًا كشف الأمر، ولم تمر سوى سنتين حتى تبين صدق ما أخبر به علي.

كان عمر ينتمي إلى عدي، العشيرة القرشية الوضيعة، وقد تلقى تربية قاسية من أبيه الخطاب الذي كان يضربه ويعنفه بسبب وبدونه. وقد أثر ذلك في شخصيته فكان موصوفًا بالغلظة والتعصب.. أسلم في بداية الدعوة لكنه لم يكن مؤثّرًا إذ لم تُعرف عنه أية بطولات سياسية أو عسكرية، حتى أنه كان يكتفي بمراقبة المعارك عن بعد، وعندما أراد النبي أن يجعله مفاوضًا عنه في صلح الحديبية رفض خوفًا من قريش. كان فقط يُعبّر عن قسوة بالغة إذا وقع أسرى في أيدي المسلمين ليردد مقولته المعروفة «يا رسول الله، دعني أقطع رقبته».

وعندما قرر أبو بكر استخلاف عمر، استدعى عبد الرحمن بن عوف وطلب رأيه، فأجاب: «إنه أفضل من رأيت إلا أن فيه غلظة». ثم استدعى عثمان بن عفان فقال: «سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله». ثم طلب أبو

(1) البلاذري، **انساب الأشراف**، ج 1، ص 586.

بكر إلى الرجلين أن يكتما الأمر. لكن الخبر وصل بطريقة أو بأخرى إلى طلحة فدخل على أبي بكر فقال: «بلغني أنك يا خليفة رسول الله استخلفت عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت غدًا لاقٍ ربك، فيسألك عن رعيتك؟»، وهنا غضب أبو بكر بشدة وانطلق يشتم طلحة ويهدده ثم طرده..[1].

لقد كان أبو بكر مصرًا على استخلاف عمر مهما كان رأي الصحابة وبقية المسلمين فيه.. كان يشعر أنه مدين له بمنصب الخلافة، ولابد أن يرد له الدين. وهكذا طلب، وهو على فراش الموت، من عثمان أن يكتب له وصيته. وبحسب الطبري قال له: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به عبد الله بن عثمان إلى المسلمين. أما بعد..»، ثم أُغمي عليه، وكتب عثمان: «قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب»، وأفاق أبو بكر، فقال: «اقرأ». فقرأه، فكبّر أبو بكر، وسرّ وقال: «أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي!». قال: «نعم». قال: «جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله»[2]. وعلى هذا النحو، سيكون عثمان هو الذي كتب وصية أبي بكر لعمر، وهو ما لن ينساه له عمر من ناحيته خصوصًا بعد وفاة أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل الذين ذكرهم بعد أن طعنه أبو لؤلؤة، وتمنى لو كان أحدهم حيًا ليكون هو الخليفة من بعده.

بعد أن كتب عثمان الوصية، أعطاها أبو بكر لعمر ليقرأها على الناس بعد موته. وعندما سأله رجل: «ما في الكتاب يا أبا حفص؟» قال: «لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع». قال: «لكني والله أدري ما فيه: أمّرته عام أول وأمّرَك العام»[3]. لقد فهم هذا الرجل البسيط اللعبة، وعرف أن المسألة لا تزيد على كونها توريثًا سياسيًا قائمًا على أساس تفاهمات شخصية وعصبيات قبلية. وهذا كله يجعل مزاعم مُزَوّري التاريخ حول الشورى بوصفها الأساس الذي تم من خلاله تداول السلطة بعد وفاة النبي بلا أساس ولا مصداقية.

---

(1) **الطبري**، ج 3، ص 433.
(2) **الطبري**، ج 3، ص 329.
(3) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج 1، ص 38.

وعلى هذا النحو تم استبعاد علي مرة أخرى، وهو ما يعني أن القوم قرروا استبعاده نهائيًا من أجل أن تتدحرج كرة السلطة لتصل في النهاية إلى الحضن الأموي كما سيتضح ذلك من خلال الخطوات التي أقدم عليها الخلفاء الثلاثة. لقد كانت وصية أبي بكر لعمر أول تعيين واضح وفعلي لمنصب الخلافة، وسيكون ذلك فاتحة للتوريث السياسي في تاريخ الإسلام.

وتشير المصادر إلى أن مناديًا قرأ الوصية لعمر في المدينة. ولم يكن أمام الناس سوى قبول الأمر الواقع.. أما عمر فسيبدأ عهده مهددًا ومتوعدًا: «إن الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبي، فلا والله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن أهل الصدق والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم.»[1].

خدعة «شورى الستة»

انتهى عمر بن الخطاب صريع طعنات أبي لؤلؤة أواخر العام 23هـ/ 644م بعد خلافة امتدت عشر سنوات. كان اغتيالًا يعكس احتجاجًا على وضع اجتماعي كان يعيشه الكثيرون[2]، لكنه لم يكن يحمل بعدًا سياسيًا واضحًا. استطاع عمر أن يحفظ الأمن الداخلي للأمة، فقد جاء إلى السلطة في وضع مستقر تمامًا بعد أن نجح أبو بكر في قمع انتفاضة المتمردين. لكن الدولة مع عمر بدأت تنتقل إلى الشكل الإمبراطوري حيث ظهر التفاوت الاجتماعي على أساس الانتماء العرقي. وظهر التمييز بين القبائل العربية المختلفة ثم بين العرب والعجم.. كما ظهر التفاوت الاقتصادي الحاد بين أغنياء وفقراء.. وكان ذلك

---

(1) ع. م. العقاد، **العبقريات الإسلامية، المجموعة الكاملة**، ط القاهرة، ص 483.

(2) كان أبو لؤلؤة مولى للمغيرة بن شعبة، يعمل في النقش والنجارة والحدادة، وقد اشتكى للخليفة من ثقل الضرائب عليه «فقال له عمر: درهمان كل يوم.. ما خراجك بكثير في كنه ما تحسن من الأعمال، فمضى وهو يتذمر». المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص329. والغريب أنه لا أحد اتهم المغيرة بن شعبة الذي كان أبو لؤلؤة مولى له، وربما كان ذلك بسبب علاقات المغيرة القوية بالبيت الأموي. أما الحديث عن مؤامرة اشترك فيها اليهود والنصارى والمجوس والعبيد لقتل عمر، فلا أساس له.

كله نتيجة لاختيارات سياسية قضت بتوزيع الثروة بطريقة غير متساوية، والتعامل مع المسلمين الجدد من العرب والفرس بوصفهم رعايا أقل شأنًا.

جاء عمر إلى السلطة بوصية من أبي بكر، وقد كان ذلك أمرًا منتظرًا بسبب العلاقة الخاصة والتفاهم المسبق بين الرجلين. وكان عمر يتمنى لو بقي أبو عبيدة ـ ثالث ثلاثة في أحداث السقيفة ـ حيًا حتى يكون هو الخليفة الجديد. بل إنه ذهب بعيدًا عندما أردف ذلك بقوله لو كان سالم مولى حُذيفة حيًا لولاّه[1]. إنها تصريحات تؤكد مرة أخرى أن قرارًا اتُّخذ باستبعاد علي نهائيًا عن السلطة التي كان وحده مرشح النبي ﷺ لها منذ البداية.

غير أن عمر لم يكن بإمكانه ممارسة هذا الاستبعاد بشكل فج، فاخترع طريقة ملتوية لتحقيق هذا الهدف. وكانت هذه الطريقة تقضي باختيار ستة أشخاص ليكونوا أعضاء في مجلس لاختيار الخليفة من بينهم. وهؤلاء الستة هم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص.

كانوا جميعًا من المهاجرين، وهو ما يعكس موقفًا سلبيًا من الأنصار إذ لا شيء يبرر استبعادهم من قرار اختيار الخليفة وهم الذين احتضنوا الدعوة ونصروا النبي. وتشير بعض الروايات إلى أن عمر أدخل ابنه عبد الله في هذه

(1) تشير بعض المصادر إلى وجود اتفاق، مكتوب في صحيفة، وُقِّع في حياة النبي ﷺ في حجة الوداع، التي أعلن فيها النبي ولاية علي، بين أبي بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة من أجل اختطاف السلطة واستبعاد الإمام علي ثم تداولها فيما بينهم بعد ذلك. وقد انضم إلى هذا الاتفاق الكثيرون بعد العودة إلى المدينة حيث جعلوا أبا عبيدة بن الجراح الأمين على تلك الصحيفة. انظر مثلًا: كتاب سليم بن قيس الهلالي، مركز الأبحاث العقائدية، قم، د.ت، ص269. وما أشارت إليه هذه المصادر يؤيده استذكار عمر لابن الجراح وسالم ومعاذ عندما طعن، وإلا ما الذي يميز أشخاصًا مثل سالم أو معاذ أو أبي عبيدة بن الجراح حتى يتمنى عمر لو كان أحدهم حيًا ليستخلفه؟ وأكثر من ذلك، بأي حق يصادر عمر حق المسلمين في اختيار خليفتهم؟. إن نظرية الشورى، بهذا المعنى، لا يمكن التأسيس لها، على أي نحو كان، من خلال سير الخلفاء الثلاثة الأوائل، إذ لا أحد منهم التزم الشورى في الوصول إلى السلطة أو في ممارسة الحكم.

الشورى دون أن يكون له من الأمر شيء. فهو مجرد عنصر محكم، لكن سير الأحداث بعد ذلك لا يشير أبدًا إلى وجوده.

وقد تم تبرير اختيار هؤلاء الستة بأنهم من المبشرين بالجنة استنادًا إلى حديث تم اختلاقه للتغطية على ممارسات هؤلاء الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ. ولو كان هذا المبرر صحيحًا لشملت هذه الشورى آخرين كثرًا شهد لهم النبي بالجنة في روايات موثقة وصحيحة كما هي حالة أبي ذر وسلمان وعمار والمقداد.

من الواضح أن عمر حدد أعضاء هذه الشورى من الارستقراطية القرشية إذا ما استثنينا عليًا. وهو لأجل ذلك أقصى وجوه المهاجرين والأنصار أصحاب الحق الشرعيين في اختيار الخليفة كما تبين ذلك من نصوص عديدة.. فعثمان كان أمويًا ارستقراطيًا وليست له أية انجازات في حياة النبي سوى هروبه في معركة أحد، وهو فوق ذلك رجل مسن لا يصلح للحكم. وعبد الرحمن بن عوف هو أيضًا قريشي ارستقراطي مترف كان يلبس الحرير، وهو صهر عثمان. وسعد بن أبي وقاص هو أيضًا من بني زهرة عشيرة عبد الرحمن وهو أيضًا ارستقراطي اكتسب مجده في معركة القادسية التي انتصر فيها المسلمون على الفرس. والزبير بن العوام من بني العزى بن قصي، كانت أمه عمة النبي، وله تاريخ مشرف في الدفاع عن الإسلام، لكنه أصبح هو الآخر من الارستقراطية المتنفذة. وطلحة بن عبيد الله، من تيم عشيرة أبي بكر، كان يؤذي النبي ﷺ ويقول سنتزوج نساءه بعد موته، فنزل قرآن يحرم ذلك، وهو أيضًا كان معروفًا بثرائه الفاحش. الوحيد من بين هؤلاء الستة الذي لم يكن ثريًا، وكان يعيش حياة بسيطة وكان يملك كل المؤهلات العلمية والدينية والأخلاقية هو علي بن أبي طالب[1]. لقد كان متميزًا عن الجميع في علمه وزهده وورعه وقوته وشجاعته.. وهو وحده صاحب الانجازات الحاسمة في حياة النبي، لا يدانيه في ذلك أحد.

---

(1) ربما كان علي فقيرًا قبل الهجرة، لكن الذي لا شك فيه أنه لم يكن كذلك قط بعد الهجرة خصوصًا بعد الانتصارات التي حققها الإسلام في حياة النبي ﷺ وكان هو أبرز أبطالها، لكنه كان ينفق أكثر أمواله على تحرير العبيد ومساعدة الفقراء ليكتفي بحياة بسيطة مثل بقية الناس.

كان طلحة غائبًا على الأرجح، وكانت «الشورى» عمليًا بين الخمسة الباقين، وكان واضحًا أن عليًا يقف بمفرده تقريبًا أمام أربعة أرستقراطيين.. وكانت المعركة خاسرة بالنسبة إليه سلفًا. لقد وضع عمر عبد الرحمن بن عوف مرجحًا وقال إن الخليفة يجب أن يكون من الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن[1]. وكان واضحًا أن عليًا وعثمان هما المرشحان الحقيقيان، غير أن كفة عثمان كانت هي الأرجح لأن سعدًا وعبد الرحمن كانا إلى جانب عثمان منذ البداية، وبقي صوت الزبير بلا قيمة سواء دعم عليًا أو انضم إلى الآخرين، وحتى لو كان طلحة حاضرًا وانضم هو والزبير إلى علي، فإن ذلك لن يفيد عليًا في شيء لأن عمر أوصى بقتل الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمن إذا خالفوا رأيه. لاشك أن عمر كان يعرف أن عبد الرحمن وسعد سيقفان إلى جانب عثمان، ولم يكن يبالي إذا قتل الزبير وطلحة مع علي لو رفضوا التسليم للأمر الواقع. لقد كان عبد الرحمن صهرًا لعثمان وكان له تأثير كبير في سعد الذي ينتمي إلى عشيرة عبد الرحمن نفسها.

انسحب عبد الرحمن من التنافس وأعطى نفسه حق اختيار الخليفة المقبل، وهو الذي كان هواه دائمًا مع صهره.. وهنا فقدت «الشورى» ورقة التوت، وأصبح من المؤكد أن الدولة التي بناها محمد وعلي والبقية بالعرق والدم سقطت أخيرًا بسرعة كبيرة في أيدي أعدائهم الذين طالما حاربوا الإسلام. إن هذا هو ما يفسر فرحة أبي سفيان وسائر قريش التي ما زالت ترابط في جاهليتها.

(1) أمر عمر صهيبًا أن يصلي بالناس وقال له: «أدخل هؤلاء الرهط بيتًا، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد، فاشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما. وإن رضي ثلاثةٌ رجلًا وثلاثةٌ رجلًا فحكِّموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس». **الكامل في التاريخ**، ج2، ص220. **وتاريخ الطبري**، ج4، ص284. . إنها وصية تنضح دمًا إذ لا معنى لحرية الموقف في نظر عمر، بل هناك شيء واحد لمن يبدي موقفًا مختلفًا هو السيف. . ومن الواضح اليوم أن العنف السلفي يجد في مواقف عمر وممارساته مبررًا لنهجه باعتباره الخليفة المقدس والقدوة بالنسبة إليه. ويصبح من الطبيعي تبعا لذلك أن يعارض العقل السلفي مفاهيم الديمقراطية والحرية والاختلاف.

كان الأنصار والمهاجرون وسائر العرب يفضلون عليًا بلا شك، لكن عمر استبعدهم تمامًا من هذه الشورى. أما قريش فكانت تفضل عثمان، فهو بالنسبة إليها الضامن لمصالحها.. وهي التي سترجح كفته لأنها كانت ممثلة بقوة في هذه الشورى.

وتشير الروايات إلى أن عبد الرحمن بن عوف قرر في اليوم الثالث «للشورى» حسم الأمر بعد أن بدأت بوادر الانشقاق بين المسلمين في الظهور. قرر أخيرًا أن يتوصل إلى نتيجة حاسمة مدفوعًا من كل الجهات. حضر الجميع في مسجد النبي ﷺ: المهاجرون والأنصار وقادة الجند وممثلو الأمصار.. نادى عليًا وعثمان وسألهما على التوالي إن كانا سيتبعان سيرة الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر. أجاب علي بأنه سيبذل جهده في اتباع سيرة النبي، أما سيرة أبي بكر وعمر فلا تلزمه في شيء؛ لأن هذه السيرة إذا كانت مطابقة لسيرة النبي فلا حاجة لذكرها، وإن كانت مخالفة لها فلا ينبغي الالتزام بها.. لقد تعمد عبد الرحمن ذكر سيرة الرجلين من أجل إحراج علي، غير أن عليًا لم يكن يطلب السلطة لذاتها حتى يقدمها على قيمه التي يؤمن بها.

أما عثمان فأجاب أنه سيلتزم بسيرة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر. لم يكن الرجل صادقًا في إجابته، وكان فقط يريد اقتناص الفرصة من أجل تحقيق طموحاته وطموحات عشيرته. وقد تبين لاحقًا أنه لم يلتزم لا بسيرة النبي ولا حتى بسيرة أبي بكر وعمر. كان سؤال عبد الرحمن ملغومًا، كان يعلم أن عليًا رجل صدق ووفاء، ولكن هواه كان مع صهره عثمان، وكان يتوقع أن يرد له عثمان الدين ويوليه من بعده، لكن حساباته كانت خاطئة، فقد مات قبل قتل عثمان.. وافق ابن عفان دون تردد على طلب عبد الرحمن فبايعه ثم بايع الناس. أما علي المغلوب على أمره فلم يبق أمامه سوى الاحتجاج ثم التسليم للأمر الواقع[1].

---

(1) بعد مبايعة عثمان قام الإمام مخاطبًا الحاضرين فقال: «لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها إلا جور علي خاصة، التماسًا لأجر ذلك وفضله، وزهدًا فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه». **نهج البلاغة**، ج1، خ74.

لقد كان قرار تولية عثمان قرارًا سابقًا على هذا المشهد. كان قرارًا مُتَّخَذًا قبل ذلك بكثير. وما جرى في المسجد لم يكن سوى إعلان هذا الاختيار بطريقة فيها كثير من المكر. لاشك أن عليًا كان يعلم أن هذه الشورى شكلية، غير أنه أراد أن يثبت أنها فعلًا شورى شكلية، إذ لو امتنع عن المشاركة فيها لاعتبر منسحبًا ولقيل إنه لم يُستبعد ولم يُتآمر عليه. وهو، من جهة أخرى، أراد أن يثبت تناقضات عمر الذي كان دائمًا يكرر مع صديقه أبي بكر أن النبوة والإمامة لا تجتمعان في بيت واحد، بينما هو الآن يقر من خلال ترشيح علي أنهما يمكن أن يجتمعا.

بويع عثمان لأن قريشًا كانت تريده، ولأنه كان يمثل تواصلًا لخط بدأ بالانحدار منذ أحداث السقيفة. كان أفضل من يخدم مصالح قريش، ومصالح بني أمية على نحو خاص وهم الذين أصبحوا منذ عهد عمر يمسكون بالمواقع الأساسية في الدولة.

الوصل الخامس

خيارات الحكام الجدد

كانت مكة قبل الإسلام مركزًا تجاريًا لكل العرب. وقد فتح ذلك الباب أمام قريش للانفتاح على ثقافات مجاورة في الحبشة وفارس، واليمن والشام فيما عرف برحلة الشتاء والصيف. بل إن بعض وجوه قريش كانوا يرتبطون بعلاقات صداقة مع بعض الملوك كما هي صداقة عمرو بن العاص لملك الحبشة وصداقة أبي سفيان مع ملك الروم وهو ما يقوي فرضية هذا الانفتاح الواسع.

لم تكتف قريش باستيراد البضائع من البلاد المجاورة بل كانت أيضًا تستورد الأفكار والعقائد والعادات والتقاليد.. ولا شك في تأثير ذلك كله في الثقافة العربية السائدة في تلك المرحلة. وهو تأثير سيشمل مستويات متعددة في الديّن والأخلاق والسياسة.

ولأجل ذلك لن يختلف المشهد السياسي العربي عن المشهد السياسي العالمي آنذاك حيث ستكون ثقافة الاستبداد هي المهيمنة سواء في وسط الجزيرة العربية حيث يسود النظام القبلي، أو في الأطراف حيث كانت مملكة المناذرة في الحيرة الموالية للفرس، ومملكة الغساسنة في بصرى الموالية للروم، وبعض الممالك الأخرى في اليمن.

غير أن النظام السائد في مكة لم يكن استبداد فرد، بل كان استبداد فئة. لقد كانت الارستقراطية القرشية هي الحاكم الفعلي الذي يتقاسم إدارة شؤون قريش، وهو ما يعني أن عامة الناس من سكان مكة لم يكن لهم رأي معتبر في أي شأن من شؤون القبيلة.. كان ما يقرره وجوه الارستقراطية في دار الندوة هو القرار الذي ينبغي أن ينفذ.

وعندما ظهر الإسلام، كان يحمل مشروعه السياسي المختلف تمامًا عما كان سائدًا. تصورت قريش في البداية أن النبي ﷺ لم يكن إلا طالب ملك وسلطة، وهي لأجل ذلك عرضت عليه تتويجه ملكًا مقابل التنازل عن مشروعه الديني الذي لم يكن سوى تبليغ رسالة الله.

غير أن النبي رفض ذلك وعيًا منه بأن الهدف لا يتعين في الوصول إلى السلطة بقدر ما يتحدد في العملية التغييرية الشاملة لكل الواقع السياسي والثقافي. وهو أمر لا يتحقق دون الانطلاق من الناس من أجل تغيير طرائقهم في التفكير وأنساقهم في الثقافة. فالنبي لم يكن يريد تغييرًا مفروضًا ومسقطًا بل كان يريد تغييرًا يصنعه الناس. ولو قبل النبي عرض قريش لكان ذلك إعلانًا لقبوله الثقافة السائدة في السياسة والاجتماع.. ولن يتمكن عندئذ من العمل إلا في إطار هذه الثقافة.

إن ما حدث في سقيفة بني ساعدة كان إحياءً للاستبداد الفئوي الذي كانت تمارسه قريش، واستعادة للثقافة السياسية التي كانت سائدة قبل الإسلام.. لقد أراد النبي ﷺ لأمّته أن تنطلق على أساس الشورى في أمورها كلها.. غير أنها وجدت نفسها ترتد نحو ثقافة جاهلية قائمة على أساس الاستبداد.

العقل الظني والعقل العلمي

عندما كان الإسلام يدعو إلى الشورى ويرفعها إلى مستوى العمل العبادي، كان يريد أن يؤسس العقلية العلمية التي لا يمكن أن تُبنى إلا على أساس الحوار المنتج.. ولذلك جاءت مواقفه لتُدين على نحو حاسم كل العقلية الظنية والمتوهمة التي كانت سائدة لدى العرب، لأن العربي كان ينطلق على أساس الظن والشك والوهم في عقائده وأحكامه. لقد أراد الإسلام معالجة أساس الوهن في الثقافة الجاهلية من أجل استنبات أساس جديد يقوم على العلم والمعرفة هذه المرة.

إن الظن لا يمكنه أن يصيب الحقيقة إلا اتفاقًا. ولأجل ذلك كثيرًا ما يقرن القرآن الظن بالباطل والجاهلية كما هو قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ

ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[1]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[2]. إن القرآن بذلك يريد التأكيد أن الوثنية العربية والثقافة الجاهلية لم تكونا قط قائمتين على أساس علمي، وإنما كانتا قائمتين على مجرد ظنون وأوهام وخرافات: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3]. وهذه العقلية الظنية لم تكن سائدة فقط بين عوام الناس بل كانت أيضًا تشمل النخب المتحكمة: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾[4]. بل إن هذه النخب كانت تفعل ما بوسعها لنشر هذه الثقافة الظنية وترسيخها بين الناس؛ لأن ذلك هو ما يخدم مصالحها وأهواءها ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[5].

لقد أدان القرآن العقلية الظنية لأنها لا تلتقي أبدًا مع العقل والعلم؛ ولأنها لا تنتج في النهاية إلا الجهل والفساد والتخلف، فعلى أساس الظن لا يمكن تحقيق أي تقدم ولا يمكن إنجاز أي شيء. وحده العلم هو الذي يحقق ذلك. بل إن الظن هو الأداة التي يستخدمها المتسلطون لتكريس الظلم الاجتماعي والقهر السياسي والتخلف الشامل.

والظن الذي يدينه القرآن هو الظن الذي يقف في مقابل العلم. أما عندما يفقد الإنسان المعلومة الصحيحة، فإن اللجوء إلى الظن في هذه الحالة هو ضرورة تُقدّر بقدرها. لقد أراد الإسلام تدمير كل المنظومة المنطقية الجاهلية القائمة على الظن من أجل بناء منظومة منطقية إسلامية قائمة على العلم. وهذا يعني في العمق التحول عن أخلاقيات الفردانية والغرائزية والقبلية.. نحو قيم إنسانية نوعية تريد مصلحة النوع الإنساني في مطلق الزمان والمكان، وهي المصلحة التي لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال القيم الرفيعة التي يقرها الإسلام ويدعو إليها.

غير أن تنفيذ هذا المشروع لم يكن سهل المنال، ذلك أنه كان يحتاج

(1) سورة آل عمران، الآية: 154.
(2) سورة يونس، الآية: 36.
(3) سورة البقرة، الآية: 87.
(4) سورة يونس، الآية: 36.
(5) سورة النجم، الآية: 23.

إلى المتلقي الذي يملك الاستعداد والإرادة من أجل الانتقال نحو قيم الإسلام التنويرية القائمة على أساس المعرفة والعلم والعقل.. كما كان يحتاج إلى المساحة الزمنية الكافية لتربية الأجيال المتتالية على مثل هذه القيم.. وكان ذلك كله يحتاج إلى من يملك ثقافة الإسلام وعلومه من أجل أن يكمل المسيرة بعد النبي ﷺ.

والإيمان الحقيقي نفسه لا يمكن أن يتأسس على الظن بل إنه، في كل الأحوال، يجد في العلوم والمعارف أسسه ومنطلقاته: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1]. لقد بدأت الآية بـ «مِن» التبعيضية من أجل التأكيد أن الإيمان الصادق يتجاوز بمرتبة الإيمان المجرد. فالمؤمنون كثيرون غير أن الصادقين منهم قليلون. وهؤلاء هم وحدهم الذين عرفوا الحقيقة فالتزموا بها وبمقتضياتها، وهم الذين لا تزلزلهم الفتن ولا تختلط عليهم الأمور؛ لأن هذه الفتن وجدت بالأصل من أجل تمييز المؤمن الصادق من غيره: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[2].

وهذا يعني أن الإيمان الصادق ملازم للعقلية العلمية القائمة على أساس البرهان والدليل، ذلك أن الصدق الذي ينتج التوازن الداخلي والرضا النفسي لا يمكن أن يجد قاعدته إلا في اليقين العلمي.

إن الهزيمة السياسية التي ألحقها الإسلام بقريش والعرب لم يكن بإمكانها أن تلغي الثقافة الجاهلية الموروثة على نحو كامل. إن ذلك يحتاج إلى الوقت والجهد المتواصل. كان النبي ﷺ واعيًا ذلك، وكان يخطط لتحقيق هذا الهدف، وكان لأجل ذلك يربي جيلًا من المؤمنين من أجل أن يكونوا الدعاة إلى هذه الثقافة الجديدة.. غير أن مشروعه أجهض بمجرد وفاته، وعانت القلة من الطليعة المؤمنة الإبعاد والتهميش والاضطهاد وصولًا إلى التشريد والقتل

(1) سورة الأحزاب، الآية: 25.

(2) سورة العنكبوت، الآيتان: 2 ـ 3.

بأبشع الطرائق كما حدث لعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري وحجر بن عدي والحسين بن علي والكثيرين من أمثالهم.

إستراتيجية التجهيل: منع الحديث

لقد بدأ هذا المشروع المضاد منذ أن تم اختطاف السلطة، عندما تم منع تداول الحديث وروايته وتدوينه بحجة الخوف من اختلاطه بالقرآن في الوقت الذي كان فيه الكثير من الصحابة يدوّنون الحديث في حياة النبي نفسه كما هي حالة عبد الله بن عمرو بن العاص مثلًا[1]. إننا نجد أن أبا بكر جمع في ليلة واحدة 500 حديث ثم أحرقها. وعندما جاء عمر جمع الصحابة واستشارهم في جمع الحديث وتدوينه، فأيدوا ذلك بإجماع، وأبدوا اهتمامًا بالأمر.. وعندما اجتمعت كتب الحديث عند عمر، وظن الصحابة أنه أراد أن يوحدها، فاجأهم جميعًا بقرار منفرد وأضرم فيها النيران! لقد أوهم الصحابة أنه يريد جمع الحديث الذي كان مكتوبًا عندهم، وعندما جمع أكبر كمية ممكنة من الحديث أحرقها جميعًا[2]. ولم يكتف عمر بذلك بل عمم أمرًا لكل الأمصار: «.. من كان عنده شيء من سنة الرسول المكتوبة فليمحه»[3].

لقد كان النبي ﷺ يدفع باستمرار في حياته من أجل نشر سنته وتدوينها وكان يقول: «نضّر الله امرُؤ سمع مقالتي فبلّغها، فربّ حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[4]، وفي نص آخر يوصي النبي أصحابه فيقول: «الناس لكم تبع، وسيأتي أقوام من أقطار الأرض يتفقهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا، وعلموهم مما علمكم الله»[5].

وعندما تعرض بعض القرشيين ـ وهو عمر ـ لعبد الله بن عمرو بن العاص

---

(1) أحمد بن حنبل، **مسند أحمد**، ج2، ص 207. الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، ج1، ص104.

(2) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج5، ص140.

(3) **كنز العمال**، ج10، ص291.

(4) **سنن ابن ماجه**، ج 1، ح 230 ـ 236. **سنن الترمذي**، ج5، ح 2657.

(5) **كنز العمال**، ج10، ح 29533 ـ 29535.

الذي كان يكتب حديث النبي، وقالوا له إن رسول الله بشر يغضب كما يغضبون، ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال له وهو يشير إلى شفتيه: «أكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج مما بينهما إلا حق»[1]. وفي رواية أخرى: «أن رجلًا من أهل اليمن سمع رسول الله، فقال: اكتب لي يا رسول الله فقال الرسول اكتبوا لأبي فلان»[2]. والروايات في هذا الشأن كثيرة، ولو لم تكن السنة مدونة لما أحرقها أبو بكر وعمر وإلا فما الذي أحرقوه؟!

لقد كان النبي يدفع في اتجاه نشر سنته بين الناس بكل الوسائل، لكننا نجد في تذكرة الحفاظ للذهبي شيئًا آخر يشير إلى أن أبا بكر جمع الناس بعد وفاة النبي ﷺ وخطب فيهم قائلًا: «إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافًا، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئًا، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه»[3].

إن ما كان يقوله أبو بكر هنا يناقض حديثًا صحيحًا عن النبي يقول فيه: «يوشك الرجل متكئًا على أريكته يُحدّث بحديث من حديثي، فيقول بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه! ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل ما حرّم الله»[4]. بل إن ما قاله أبو بكر عن الاكتفاء بالقرآن في معرفة الحلال والحرام لم يلتزم به هو نفسه عندما صادر إرث فاطمة من أبيها مبررًا ذلك بحديث لم يروه أحد غيره يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، في الوقت الذي يصرح فيه القرآن بعكس ذلك عندما يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[5] أو حينما يورد دعاء لزكريا: ﴿وَإِنِّي

---

(1) **سنن أبي داود**، ج2، ص126. **وسنن الدارمي**، ج1، ص125. **ومسند أحمد بن حنبل**، ج2، ص162. **ومستدرك الحاكم**، ج1، ص105. الخ..

(2) **صحيح البخاري**، ج1، ص22. وأبو فلان هو أبو شاه كما في الترمذي، ج10، ص135.

(3) الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ج1، ص2. وانظر أيضًا **صحيح الترمذي**، ج1، ح60، ص11.

(4) **سنن ابن ماجة**، ج1، ح 12 ـ 13 ـ 21. **وسنن الترمذي**، ج 5، ح 2663 ـ 2664. **وسنن أبي داود**، ج 3، ح3050 وج4، ح 4604 ـ 4605. **ومسند أحمد**، ج 4 ص 130 ـ 132. **ومستدرك الحاكم**، ج 1، ص ص 108 ـ 109.

(5) سورة النمل، الآية: 16.

خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾[1].

وعندما جاء عمر إلى السلطة كرس هذا التوجه، ونحن نجد في سنن ابن ماجة، قرظة بن كعب يقول: «بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة وشيعنا فمشى معنا إلى موضع حراء فقال: أتدرون لمَ مشيت معكم؟ قال قلنا لحق صحبة رسول الله، ولحق الأنصار. قال: ولكني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لممشاي معكم. إنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز المرجل، فإذا رأوكم مدّوا إليكم أعناقهم وقالوا: أصحاب محمد: فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ ثم أنا شريككم». وقد التزم أكثر الصحابة بأوامر عمر، يؤكد ذلك ما ذكره السائب بن يزيد في قوله: «صحبت سور بن مالك من المدينة إلى مكة، فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ بحديث واحد»[2].

بل إن عمر سيذهب بعيدًا عندما سيقرر حبس بعض الصحابة في المدينة لسبب وحيد هو نشرهم لأحاديث النبي ﷺ بين الناس. يقول عبد الرحمن بن عوف: «ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق عبد الله بن حذيفة وأبي الدرداء وأبي ذر وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق؟ قالوا: أتنهانا؟ قال: لا، أقيموا عندي، لا والله لا تفارقوني ما عشت»[3]. لقد كان عمر يهدد كل من يتجرأ على رواية الحديث ويضربه حتى قال أبو سلمة وأبو هريرة: «ما كنا نستطيع أن نقول قال رسول الله حتى قبض عمر»[4].

وعندما جاء عثمان وقف على المنبر في بداية عهده وقال: «لا يحل

(1) سورة مريم، الآيات: 5 ـ 7.

(2) **سنن ابن ماجة**، ج 1، ص73.

(3) **كنز العمال**، ج 5، ص 239، ح 48665.

(4) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج8، ص107. **وتذكرة الحفاظ**، ج1، ص7.

لأحد يروي حديثًا لم يُسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر»، مكرسًا بذلك خيارات سلفه.

من الواضح أن سبب منع رواية الحديث وتدوينه لم يكن الخوف من اختلاطه بالقرآن لأن الجميع كانوا قادرين على تمييز القرآن عن غيره من الكلام فضلًا عن وجود القرآن مكتوبًا في مصحف مستقل ومعروف. كما أنه من الواضح أنه لم يكن بسبب الخوف من الاختلاف؛ لأن النبي لا يمكن أن يناقض نفسه ليتحدث بأحاديث متعارضة.. وإذا وُجد نسخ في سنة النبي ﷺ فإن ذلك لابد أن يكون معلومًا لدى بعض الصحابة. ولو كانت مبررات هذا المنع صحيحة لما تم تدوين السنة في حياة النبي وهو الأعرف بما يصلح المسلمين.

إن الأسباب الحقيقية لهذا المنع كانت سياسية بالدرجة الأولى وثقافية بالدرجة الثانية. كان أبو بكر وعمر وعثمان يعرفون أنهم اغتصبوا موقع الخلافة واختطفوا السلطة. وكانوا يدركون أن أغلبية المسلمين لم تسمع من النبي مباشرة في شأن خلافته بسبب وجودهم خارج المدينة أو بسبب سنهم حيث كان هناك جيل كامل يعيش طفولته عندما كان النبي ﷺ لا يزال على قيد الحياة.

لقد أراد هؤلاء الثلاثة طمس ذكر علي الذي كان كثيرًا ما ينوه النبي ببطولاته، ويشير إلى قابلياته، ويرشد إلى ضرورة موالاته ونصرته.. ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا من خلال منع رواية الحديث أو تدوينه. ولم يكن بإمكان هذا الثالوث إعلان السبب الحقيقي أو الاقتصار على منع الروايات المتعلقة بعلي لأن ذلك يكشف حقيقة دوافعهم، ويثير ضدهم الكثير من الاحتجاجات.. لقد كان هناك مخطط بعيد المدى يهدف إلى طمس سيرة علي وإبعاد الأمة عنه نهائيًا.. لكنهم كانوا أيضًا يريدون إخفاء أقوال النبي التي كانت تفضح حقيقة الكثير من القرشيين في حياته وبعد وفاته.. وثمة سبب آخر وهو أن منع الحديث يُسهّل التدخل في الأحكام والمفاهيم الإسلامية من أجل تغييرها بالطريقة التي تعجب أولئك الحكام، كما يسمح لهم بإخضاع القرآن للتأويل بما يخدم أهدافهم.

إن منع تداول الحديث وتدوينه لا يعني شيئًا سوى ضرب المصدر الثاني للثقافة الإسلامية، ثم فتح الباب واسعًا بعد ذلك أمام كل الوضاعين والكذابين للتقوّل على النبي.. وهو ما يعني إيقاع ما يشبه الشلل النصفي بالإسلام وتشويه مفاهيمه وأحكامه ومبادئه.. إن هذا المنع كان لابد أن يترك تأثيراته السلبية العميقة في ثقافة الناس الذين أصبحوا لا يفهمون القرآن الكريم في أحكامه وقيمه ومفاهيمه على نحو سليم[1]. بل إن ذلك دفع الكثيرين للجوء إلى الشعر بوصفه متنفسًا ثقافيًا، أو الرجوع إلى رجال الدين اليهود أو النصارى من أجل تفسير هذه الآية أو تلك، أو من أجل معرفة قصة هذا النبي أو ذاك، لتنطلق من هناك حركة وضع واسعة أدخلت الكثير من عقائد التجسيم والجبر والشرك في الإسلام.

إننا نجد مثلًا أن كعب الأحبار الذي جاء إلى المدينة في عهد عمر، وكان من أحبار اليهود، يتحول إلى مرجع يفتي للكثيرين، كان يجالس الصحابة ويحدثهم عن الكتب الإسرائيلية ويروي لهم الأساطير والخرافات العجائبية، وكان تركيزه في أحاديثه، التي نجدها بكثرة في كتب الحديث، على فكرة التجسيم ورؤية الذات الإلهية وعقيدة الجبر.. وهي الأفكار التي سيتبنّاها لاحقًا الحشويون والسلفيون والأشاعرة. ولم يكن كعب الأحبار وحده الذي حظي برعاية السلطة آنذاك وتشجيعها بل كان هناك آخرون مثل وهب بن منبه اليماني وتميم بن أوس الداري وابن جريح الرومي.. الذين جاءوا بعد كعب الأحبار[2].

---

(1) يصف الإمام علي تلك المرحلة بقوله: «.. فيا عجبًا بينا هو يستقيلها في حياته [لأن أبا بكر كان يقول: أقيلوني بيعتي فلست بخيركم] إذ عقدها لآخر [وهو عمر] بعد وفاته. لشد ما تشطرا ضرعيها، فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلون واعتراض..» **نهج البلاغة**، ج1، خ3.

(2) انظر مثلًا: الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ج 1، ص 52. **حلية الأولياء**، ج 2، ص 20. **وشرح نهج البلاغة**، ج 3، ص237. وتنبغي الإشارة هنا إلى أن عمر بن الخطاب كان مهتمًا بقراءة التوراة ودراستها وهو ما كان يزعج الرسول ﷺ ويغضبه بشدة، وفي المقابل لم يكن عمر يؤمن بأن كل ما يقوله النبي ﷺ أو يفعله صحيح رغم تأكيد القرآن أن النبي =

وعلى هذا النحو سوف تضيع الثقافة الإسلامية الحقيقية لتعود بقوة قيم البداوة وثقافة الجاهلية وأساطير التوراة.. وهذا ما دفع الإمام علي عندما وصل إلى السلطة إلى مخاطبة الناس بقوله: «لقد أصبحتم بعد إسلامكم أعرابًا لا تعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه». وكان يعجب لحال الناس الذين استحكم جهلهم وضلالهم ويقول: «.. فيا عجبي، ومالي لا أعجب، من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها. لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب. يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات. المعروف عندهم ما عرفوا، والمنكر ما أنكروا. مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم كأن كل امرئ منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات وأسباب محكمات»[1]. لقد سقطت الأمة في مستنقعات الجهل والتيه بعد أن استطاع ثالوث السقيفة الاستيلاء على السلطة ونجح أبو بكر في قمع تمرد القبائل.

تمرد القبائل

لم يكن تمرد القبائل العربية على سلطة المركز في المدينة يعكس حقيقة واحدة، بل إن أسباب ذلك التمرد كانت متعددة. لا شك أن بعض القبائل العربية كانت تدرك علاقتها بمركز الدولة باعتبارها رابطة شخصية مع النبي ﷺ، وهي لذلك سارعت إلى نقض اتفاقاتها عند وفاته ﷺ. فهذه القبائل كانت تفتقر إلى الوعي المؤسساتي، ولم تكن تدرك أن ارتباطها بالنبي، كان ارتباطًا بصفته السياسية فضلًا عن صفته الدينية، لم تفهم أنها كانت مرتبطة بدين ودولة وليس بشخص.

= لا ينطق عن الهوى وأنه لا يفعل إلا الصواب، فقد اعترض عليه في أكثر من موقف كما حدث في صلح الحديبية والصلاة على جنازة ابن أبي سلول وتنفيذ جيش أسامة وكتابة وصيته.. وعمر أيضًا هو الذي نهى عبد الله بن عمرو بن العاص عن كتابة الحديث وقال له إن النبي يغضب!.. انظر: **كنز العمال**، ج2، 353. والسيوطي، **الدر المنثور**، ج5، ص148. وأحمد ابن حنبل، **المسند**، ج3، ص469.

(1) الإمام علي، **نهج البلاغة**، ج1، خ88.

غير أنه من ناحية أخرى، لم تكن بعض القبائل الأخرى ترى شرعية للخليفة الجديد. وهي لذلك امتنعت عن دفع الزكاة إليه لتوزعها بنفسها على فقرائها. لقد كان الانقسام حادًا في المدينة حول شخص الخليفة. غير أن التطورات اللاحقة جعلت الجميع يقبل الأمر الواقع في المدينة، وهو ما لم يكن ينطبق على القبائل العربية التي كانت موزعة في جزيرة العرب.

ورغم أن النبي لم يفرض حُكّامًا على أغلب تلك القبائل من خارجها، واكتفى بإرسال مبعوثيه لتعليم الناس أحكام الدين، واستلام أموال الزكاة، إلا أن تلك القبائل وجدت في وفاة النبي فرصة لإعلان تمردها على الخليفة الجديد.

من الممكن أن تكون بعض تلك القبائل قد شعرت بفقدانها لاستقلاليتها، وتبعيتها للسلطة المركزية في المدينة فقررت التمرد. لكن الذي لاشك فيه أن البعض الآخر رفض دفع الزكاة لإيمانه بعدم مشروعية سلطة أبي بكر. كما أنه من المؤكد أيضًا أن قبائل أخرى ارتدت فعلًا عن الإسلام بعد أن وجد بعض مدعي النبوة الفرصة سانحة لتسويق أنفسهم.

وعلى هذا الأساس يمكن التمييز بين ثلاثة أصناف من المتمردين: الصنف الأول هم الانفصاليون والثاني هم المحتجون والثالث هم المرتدون.

1 ـ الانفصاليون

لم تخف بعض القبائل الكبيرة طموحها في الانفصال، واسترجاع استقلالها القديم والتخفف من الضرائب التي أصبحت مجبرة على دفعها. نجد ذلك مثلًا لدى بني ربيعة في البحرين الذين قرروا الانفصال وقالوا: «نرد الملك في المنذر بن النعمان بن المنذر» وقد فعلوا ذلك وعادوا ليملّكوه عليهم[1]. لقد دخلت هذه القبائل في الإسلام ولم تكن مكرهة على ذلك، غير أن انقسام المسلمين في المدينة، ربما شجع هذه القبائل على إعلان تمردها وانفصالها.

(1) **الطبري، تاريخ الأمم والملوك**، ج 2، ص 286. وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج2، ص 249.

لقد كان من الممكن الدخول مع هذه القبائل في مفاوضات من أجل إقناعها بالعودة عن قرارها من خلال التعهد لها بضمان حقوقها.. لكن أبا بكر لم يميز بين دوافع القبائل المختلفة وعاملها جميعًا بالطريقة نفسها.. كانت هذه القبائل تخاف استبداد قريش بالسلطة وتعرضها للاستبعاد والتهميش.. وكان الأجدر بالحكام الجدد أن يقدموا التطمينات اللازمة لهذه القبائل من أجل إدماجها في مؤسسات الدولة المركزية.

لقد امتنعت هذه القبائل عن دفع الزكاة فحسب، ولم ترتد عن الإسلام وهو ما يعني أن تمردها كان له بعد سياسي ولم تكن له قط أية أبعاد دينية.

2 ـ المحتجون

كان المحتجون يدركون أن الدولة الإسلامية الناشئة مؤسسة كبرى، وأن علاقتهم بالنبي لم تكن فقط علاقة روحية وشخصية. كانوا يفهمون أن هذه العلاقة هي علاقة بمؤسسة وكيان لا يؤثر في وجوده تغيير القيادة. لم تكن مشكلتهم مع الدولة أو مع الدين، ولكنها كانت مشكلة مع شخص اعتبروا أنه استولى على السلطة بطريقة غير مشروعة. وقد عبرت قبائل أسد وفزارة عن هذا الموقف بقولها: «والله لا نبايع أبا فصيل» وأرادت بعض القبائل مثل غطفان وطي وأسد التفاوض مع أبي بكر من أجل وضع اتفاقات جديدة لأنهم كانوا يرون أن الاتفاقات القديمة قد انتهت بوفاة النبي ﷺ.

لم يكن احتجاج هذه القبائل على شيء من أحكام الإسلام، بل كانوا يحتجون فقط على عدم مشروعية السلطة ويطالبون بحقهم في المشاركة السياسية، ومما يؤيد هذا الاتجاه الوفود التي أرسلتها بعض قبائل الجزيرة إلى المدينة للتفاوض مع الخليفة حول مستقبل العلاقة بين المركز والأطراف. وهو الأمر الذي فعلته القبائل النجدية.

وكان لافتًا أن يقود حركة احتجاج بني تميم مالك بن نويرة من قبيلة حنظلة وكبير بني يربوع، وهو من كبار الصحابة وأحد النقباء الإثني عشر وقد اعتمده النبي لجمع صدقات قومه. كان مالك رجلًا مؤمنًا، لم يعرف عنه سوى الالتزام والدفاع عن الدين بكل ما يملك.. كان محسوبًا على علي، وهو ما

يفسر حقد خالد عليه والجريمة الحمراء التي ارتكبها في حقه. لم يترك مالك الإسلام قط، ولكنه قرر جمع أموال الزكاة وتوزيعها على فقراء قومه، وهو ما لم يعجب أبا بكر فبعث إليه خالد بن الوليد الذي قتله غدرًا ثم اغتصب أرملته دون أن يراعي شعور امرأة منكوبة في زوجها.

3 ـ المرتدون

كانت ادعاءات النبوة حاضرة في حياة النبي ﷺ غير أنه لم يتعامل معها بالطريقة التي سيختارها أبو بكر. كان مسيلمة أحد زعماء قبيلة حنيفة من بكر بن وائل قد بدأ ادعاءاته بالنبوة في حياة النبي. وبعد وفاته تزوج سجاح التميمية المدعية الأخرى للنبوة، فانضم إليه التميميون في اليمامة. وكان أيضًا طليحة بن خويلد وهو كاهن من بني أسد ادعى النبوة في حياة النبي ﷺ وتبعته حينها أسد وطي، وبعد مبايعة أبي بكر انضمت إليه قبائل غطفان وهوازن.

أما في اليمن، فقد ادعى الأسود العنسي النبوة في حياة النبي هو الآخر، فاستجاب له بنو مذحج. وكان آنذاك قد سيطر على نجران وأخرج عامليهما خالد بن سعيد وعمرو بن حزم عن سلطة النبي ﷺ ثم استولى على صنعاء، وعندما علم النبي بذلك أمر بقتاله حتى قُتل.. وبعد وفاة النبي، أعلن قيس بن عبد يغوث المكشوح، الذي كان على جيش المسلمين الذين قاتلوا الأسود، خروجه على الإسلام واحتلال صنعاء التي اتخذها مقرًا له.. حسدًا لفيروز رئيس الأبناء ـ أبناء الفرس من أمهات يمنيات وهم الذين كانوا يعيشون في اليمن ـ وكان قد جعله أبو بكر واليًا على صنعاء. بدأ المكشوح بتهجير الأبناء في اليمن إلى فارس، وكتب إلى زعماء القبائل: «إن الأبناء نزّاع في بلادكم ونقلاء فيكم وإن تتركوهم لن يُزالوا عليكم»[1]. ثم انضم إليه أتباع الأسود العنسي.

هذه الأصناف الثلاثة من المتمردين كان لابد من التعامل معها بطرائق مختلفة ذلك أنّها تختلف في المنطلقات كما تختلف في الأهداف. وكان من الضروري تقديم الحوار معها، لا غَلْق الأبواب أمامها واللجوء إلى العنف

(1) **الطبري، تاريخ الأمم والملوك**، ج 2، ص 296.

ضدها.. إن خيار العنف هو الذي جعل مجموعة كبيرة من الصحابة تعترض على مقاتلة الانفصاليين والمحتجين على نحو خاص مثل علي وعمر وأبي عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة الثقفي والزبير وطلحة وعبد الرحمن[1].

فهؤلاء الصحابة كانوا يميزون بين هذه الفئات المختلفة.. لكن أبا بكر اختار الانفراد برأيه، وقرر مقاتلة الجميع دون تمييز. وليس صحيحًا أن هذه الأحداث كانت تحتاج إلى سرعة الحسم؛ لأن القضية كان يمكن أن تحل على أساس التفاوض حتى وإن احتاج إلى زمن أطول.. فقد رأينا كيف أن النبي كان يقدم الحوار والتفاوض قبل الإقدام على أي صدام مسلح.. ونجاح أبي بكر في إخماد التمرد لا يشفع له؛ لأن بعض أولئك المتمردين كانت لهم مطالبهم المحقة التي كان من المفترض أن تُلبّى، لا أن يتم تقتيلهم بأساليب بشعة وغير مشروعة في أحيان كثيرة.

لقد أسس أبو بكر بتصرفه هذا تجاه المتمردين والمحتجين، سنة القمع والاستخدام المفرط وغير المشروع للقوة ضد المعارضين سواء كانوا محقين أو مخطئين، فهذا الحل الأمني هو ما سيلجأ إليه لاحقًا الأمويون والعباسيون وبقية الحكام بأساليب قاسية.. لقد أوصى أبو بكر قادة جيوشه الذين حاربوا المتمردين بممارسة القتل بأبشع الطرائق ضد كل من لا يستجيب لهم. كان يقول لهم: «وإني بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحًا، قبله وأعانه عليه، ومن أبى، أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري..»[2].

فهو إذن يطلب استسلامًا كاملًا، دون تفاوض، أو مواجهة إبادة جماعية تستخدم فيها أسوأ الوسائل.. وعلى هذا النحو سترتكب مذابح شنيعة خارج المدينة قتلًا بالسلاح، وتنكيسًا في الآبار، وإلقاء من الجبال العالية، وحرقًا

(1) الياس شوفاني، **حروب الردة**، ص 86.

(2) **تاريخ الطبري**، م س، ج 3، ص 249.

بالنار، وتمثيلًا بالجثث، وسبيًا للنساء. لقد وجد الكثيرون في ذلك فرصة للتنفيس عن أحقادهم، وخدمة أهدافهم.

كان أبو بكر موصوفًا بالضعف والتردد واللين، ويبدو أنّه وجّه أوامره هذه إلى قادة جنده من أجل أن يُظهر نفسه بمظهر القوي والحازم والشديد. لقد أراد الرجل أن يثبت جدارته بمنصب الخلافة، وأن خلافته لم تكن فلتة كما وصفها عمر.

إن هذا يعني أن فقدان الحاكم للمشروعية اللازمة، ونقص الكفاءة لديه، يدفعانه في أغلب الأحيان إلى ممارسة ألوان من القسوة والقهر والظلم ضد الناس من أجل فرض نفسه عليهم.. وهذا ما يفسر رفض أبي بكر محاسبة قادته الذين سقطوا في ممارسات لا إنسانية كما هي حالة خالد بن الوليد الذي قتل مالك بن نويرة ثم جعل رأسه بين حجرين وطبخ على الثلاثة قدرًا أكل منها[1]، ثم اغتصب امرأته التي كانت رائعة الجمال غير مبالٍ بما أصابها.. لقد ألح عمر على أبي بكر من أجل محاسبة خالد، غير أن أبا بكر رفض إلحاحه، تمامًا كما رفض من قبل اعتراضه على قتال مسلمين «يقولون لا إله إلا الله»[2]. ونهره حينها بعنف: «أجبار في الجاهلية خوّار في الإسلام» من أجل إسكاته.

كان وصول أبي بكر إلى السلطة دون مشورة المسلمين، وهو اليوم يتصرف بشكل منفرد بعيدًا عن مشورة أصحاب الرأي من الصحابة، مؤسسًا بذلك حكمًا استبداديًا مطلقًا سيصبح منهجًا للممارسة السياسية.. سيكون العنف هو الوسيلة لفرض الآراء الخاصة.. وسيتم إلباس ذلك كله لباسًا دينيًا ليتم تقديم الإسلام على مستوى العالم كله بوصفه دين عنف واستبداد ليس فقط تجاه الآخرين، بل أيضًا بين المسلمين أنفسهم.

مشاهد قاسية

في حروب التمرد، التي أشرف عليها أبو بكر، ارتكب خالد فظائع في

(1) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج5، ص 295.

(2) **تاريخ اليعقوبي**، ج 22، ص 18.

حق القبائل، احتج عليها كثير من الصحابة، وطالب عمر حينها بمحاكمته. وقبيل معركة «أليس» على نهر الفرات في العراق الأوسط خطب خالد فقال: «اللهم لك علي أن منحتنا أكتافهم، أن لا أستبقي منهم أحدًا أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم». وعندما تحقق له ما أراد لم يتردد في تنفيذ وعيده عندما «أقبلت الخيول بهم أفواجًا يُساقون سوقًا، وقد وكّل بهم رجالًا يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يومًا وليلة ويطلبهم في الغد ومن بعد الغد، وكلما حضر منهم أحد ضربت عنقه في النهر وقد صرف ماء النهر إلى موضع آخر، فقال بعض الأمراء: إن النهر لا يجري بدمائهم حتى ترسل الماء على الدم فيجري معه فتبر بيمينك، فأرسله فسال النهر دمًا عبيطًا فلذلك سمي نهر الدم إلى اليوم، فدارت الطواحين بذلك الماء المختلط بالدم العبيط ما كفى العسكر بكماله ثلاثة أيام وبلغ عدد القتلى سبعين ألفًا»[1].

لاشك أن هذه كلها كانت ممارسات دموية فظيعة يرفضها الإسلام الذي يحرم قتل الأسرى والمسالمين والمدنيين، ولا يمكن للخليفة أن يقبلها.. لكن في المقابل، لابد من القول إن عمر كان يرغب في تركيز السلطة في يده كما أعلن في بداية عهده، كما أنه لم يكن على توافق مع خالد، إذ كانت بينهما مشاحنات في الجاهلية. وربما كان هذا هو الدافع الأهم لعزله.

ومن اللافت أن عمر الذي كان معروفًا بقسوته، سيبدي بعض المرونة في قضايا مختلفة بعكس أبي بكر الذي كان معروفًا بليونته، لكنه أبدى الكثير من القسوة في مواقع متعددة. فقد رفض عمر مثلًا التعامل مع المتمردين بالطريقة التي اختارها أبو بكر. وعندما تمردت بعض القبائل بعد موت أبي بكر وامتنعت عن دفع الزكاة، اختار عمر الأساليب الدبلوماسية وعمل على إجراء مصالحات شاملة مع القبائل، ولم يلجأ إلى القوة إلا في حدود ضيقة. كما أن عمر رد السبايا وأعاد الأسرى الذين أخذوا في عهد أبي بكر إلى قبائلهم رغم أن نزعته الشوفينية هي التي كانت الدافع الأساسي لذلك القرار بما أن عمر كان يفضل العرب على غيرهم بقطع النظر عن مسألة الدين. وكان عمر أيضًا حريصًا على

(1) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 99.

الإشراف بنفسه على الفتوحات وكان يوصي الجيوش بما كان يوصي به النبي ﷺ من الامتناع عن قتل الأطفال والشيوخ والعبّاد والنساء، والتمثيل بالقتلى، وتخريب المزارع والبساتين.

ومع ذلك لم تخل معارك الفتح من مشاهد قاسية وأرقام مفجعة، فنجد في وقعة الفرائض على التخوم بين الشام والعراق والجزيرة، أن جيش المسلمين قتل نحو مائة ألف من الروم قبل أن يأمر خالد بالرجوع إلى الحيرة بعد أن أقام في الفرائض عشرة أيام. كما قُتل في واقعة واحدة من معارك اليرموك نحو مائة وعشرين ألفًا من الروم كما يذكر ابن كثير[1].

حركة الفتوحات

بمجرد انتهاء أبي بكر من قمع التمرد الواسع ضد سلطته، وجه جيوشه نحو العراق والشام. كانت الغنائم كبيرة بعد الانتصار على المتمردين، وكانت الشهية مفتوحة لمزيد من الغنائم. وقد وجد أبو بكر في أوامر النبي بإنفاذ جيش أسامة، وهي الأوامر التي كان هو وعمر قد رفضا تنفيذها في حينه، وجد فيها عاملًا مساعدًا لاستنفار أكبر عدد من المسلمين للانضمام إلى جيوش الفتح.

كانت الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية تترنحان بعد أن أنهكتهما الحروب، وكان ذلك عامل دفع قويًا للمسلمين للانطلاق نحو أوسع مدى. وكما هي طبيعة الأنظمة المتداعية، فإن رعايا الإمبراطوريتين كانت تعاني اضطهاد الحكام، وإرهاق الضرائب المسلطة عليهم، وكانت آمال الناس متجهة نحو المسلمين من أجل إنقاذهم من حالات البؤس والفقر والقهر التي تردوا فيها. إن هذا هو ما يفسر سرعة استسلام الكثير من المدن وعدم مقاومتها للجيوش الفاتحة.

لقد اجتمع عاملا الطمع في الغنائم والطمع في الآخرة لدى المسلمين الذين كان بينهم الانتهازي الذي لا يرى غير مصالحه المادية، والتقي الذي يرى في الجهاد بابًا من أبواب الجنة.. وليس غريبًا أن نجد بعد ذلك أبا هريرة

(1) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج6، ص 317 - 323.

يخاطب الناس: «ألا ترون ما هاهنا من الأطعمات؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء إلى الإسلام، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقاتل على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه مما أثاقل عما أنتم عليه»[1].

لم يتخل أبو بكر عن قادة الجيوش الذين قمعوا حركة التمرد، بل إنه واصل الاعتماد عليهم، وأضاف إليهم يزيد بن أبي سفيان الذي استلم قيادة أحد الفيالق واصطحب معه أخاه معاوية وأباه أبا سفيان بن حرب الذي كان يخطب عند كل صلاة ويروي الخرافات والقصص العجائبية.

بدأت حركة الفتوحات بالتوجه إلى الحيرة عاصمة اللخميين في العراق، وقاد الحملة المثنى بن حارثة الشيباني من قبيلة بكر بن وائل الذي انضم إلى المسلمين، واستطاع أن يبلغ بجيشه بسرعة كبيرة مشارف «المدائن» عاصمة الفرس القديمة ممهدًا بذلك الطريق أمام خالد بن الوليد وجيشه لاستكمال فتح العراق.. كان جيش خالد يضم عناصر من مضر وربيعة ممن لم يتمرد على سلطة أبي بكر، وتحرك نحو العراق لدعم قائد شيبان المثنى بن حارثة، فكان ذلك أول احتكاك بقوات الإمبراطورية الساسانية انتهى بإخضاع بعض مدن العراق. كانت حركة خالد تستهدف بالأساس عرب الضاحية، الذين كانوا خاضعين للساسانيين في الحيرة ودومة والأنبار.

وفي اتجاه الشمال، كان النبي ﷺ قد بدأ في حياته بالتفكير في فتح الشام في معارك مؤتة وتبوك، وقبل وفاته جهز جيشًا جعل على رأسه أسامة بن زيد وكان يدفع نحو إنفاذه وهو في مرض موته. ومع استئناف التوجه نحو الشام تولى خالد بن سعيد بن العاص قيادة اللواء الأول وتحرك باتجاه تيماء، وتولى عمرو بن العاص قيادة اللواء الثاني الذي تحرك نحو فلسطين عن طريق الساحل الشرقي للبحر الأحمر بعد إخضاع قبائل قضاعة. وقاد شرحبيل بن حسنة ويزيد ابن أبي سفيان اللواءين الثالث والرابع، وسار الاثنان عبر البلقاء في الأردن. ثم أرسل للنجدة جيشًا آخر من المتطوعين الجدد للقتال بقيادة أبي عبيدة بن

(1) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج6، ص 317.

الجراح الذي أسندت إليه أيضًا مهام إدارية في المناطق المفتوحة. وعلى هذا النحو سيجتمع 24 ألف مقاتل أو 27 ألفًا حسب الطبري[1].

وقد شغل العدد الأكبر من المقاتلين في سورية البيوت التي أخلاها أصحابها في المدن الرئيسية بعد أن فشل تجميع المقاتلين في منطقة واحدة هي الجابية، وتم اللجوء إلى توزيعهم في فلسطين والأردن ودمشق وحمص. كانوا من قبائل يمنية مختلفة مثل سكون وحِمْير وعكّ ومذحج، وكذلك من قبائل قيس الحجازية وقبائل قضاعة المستقرة في سورية منذ زمن بعيد كما هي كلب وبَلي، وجُذام وبهراء وغسّان[2].

أما مقاتلو العراق، فقد جرى تجميعهم في معسكرات جديدة بنيت في الكوفة والبصرة. فاستوطن مقاتلو القادسية وجلولاء في الكوفة بينما استقر المهاجرون القادمون من البحرين في البصرة. وقد كان المستوطنون الجدد في الكوفة خليطًا من قبائل الجزيرة العربية وقبائل اليمن كما هي كندة وهمدان ومذحج.

أما خالد بن الوليد فقد عبر الصحراء السورية بسرعة كبيرة عن طريق تدمر ليواجه الروم البيزنطيين في أجنادين سنة 13هـ مدعومًا بجيوش الشام، وليحقق نصرًا كبيرًا سيكون حاسمًا في ترجيح كفة المسلمين. ولم يلبث أبو بكر أن مات بعد هذا الانتصار ليستكمل الخليفة الجديد حركة الفتح.

لم يكن عمر بن الخطاب يقبل قيادة خالد بن الوليد الذي كان يريد أن يستقل بإدارة جيشه. وكان أول قرار اتخذه عمر هو رفض استقلالية خالد في إدارة جيشه، وهو لأجل ذلك كتب إلى عبيدة بن الجراح ليعلمه بقرار العزل ويطلب منه أن ينزع له عمامته! وأن يقاسمه ماله نصفين!.. وقد نقل الطبري أن أول ما تكلم به عمر بعد استخلافه ذكره لخالد قائلًا: «لا يلي على ما هو عليه»[3].

---

(1) **الطبري**، ج 3، ص 392.

(2) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 138.

(3) **الطبري**، **تاريخ الملوك**، ج 3، ص 436.

لكن أبا عبيدة سيعمد إلى تأجيل الأمر والدخول في مفاوضات مع أعيان دمشق، فعقد معهم صلحًا وأعطاهم الأمان، لكن خالدًا كان يدخل من جهة أخرى سرًّا دون أن يعلم بالصلح الذي عقده أبو عبيدة.. وعندما التقى الرجلان في المدينة، نشب الخلاف بينهما، فأصر خالد على اعتبار أن المدينة فتحت عنوة بينما أكد أبو عبيدة أنها فتحت صلحًا، وهنا تدخل كبار الصحابة الذين كانوا موجودين بين المقاتلين لترجيح موقف أبي عبيدة.

ولم يكتف عمر بعزل خالد، بل إنه عمد إلى محاكمته على ما كان يهب من جوائز للشعراء على طريقة قريش القديمة. وربما ساهم هذا الموقف في ابتعاد الشعراء عن عمر ومنهم حسان بن ثابت الذي نكص نحو الارستقراطية القرشية. لكن الذي لاشك فيه هو أن موقف عمر كانت له دلالاته السياسية. لقد كان خالد قائدًا عسكريًا فذًا، لا شك في ذلك. ولكنه كان خارج أية ضوابط إسلامية، وقد سبق له أن قتل أشخاصًا مسالمين وأسرى في غزوة حنين مما اضطر النبي حينها إلى التبرؤ من ممارساته ودفعِ فدية مجزية إلى أولياء القتلى.

وبقطع النظر عن تلك القسوة البالغة التي ميزت تلك المعارك، فإن تلك الفتوحات عكست جرأة استثنائية من المسلمين تجاه أعظم إمبراطوريتين في تلك المرحلة، فضلًا عن كونها حدثت بسرعة خارقة لم تتجاوز سنوات معدودة فتحت خلالها الشام والعراق ومصر وإفريقية وفارس.

ولم يلبث المسلمون أن فتحوا دمشق في السنة 14هـ بعد حصار دام أشهرًا. ثم قاد يزيد بن أبي سفيان قسمًا من الجيش نحو بيروت وصيدا وبنت جبيل، بينما اتجه قسم آخر من الجيش نحو فلسطين والأردن عند «سهل الياقوصة» لمواجهة الجيش البيزنطي.

لكن القوات المسلمة اضطرت إلى معاودة فتح دمشق التي تمردت لتتجه من ثم شمالًا نحو حمص وقنسرين وحلب ثم منبج وأنطاكية سنة 19 هـ، ثمّ الرها ونصيبين فمدن الجزيرة لتتصل بذلك فتوح الشام بفتوح العراق. وقد توزعت قيادة الجيوش التي اتجهت جنوبًا، بين عمر بن العاص وشرحبيل بن

حسنة ومعاوية بن أبي سفيان، وانضم إليهم الفضل بن العباس وعياض بن غنم الفهري. وبعد الانتهاء من فتح الشام حضر عمر بنفسه ليعقد صلح القدس في أواخر السنة الخامسة عشرة للهجرة.

ثم أرسل الخليفة سنة 18هـ/ 639م جيشًا بقيادة عمرو بن العاص نحو مصر، فسلك طريق العريش واستولى على منف، ثم تمكن من فتح الإسكندرية على مرحلتين وإنهاء السيطرة الرومانية على الأراضي المصرية.

وفي اتجاه العراق استكمل المسلمون فتوحاتهم التي توقفت عند حدود الجزيرة الفراتية في عهد أبي بكر. فبعث عمر أبا عبيدة بن مسعود ليشارك المثنى بن حارثة في مواجهة الجيش الفارسي عند «الخارق» لتتالى بعد ذلك انكسارات جيوش الفرس في «السقاطين» و«كسكر». ثم التحق جيش سعد بن أبي وقاص بأرض المعركة، واستطاع أن يحقق نصرًا كاسحًا في معركة القادسية. ويذكر الطبري أن عدد قتلى الفرس بلغ عشرة آلاف رجل في يوم واحد في هذه المعركة.

وقد فتح الانتصار على جيوش الفرس الطريق نحو إيران وبلاد السند انطلاقًا من قاعدتي الكوفة والبصرة، فقاد حذيفة بن اليمان جيشه نحو نهاوند سنة 21هـ / 642م، والأحنف بن قيس نحو خراسان، والمجاشع بن مسعود السلمي نحو أردشير، وعثمان بن العاص نحو أصطخر، وسارية بن زنيم الكناني نحو سجستان، والحكم بن عمير التغلبي نحو مكران[1].

وقد أعلنت الأراضي المفتوحة عنوة ملكية عامة وسُمِح لأهلها بالبقاء فيها مقابل جزية على الرؤوس وعلى خراج الأرض. أما الأراضي التي كانت تعود إلى الملك أو الارستقراطية الفارسية المقاتلة، والتي تسمى بـ «الصوافي» فأصبحت ملكية للدولة يديرها ممثلو الخليفة من المحاربين. وإذا كانت هناك أراضٍ قد فتحت صلحًا، أو أسلم أهلها عليها فإنها بقيت ملكية لأصحابها.. لقد كانت تلك مشورة علي التي أخذ بها عمر[2].

(1) أبو الحسن البلاذري، **فتوح البلدان**، صص 115 ـ 116.

(2) **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص151. **وفتوح البلدان**، ص371.

وعندما جاء عثمان حافظ على حركة الفتح، فتم غزو إفريقية سنة 27هـ/ 648م في فترة حكمه الأولى، ثم بدأت انطلاقًا من سنة 30 هـ الهجمات المنطلقة من الكوفة والبصرة في اتجاه خراسان وأذربيجان.

ورغم أن هذه الفتوحات لم تكن دائمًا ملتزمة بالأحكام الإسلامية حيث اخترقتها الكثير من الممارسات الخاطئة، إلا أنها أعطت الإسلام امتداده على أوسع رقعة جغرافية ممكنة، وحررت شعوبًا كثيرة عربية وغير عربية من احتلالات بغيضة كانت تعاني بسببها العبودية والإذلال والفقر.

لقد استطاع الإسلام أن يحول الشراسة البدوية التي كانت تميز عرب الجزيرة، إلى قوة فتح مدهشة من خلال حديثه المكثف عن ثواب المجاهدين والشهداء ليشحن بذلك الإنسان المسلم ويجعله يندفع بقوة في حركة الفتح. وهذه هي حالة المؤمنين الذين كانوا يحملون في قلوبهم وعقولهم رسالة الإسلام. أما عامة الناس، فإن ما كان يحركهم أكثر هو الغنائم الكبيرة التي كانت تفوق خيال ذلك الإنسان نفسه.

واستغل قادة تلك الجيوش اندفاع المسلمين، واستطاعوا تنظيم تلك الجيوش مستفيدين كثيرًا من الأساليب الحربية التي كان يتبعها النبي ﷺ، دون أن يعني ذلك غياب الإبداع الفكري والتنظيمي لديهم، فطوال قرنين من الزمان، استطاعت جيوش المسلمين أن تكوّن لنفسها هوية. وباستثناء معركة الجسر سنة 13 هـ، انتقلت تلك الجيوش من نصر إلى نصر.

لقد بدت تلك الفتوحات كما لو كانت وفاء من النبي ﷺ بوعده عندما كان يبشر بسيادة العرب، وكان يواجه بالسخرية والتكذيب. كانت الفتوحات دليلًا إضافيًا على نبوة محمد ﷺ وصدقه. فالله الذي أيده ووعده بالنصر لم يخلف وعده، وها هو يفي لنبيه في قبره.

ومن جهة أخرى كانت تلك الفتوحات سببًا مهمًا في هجرة عربية واسعة نحو الأقاليم المفتوحة، وستكون هذه الهجرة عاملًا حاسمًا في تعريب تلك الأقاليم وتحويلها نحو العربية. واللافت أن الشعوب السامية هي فقط التي تعربت، كما هي حالة أقاليم العراق والشام ومصر وإفريقية، وقد كان أهلها

يتحدثون الآرامية والسريانية والقبطية والأمازيغية.. أما الشعوب الآرية في إيران والسند وآسيا الوسطى وتركيا فقد بقيت على لغاتها الأصلية رغم أن هذه اللغات ستأخذ من العربية الكثير من مفرداتها ومصطلحاتها.. وبسبب تلك الهجرة الواسعة ستختلط الأعراق وتمتزج الثقافات بشكل كبير، وسيكون هناك، لاحقًا، علماء وفقهاء وفلاسفة من كل الأقاليم الإسلامية.

لكن المأزق، هو أن تلك الفتوحات لم تكن تملك توجهًا رساليًا واضحًا، فقد كان الكثير من قادة الجيوش والولاة من الطلقاء أو من الذين أسلموا بشكل متأخر، وهو ما يعني أنهم لم يكونوا مقتنعين تمامًا بإلهية الرسالة الإسلامية، ولم يكونوا يحملون ثقافة الإسلام وفكره بعمق. لقد استبعِد المؤمنون الأوائل، الذين كانوا يحملون ثقافة الإسلام بقوة، عن مواقع القيادة المهمة إذا ما استثنينا بعض الأفراد، استبعدوا بسبب مواقفهم السياسية.. ولا شك أن ذلك كان له تأثيره السلبي في شعوب البلاد المفتوحة، التي كانت تعلن التمرد مرة بعد أخرى لتُفتح في كل مرة من جديد كما حدث ذلك في الشام وخراسان وإفريقية.. كل ذلك بسبب استبداد الولاة وفسادهم في أغلب الأحيان.

صناعة الطبقية

كان النبي ﷺ يساوي بين الجميع في توزيع العطاء ـ وهو مقدار من المال كانت توزعه الدولة سنويًا على رعاياها ـ فكان المهاجر والأنصاري، ومن هاجر قبل الفتح ومن كان من الطلقاء، والعربي والأعجمي، والشريف والوضيع، والسيد والعبد.. كانوا جميعًا متساوين. وقد استمر أبو بكر في المنهج ذاته.

لكن عمر اختار مقياسًا آخر، وقرر توزيع العطاء بشكل متفاوت على أساس الأسبقية في الهجرة والقتال، ربما رغبة منه في التميّز حتى لو كان ذلك على حساب الناس. وهو لذلك اضطر إلى تأسيس ديوان للعطاء سنة 20هـ / 641م من أجل ضبط مراتب الأشخاص بحسب هذا المقياس.

وضع عمر بعض أرامل النبي القرشيات في المقام الأول، فكانت عائشة

وحفصة وأم حبيبة تتقاضى كل واحدة منهن 12 ألف درهم سنويًا. بينما كانت الأخريات يتقاضين أقل من نصف ذلك المبلغ. ثم يأتي بعد ذلك المهاجرون والأنصار الذين شاركوا في بدر، وكل منهم يتقاضى خمسة آلاف درهم. ثم المهاجرون إلى الحبشة والمشاركون في أحد يتقاضى كل منهم أربعة آلاف درهم. ثم المهاجرون إلى المدينة قبل فتح مكة، ولكل منهم ثلاثة آلاف درهم. وأخيرًا أبناء أهل بدر والداخلون في الإسلام في فتح مكة، وهم الطلقاء، يتقاضى كل منهم ألفي درهم[1].

أما في الأمصار الأخرى، فقد كانت سابقة المشاركة في معارك الفتح هي المعيار للتميز في العطاء، فكان أهل الأيام الذين شاركوا في الهجمات الأولى سنة 12 هـ مع خالد بن الوليد يتقاضون ثلاثة آلاف درهم. وتسمى هذه الفئة فئة شرف العطاء. وفي مرتبة أدنى نجد الذين شاركوا في معركتي القادسية واليرموك الذّين يأخذون ألفي درهم. أما الفئة الثالثة وهي الفئة السفلى فتضم الروادف أي المهاجرة اللاحقة. وهذه الفئة تنقسم بدورها إلى طبقات تتقاضى الأولى 1500 درهم، ثم الطبقة الثانية 1000 درهم، ثم الطبقة الثالثة 500 درهم، إلى أن يصل المبلغ إلى 250 درهمًا في الشام و300 أو 200 درهم في العراق[2]. وهؤلاء هم الذين لم يشاركوا في أية واقعة عسكرية تأسيسية، وهم الذين سيعانون عمليًا الفقر والفاقة والاستضعاف. ويتولى القيام على ديوان العطاء عمال الأمصار الذين يقبضون الخراج والجزية بواسطة موظفين عندهم، ثم يوزعونها على شكل عطاء. وقادة تجمعات الأسباع ثم العرفاء بدرجة أقل تعينهم الدولة ويتقاضى كل منهم 100 ألف درهم يوزعونها على المستحقين المتجانسين رتبيًا.

إن عمر بهذا التميز في توزيع العطاء يكرس حالة الفقر لدى هؤلاء الذين لم يشاركوا في الحروب لأنهم لم يكونوا يملكون حتى السلاح الذي يقاتلون به. وهو بذلك يفتح الباب واسعًا أمام ظهور طبقية اجتماعية حادة، ناقضًا على

(1) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 437.

(2) **الطبري**، ج 3، ص 604.

هذا النحو سيرة النبي في هذا المجال ومخالفًا روح القرآن الذي يجعل من الآخرة المكان الذي يثاب فيه أصحاب السابقة وليس هذه الدنيا.

إن عمر وهو ينشئ نظامًا هرميًا لتوزيع العطاء وفقًا للسابقة في الهجرة والقتال، إنما يخترع بذلك نظامًا لا علاقة له بالإسلام. وهو إذ يحد من دور الأرستقراطيات التقليدية، إلا أنه يصطنع أرستقراطيات جديدة ستلعب دورًا مخربًا بلا شك. إن الدولة التي كان من المفترض أن تلعب دور الحكم العادل، والضامن لمصالح جميع رعاياها، تحولت مع عمر إلى دولة محابية تعامل مواطنيها على أسس دينية وإثنية رفضها القرآن ولم يقرها النبي ﷺ.

لقد كان النبي يسوي بين الناس في العطاء. والتزم أبو بكر بسنة النبي في هذا المجال. ولأجل ذلك لم تظهر فروق اجتماعية كبيرة بين أغنياء وفقراء ولم يكن هناك تفاوت طبقي حاد.

غير أن عمر بن الخطاب سيفتتح عصورًا من التفاوت الاجتماعي الحاد الذي سيورث أحقادًا طبقية لا تنتهي، ستكون بدورها سببًا مهمًا في ظهور اضطرابات اجتماعية وسياسية حاسمة في تاريخ الإسلام. كان عهد عمر مجالًا لحركة فتوحات واسعة راكمت الثروات داخل الدولة الإسلامية كما لم يحدث من قبل، حتى أن عمر نفسه لم يصدق أبا هريرة حين أخبره أنه جاء يحمل 5000 درهم من البحرين.. كان رقمًا خياليًا بالنسبة إلى عمر ولم يصدق إلا عندما عاين المال.

لكن هذا المبلغ سيكون زهيدًا مقارنة بالثروات الضخمة التي سترد إلى مركز الدولة بعد فتوحات الشام والعراق التي كانت تعد بالملايين.

لقد قرر عمر توزيع المال بالتفاضل. ورغم المبررات التي يحاول البعض سوقها من أجل تبرير هذه السياسة على أساس أن المال المتوافر كان يتجاوز حدود المعاش وأن توزيعه بالتساوي يعني المساواة بين الناس في الفائض عن الضروري في حين أن مفهوم العدل آنذاك كان يعني «إنزال الناس منازلهم» على خلفية مفاهيم القبيلة والغنيمة[1]. رغم ذلك، فإن تراجع عمر نفسه عن هذا

(1) محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي**، م.س، ص 174.

الخيار في آخر حياته وعزمه على توزيع العطاء بالتساوي لو امتد به العمر إلى السنة التالية، يكفي أن يكون ردًا على مثل هذه التبريرات. لقد كان قرارًا خاطئًا لأن العدل في الإسلام يقوم على أساس مفهوم الحق وليس على أساس مفاهيم القبيلة والغنيمة التي يتحدث عنها محمد عابد الجابري.

إن هذه النزعة التبريرية لسلوك الخلفاء، مهما كان خاطئًا، تجد أساسها في النزعة التقديسية التي لا تزال تكبل العقول. وحتى أولئك الذين يدّعون الخروج على الإسلام في أبعاده السياسية، وخياراته الاجتماعية والاقتصادية، كما هي حالة الجابري، بسبب خلفيتهم العلمانية أو الوضعية، لا يزالون ينظرون بعين القداسة إلى هؤلاء الخلفاء، وحتى غيرهم من الصحابة.

وتروي المصادر التاريخية[1] أن عمر استشار بعض الصحابة فقال له علي تقسم ما اجتمع إليك من المال فلا تمسك شيئًا منه. وقال عثمان بن عفان: أرى مالًا كثيرًا يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر. وقال له الوليد بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جُلت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديوانًا، وجَنّدوا جُندًا فدوّن ديوانًا وجنّد جندًا. أعجب هذا الرأي عمر فأخذ به. وهو خيار يعكس ميلًا إلى متابعة ممارسات إمبراطورية قديمة. إن المسألة هنا ليست في الإفادة من خبرات الآخرين من خلال استحداث ديوان للعطاء، ولكنها تحديدًا في الأساس المعتمد لتوزيع المال، لقد كان بإمكان عمر الاكتفاء بالإفادة الإدارية من البيزنطيين والفرس، والالتزام بالمقاييس الإسلامية في توزيع المال، لكنه لم يفعل.

ولن يكتفي عمر باعتماد مقاييس السابقة في الهجرة والقتال، بل إنه سيدخل أيضًا مقياس الانتماء القبلي في انتكاسة خطيرة نحو قيم الجاهلية. وهو لأجل ذلك سيعتمد على خبرة بعض النسّابين كمخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وعقيل بن أبي طالب. وتم البدء بقرابة الرسول ﷺ ثم الأقرب فالأقرب إلى أن تم تقسيم الناس إلى طبقات متعددة. وكانت المشكلة في المطابقة بين مقياس الانتماء القبلي ومقياس السابقة الدينية إذ لا يمكن المساواة بين الطلقاء

(1) **الطبري**، ج 2، ص 570.

والمهاجرين. وتم تجاوز هذه المشكلة بحل تلفيقي يعتمد السابقة في الإسلام حينًا والانتماء القبلي حينًا آخر. وعلى هذا النحو تمت مساواة أبي سفيان وابنه معاوية بأهل بدر فكان نصيب كل واحد 5000 درهم![1]. بل إن التمييز طال نساء النبي ﷺ، فأعطى عائشة وأم حبيبة وحفصة اثني عشر ألفًا لكل واحدة، بينما أعطى بقية الزوجات أقل من نصف هذا المبلغ فكان نصيب صفية وجويرية مثلًا 5000 لكل واحدة.

لقد كان قرار توزيع العطاء على أسس تفاضلية قرارًا خاطئًا، أدى إلى تكديس الثروة في أيدي مجموعة قليلة. وخلق فروق طبقية تزداد حدة كلما اتسع حجم الثروة المتأتية من الغنائم والخراج، ولم تنفع بعد ذلك الحلول الترقيعية التي ارتآها عمر مثل منع بعض الصحابة من مغادرة المدينة[2]، أو مقاسمة بعض عماله أموالهم التي كانت تتزايد على نحو سريع[3].

ولأجل ذلك لم يكن بوسع عمر إلا أن يعترف بخطئه الكبير فقرر العودة إلى سنّة النبي في أواخر عمره فكان يقول: «إني كنت تألفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض، وإن عشت هذه السنة ساويت بين الناس فلم أفضل أحمر على أسود ولا عربيًا على أعجمي وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر»[4].. لكن الموت لم يمهل عمر لتنفيذ ذلك ليأتي عثمان ويواصل سياسة المحاباة نفسها.

التخريب الاجتماعي

عندما جاء عثمان بن عفان إلى السلطة، ازدادت الأمور سوءًا، واتسعت

---

(1) اليعقوبي، ج 2، ص 106.

(2) ينقل الطبري في تاريخه، ج 2، ص 679: «لم يمت عمر [...] حتى ملته قريش، وكان قد حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد». لكن الواقع أن عمر كان يخاف على سلطته أكثر من أي شيء آخر.

(3) لقد كان هذا الإجراء إجراءً غريبًا بكل المقاييس لأن هذا المال الذي كان يقاسمه عمر عماله إذا كان ملكًا لهم فلا يجوز له مقاسمتهم، أما إذا كان مالًا عامًا استولوا عليه فلا بد من مصادرته كله وعزل الولاة الفاسدين ومحاسبتهم.

(4) **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، ص 107.

حدة التفاوت الاجتماعي بين أكثرية من الفقراء وقلة من الأغنياء. وإذا كان تقسيم عهد عثمان إلى ست سنوات هادئة وست أخرى مضطربة صحيح من الناحية العملية، فإنه لابد من الاعتراف أن ما حدث في السنوات الأخيرة لحكم عثمان لم يكن فقط نتيجة لسياساته المالية والاجتماعية الخاطئة، بل أيضًا نتيجة لسياسات عمر المماثلة.

كان بيت المال يغص بأموال الغنائم التي تكدست بسبب الفتوحات، كان هناك ذهب وفضة وأحجار كريمة وجواهر ثمينة وتحف نادرة وأقمشة فاخرة.. وكان ينبغي لهذه الغنائم أن تذهب إلى مستحقيها.. لكن عثمان قرر أن يستأثر بالمال، وأن يتصرف فيه كما لو كان ملكية خاصة، فكانت أكثر هذه الغنائم تذهب إلى بني أمية، عشيرة عثمان، وحلفائهم من الارستقراطية القرشية.

أما قادة الجند وولاة الأمصار الذين كانوا ـ في أغلبهم ـ من بني أمية وحلفائهم، فإنهم لم يوفروا الفرصة هم أيضًا. كانوا يجمعون مبالغ خيالية متأتية من أموال الغنائم وعائدات البلدان المفتوحة، ويشترون العبيد والجواري والمواشي بأعداد كبيرة، بينما تحول آخرون إلى تجار يبيعون ما استولوا عليه من أحجار كريمة وتحف وأقمشة بأرقام فلكية وأرباح فاحشة. كان من هؤلاء عمرو بن حريث المخزومي الذي أصبح أغنى أغنياء الكوفة بسبب هذه التجارة. ورغم أن مصدر هذه الثروات كان البلدان المفتوحة، إلا أن أكثر الناس ثراء كانوا موجودين بالمدينة. كانوا ينقلون هذه الأموال إلى المدينة كما هي حالة طلحة بن عبيد الله.

كان عمر حازمًا حتى وهو يميز بين الناس في العطاء. لكن عثمان كان شخصًا متهاونًا ومتعصبًا لعشيرته. كان يقول لو أنه كان يملك مفاتيح الجنة لأدخل إليها بني أمية جميعًا!. وهو لأجل ذلك حوّل منصبه إلى وسيلة لنهب ثروات الأمة لمصلحة بني أمية وحلفائهم. وعلى عكس عمر الذي كان متقشفًا، فإن عثمان كان يأخذ الأموال من بيت المال لنفسه ولعائلته ولمن يريد الإغداق عليهم. وكان أحيانًا يقترض من بيت المال دون أن يرجع ما اقترضه دائمًا.

وعلى هذا النحو ظهرت بين الأمويين والارستقراطية القرشية ثروات

ضخمة كان مصدرها بيت المال الذي فتحه عثمان أمامهم. إن الفرق كبير هنا بين ما كان موجودًا في عهد النبي وبين ما آلت إليه الأمور في عهد عثمان. لقد بنى عثمان بيتًا من الحجر والخشب الثمين. وبنى سبع دور أخرى بالمدينة. وبعد أن قُتل وجدوا عند خازنه 30 مليون و500 ألف درهم و150 ألف دينار، وترك ألف بعير في الربذة التي نفى إليها أبا ذر، كما ترك ضياعًا بوادي القرى وحنين بقيمة 100 ألف دينار، وصدقات بقيمة 10 آلاف دينار، وترك أيضًا خيلًا كثيرًا وإبلًا[1].

ربما كان عثمان غنيًا قبل الإسلام، غير أن تلك الثروة لا تساوي شيئًا أمام هذه الأرقام الفلكية التي تركها بعد قتله. إن عثمان، وهو يستبيح المال العام، يفتح الباب واسعًا أمام الحكام اللاحقين لتبرير فسادهم. والأسوأ أن يحاول عثمان شرعنة الفساد، عندما كان يطلب فتوى من كعب الأحبار تبرر له ممارساته.

لقد كانت قريش تريد عثمان خليفة بعد اغتيال عمر، وهي لذلك استبشرت عندما بايعه عبد الرحمن بن عوف. ورأت في ذلك انتصارًا لها، وبدأت تعمل منذ اللحظة الأولى على إسقاط ما تبقى من مراكز السلطة في يدها. لم تكن قريش مخطئة في تقديرها، فقد بدأ عثمان توزيع أعطياته السخية من بيت المال على أولئك الذين أوصلوه إلى السلطة فنال الزبير بن العوام 600 ألف درهم[2] ونال الآخرون 2000 ألف درهم لكل واحد منهم، بينما عيّن سعد بن أبي وقاص عاملًا على الكوفة يغرف من أموالها كما يشاء. كما ضاعف عطايا الأغنياء وقدم لهم الهبات المجزية من بيت المال، وصدقات القبائل وخمس المناطق. ورفع إلزامية دفع الزكاة على الأغنياء وجعله أمرًا اختياريًا.. أما الفقراء فقد تكرم عليهم ببعض الفتات ليشتري صمتهم.

وقد أعطى عثمان لمروان بن الحكم، ابن عمه الذي أعاده مع أبيه إلى

(1) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج 1، ص 32. المسعودي، **مروج الذهب**، ج 3، ص 76. إن الذين يبررون اليوم ممارسات عثمان، لا يحق لهم أبدًا انتقاد الحكام الذين لا يختلفون عن عثمان في هذا المستوى.

(2) **الطبقات الكبرى**، ج3، ص107.

المدينة، وكان النبي قد نفاهما، خمس غنائم أفريقية، عندما فتحت كلها، أي ما بين 100 و200 ألف دينار، فبنى دارًا في المدينة، وتحول في لحظة إلى رجل ثري بعد أن كان رجلًا فقيرًا. وكان في المرة الأولى قد أعطى ذلك لعبد الله بن أبي سرح[1]. ومنح عثمان أيضًا صدقات قضاعة لعمه الحكم وكانت تساوي 300 ألف درهم[2]، كما أعطى الحارث بن الحكم 300 ألف درهم وزيد بن ثابت 100 ألف درهم[3]. بينما أعطى أبا سفيان 200 ألف درهم[4].

كان عثمان يغدق على نفسه وأقاربه وحشمه كل هذه المبالغ بينما كانت أغلبية الناس تعيش الفقر والفاقة حيث كان عطاء الفئات الدنيا، وهم الأغلبية، لا يزيد عن 200 أو 300 درهم سنويًا.

هذه المبالغ الضخمة سوف تتكشف أكثر عندما سيموت أصحابها، فقد ترك طلحة عند قتله مليونين و200 ألف درهم و600 ألف دينار ذهبًا. وكانت ثروته تقدر بـ 30 مليون درهم، وكان يجني سنويًا من ضيعة «النشاشنج» في العراق ما بين 400 ألف و500 ألف درهم. وكان يرسل إلى عائشة بنت أبي بكر، قريبته، عشرة آلاف درهم سنويًا. وكان يملك دارًا في الكوفة وأخرى في المدينة مبنية من الجص والآجر والساج[5]. أما عبد الرحمن بن عوف بطل خدعة الشورى، فقد ترك بعد وفاته ألف جمل وثلاثة آلاف رأس غنم ومائة حصان، وأراضي سقوية شاسعة وسبائك ذهبية تُكسر بالفأس[6].

ويبدو أن الزبير كان أغنى الجميع إذ كانت ثروته تقدر بـ 35 أو 40 أو50 مليون درهم، وكان يتسلم ودائع وأمانات يقوم باستثمارها فيما يشبه بنك ودائع يمول من خلاله عملياته التجارية. وبعد وفاته توجب إرجاع مبلغ 2،2 مليون درهم. وكان الزبير يملك غابات وأراضي و11 دارًا في المدينة ودارين

(1) **الكامل في التاريخ**، ج2، ص237.
(2) **العقد الفريد**، ج3، ص291.
(3) **مروج الذهب**،ج2، ص342.
(4) **شرح نهج البلاغة**، ج1،ص199.
(5) **الطبقات الكبرى**، ج3، ص222. **ومروج الذهب**، ج3، ص77.
(6) **مروج الذهب**، ج2، ص77.

في البصرة ودارًا في الكوفة وأخرى في مصر. وكانت له حدائق في ضواحي المدينة وعقارات في الكوفة والفسطاط والإسكندرية[1]. أما خامس الجماعة، فهو سعد بن أبي وقاص، الذي كان الأقل ثراء بين أقرانه. ترك 250 ألف درهم ودارًا واسعة في العقيق[2].

كما نجد مجموعة أخرى من الصحابة غير القرشيين الذين جمعوا ثروات كبيرة. فزيد بن ثابت خلّف من الذهب والفضة ما كان يُكسّر بالفؤوس إضافة إلى أموال وضياع بقيمة 100 ألف دينار، وترك يعلى بن منية 500 ألف دينار وعقارات وديونًا على الناس بقيمة 300 ألف دينار[3].

وعلى هذا النحو، تناسى عثمان مسؤولياته، ليُغرق عشيرته والمقربين منه في أموال خيالية، بينما كان يعاني عامة الناس العوز والفقر. كان يبرر ممارساته بطريقة لا يقبلها عقل.. كان يقول إن أبا بكر وعمر منعا عشيرتيهما لوجه الله، وأنا أعطي عشيرتي لوجه الله!. ربما كان عثمان يتصور أنه بهذه الطريقة يحصن حكمه، غير أن الاستئثار والمحاباة لم يكونا يومًا وسيلة لتحقيق ذلك، فضلًا عن كونهما ممارسة مرفوضة تمامًا من الناحية الإسلامية.

كان عمر من قبل قد شطب الوجه المساواتي للإسلام، واخترع تراتبية طبقية قائمة على العنصر والدين في توزيع العطاء. وجاء عثمان من أجل أن يكرس ذلك ويعمقه لينتهي المجتمع كله إلى حالة من الطبقية الحادة، والاستئثار المالي، والظلم الاجتماعي.

ومن أجل إحكام الطوق على عامة الناس، والإيغال في الاستئثار، أطلق عثمان الصحابة الذين حبسهم عمر في المدينة. كان من بين هؤلاء الصحابة من كان معارضًا لعثمان والخط الذي ينتمي إليه، وكان من بينهم الانتهازي الذي لا تهمه إلا مصالحه.

---

(1) م ن، ج 3، ص 76.

(2) م ن، ص 77. **والطبقات الكبرى**، ج 3، ص 149.

(3) **مروج الذهب**،ج3، ص77.

سيستغل هذا الصنف الثاني وجاهاته من أجل مراكمة الأموال والتهافت على حياة الترف مما سيكون له أثره السلبي في أفكار الناس وثقافتهم، حيث أن القوة المالية ستمكنهم من ممارسة نفوذهم في التأثير في عقول الناس، والتحكم في القرار السياسي، والاستحواذ على المناصب.

لم يغير عثمان في سنته الأولى الولاة الذين عينهم عمر، لكنه وسّع لمعاوية حدود ولايته. ومع بداية السنة الثانية أقصى الولاة الذين لم يكونوا من بني أمية لتستأثر عشيرته بالمناصب المختلفة. وعلى هذا النحو أحاط عثمان نفسه ببني أمية، ليصبح الطلقاء هم الممسكين الفعليين بالسلطة.

ولم يتردد عثمان حتى في إعادة أولئك الذين نفاهم النبي خارج المدينة. فأعاد مروان بن الحكم ليجعل منه صاحب الأمر والنهي. ومع اتساع رقعة الفساد، كان الصحابة الآخرون، الذين أطلق عثمان سراحهم بعد أن كان عمر يحتجزهم في المدينة، يطلقون أصواتهم المستنكرة لممارسات عثمان وعشيرته كما هي حالة علي وأبي ذر وعمار وابن مسعود.. كانوا يريدون الإصلاح، لكن فئة أخرى، من الذين كانت لهم طموحاتهم السياسية أو أحقادهم الشخصية ضد عثمان، ستصبح في طليعة المحرضين عليه كما هي حالة طلحة والزبير وعمرو بن العاص وعائشة.

صرخة أبي ذر

بدأ عثمان ممارساته الخاطئة على نحو تصاعدي، كان الفساد المالي والإداري يتراكم كلما تقادمت خلافته، ومن الطبيعي ألا تظهر المطاعن على عثمان منذ البداية. لم تكن تلك المطاعن بسبب إشاعات مضخمة كانت تُتداول، بل إنها كانت تنطلق من واقع يحدث. فعثمان لم يكن بإمكانه إخفاء محاباته لعشيرته الأموية.

لم يكن عثمان حاكمًا إسلاميًا وهو يُحابي قرابته ويوزع عليهم المناصب والأموال دون أن يمتلكوا كفاءة المنصب ولا حق المال، ويقصي في المقابل أصحاب الكفاءات، ويضطهد خيرة الصحابة، ويحرم الناس من حقوقهم المالية. من البديهي أن يكون ذلك واقعًا يُنذر بمستقبل أسود للمؤمنين الحقيقيين

ما دام عثمان يصر على سياساته. سيرفع هؤلاء الصوت عاليًا أمام فساد السلطة وستنتشر في كل مكان صرخات أبي ذر وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر ومالك الأشتر وعامر بن قيس وكعب بن عبدة.

كان أبو ذر الغفاري، جندب بن جنادة، المنحدر من كنانة، مؤمنًا راسخًا، مُترفعًا عن عبادة الأصنام حتى في الجاهلية. كان رابع من أسلم أو خامسهم، آمن بالنبي ﷺ قبل أن يراه، وكان يملك من الصدق والشجاعة بحيث أعلن إسلامه أمام الملأ القرشي. كان شبيهًا في خَلقه وخُلقه بالمسيح كما وصفه النبي ﷺ. انتقل من البادية إلى المدينة، وبدأ معارضته لعثمان بعد أن رآه يعبث بأموال المسلمين. كان يتلو الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[1]. ضاق به عثمان ذرعًا وقرر نفيه إلى الشام حيث كان معاوية يتمرّغ هو الآخر في أموال المسلمين.. لكن صوت أبي ذر لم يخفت، كان يحدث الناس عن فساد الخليفة وجشع بني أمية.. وكان يتألم لحال الفقراء واستئثار الأغنياء الذين غمرهم عثمان بأعطياته وأعفاهم من دفع الزكاة. لكنه كان يقول: «عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه».

أما معاوية فكان يقول: «المال مال الله وقد جعلني خازنًا له أنفق منه كيف أشاء»[2].. لكن أبا ذر الخبير بحقيقة معاوية قال له إذا كان المال مال الله فأعطه للناس لأن ما كان لله فهو للناس. كان أبو ذر يحتج على إعفاء الأغنياء من دفع الزكاة، وكان يرى أن هؤلاء الأغنياء ليسوا مطالبين بدفع الزكاة فقط، بل هم أيضًا مطالبون بمساعدة الفقراء حتى تحقيق الاكتفاء لهم. كان على طرف نقيض من كعب الأحبار الذي كان يفتي لعثمان ويبرر له ممارساته[3].

كان أبو ذر يفهم أن معاوية وجماعته كانوا يتصرفون في أموال الناس دون وجه حق.. فمعاوية هذا كان يبدد الأموال في ملذاته ويسرف في

---

(1) سورة التوبة، الآية: 34.

(2) **الطبري**، ج4، ص283.

(3) **مروج الذهب**، ج2، ص348.

وضعها في غير مواضعها. وكان أبو ذر يتهمه بذلك، فهو الذي بنى قصر الخضراء في دمشق تشبهًا بأباطرة الروم. لم تكن لأبي ذر أية مطامع شخصية، كان هدفه إحياء المثل الإسلامية ولا شيء غير ذلك.. وهو لأجل ذلك رفض هبة من معاوية ومساعدة من حبيب بن مسلمة. لقد حاولوا رشوته لكنه لم يكن من تلك الطينة.

استطاع أبو ذر أن يجتذب إليه الفقراء، فقد كان يدافع عن مصالحهم، ويهاجم جشع الأغنياء.. وهذا ما أزعج معاوية، فأبعده إلى جبل عامل، لكن أبا ذر واصل نضاله ضد الفساد الأموي فشكاه معاوية إلى عثمان.

لقد أصبح أبو ذر يشكل خطرًا على معاوية الذي كان يتبنى إستراتيجية التجهيل ويمارس سياسة النهب. وبقاؤه في الشام سيخرب كل مشاريع حاكمها.. استجاب عثمان لطلب معاوية وطلب إرسال أبي ذر إلى المدينة على قتب [رحل صغير من الخشب على قدر سنام البعير] بغير وطاء [غطاء][1] إمعانًا في التنكيل به.

وعندما وصل أبو ذر إلى المدينة، كانت فخذاه قد تسلختا[2]. لكن ذلك لم يثنه عن مواصلة انتقاداته لعثمان. لقد كانت إجابة عثمان أنه «لا يجبرهم ـ أي الأغنياء ـ على الزهد». يقول ذلك بعد أن فتح بيت المال لقرابته وأصدقائه يأخذون منه ما يشاؤون.. كان أبو ذر يقول عن عثمان: «يستعمل الصبيان ويحمي الحمى ويقرب أولاد الطلقاء» وكان يقول سمعت رسول الله يقول: «إذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلًا اتخذوا بلاد الله دولًا [يتداولون أموالها]، وعباد الله خولًا [أي عبيدًا] ودين الله دغلًا [يخدعون به الناس]». وعندما سمع عثمان بذلك بعث إلى علي يطلب شهادته في ما قال أبو ذر، فقال علي: نعم، لقول رسول الله: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء ذا لهجة أصدق من أبي ذر»[3].

(1) **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص171.
(2) م.ن، ص171.
(3) **شرح نهج البلاغة**، ج3، ص55.

لكن عثمان قرر إخراج أبي ذر ونفيه من المدينة. طلب أبو ذر الخروج إلى مكة أو بيت المقدس أو الكوفة، لكن عثمان رفض ذلك، وأصر على نفيه إلى صحراء الربذة الموحشة والقاحلة.. توجه أبو ذر إلى الربذة، وكان في توديعه علي والحسن والحسين وعمار وعبد الله بن جعفر رغم منع عثمان. ويرى البعض أن أبا ذر ربما بقي يتردد بعد ذلك إلى المدينة ليتجنب العودة كليًا إلى حياة البداوة.. لكن هذا الأمر مشكوك فيه لأن أبا ذر كان يقول: «صيرني عثمان بعد الهجرة أعرابيًا». بقي أبو ذر في منفاه إلى أن توفي وحيدًا غريبًا سنة 32هـ[1].

ستبقى معاناة أبي ذر وألمه وغربته شهادة للتاريخ على ممارسات استبدادية ظالمة. سيتحول إلى رمز كبير من رموز الثورة ضد الظلم والاستئثار. وسيصبح أقنومًا لكل الفقراء والمقهورين الذين يقرؤون سيرته.

كان أبو ذر، وهو يحنو على الفقراء ويدعو إلى العدالة ويدين الترف، يحي مثل الإسلام التي بدأ الأمويون بطمسها.. لم يكن أبو ذر منظرًا بل كان ثائرًا، وهو لذلك سيبقى في سجل الثوار الصادقين. ولا عجب بعد ذلك أن يدعيه الجميع لأنفسهم.

---

(1) نفي عثمان أبا ذر إلى الربذة حقيقة تاريخية أثبتها الكثير من المصادر ولا مجال لإنكارها. انظر مثلًا: **شرح نهج البلاغة**، ج3، ص55. **وتاريخ اليعقوبي**، ج2، ص171. **ومروج الذهب**، ج2، ص348. أما الطبري فقال في تاريخه ج4، ص284: «وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاثين ـ كان من أمر أبي ذر ومعاوية وإشخاص معاوية إياه من الشام إلى المدينة، وقد ذكر في سبب إشخاصه إياه منها إليها أمور كثيرة، وكرهت ذكر أكثرها، فأما العاذرون معاوية في ذلك، فإنهم ذكروا في ذلك قصة..» إن الطبري هنا يخفي بوضوح حقائق تتعلق بسلوك معاوية وممارساته مع أبي ذر، والأحرى أن يفعل ذلك عندما يتعلق الأمر بعثمان.. والأمر نفسه فعله ابن الأثير في كتابه «**الكامل في التاريخ**».

حاول البعض الادعاء أن أبا ذر ذهب إلى هناك بمحض إرادته مستندين الى روايات نقلها الطبري عن سيف بن عمر المعروف بالوضع كما أثبت ذلك ابن معين والنسائي والدارقطني الذين ضعفوه وأبو حاتم الذي قال إنه متروك الحديث وأبو داود الذي قال عنه «ليس بشيء» وابن حبان الذي قال إنه يروي الموضوعات، والحاكم الذي أشار إلى أنه متهم بالزندقة. انظر **تهذيب التهذيب**، ج2، ح3184 ص467. **وميزان الاعتدال**، ج2، ح3637، ص255. إن التشكيك في حقيقة الاضطهاد والنفي والتشريد الذي تعرض له أبو ذر ليس إلا محاولة مكشوفة لتبرئة عثمان وتبييض صفحته.

لكن المأساة أن أمثال أبي ذر في صدقه وحقانيته قليلون في تاريخ الإسلام. وما كان يقدر أبو ذر على فعله وتحمل نتائجه، لم يكن في متناول أكثر الناس الذين يفتقدون شفافية الوعي وقوة الإرادة وقدرة التحمل. مات أبو ذر شهيد القهر غريبًا، وحيدًا، فقيرًا في منفاه. وسيذكره التاريخ دائمًا رمزًا عظيمًا من رموز الإسلام الذين دافعوا عن قيمه الرفيعة.

احتجاجات ابن مسعود

لم يكن أبو ذر وحده الذي واجه الظلم والقهر، بل كان هناك عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر.. كانا بدورهما من المنتقدين لسياسات هذا الخليفة الأموي. كان عبد الله من طلائع الصحابة، وهو ينحدر من هذيل، وكان حليفًا لبني زهرة. كان شخصًا محترمًا في عهدي أبي بكر وعمر لعلمه وسابقته لكن عثمان لم يرع له حرمة. كان عبد الله خازن بيت مال الكوفة، وقد اقترض عاملها مالًا على أن يرجعه لكنه لم يفعل. وعندما طالب عبد الله بإرجاعه، التجأ العامل إلى عثمان الذي وقف إلى جانبه، وبعث إلى ابن مسعود يؤنبه ويقول له: «إنما أنت خازن لنا».

كان عبد الله يتصور أنه خازن للمسلمين، وأن الجميع يتساوون في الحقوق المالية، لكن عثمان، الذي كان يفكر على أساس عصبيته القبلية، كان له رأي آخر. انزعج عبد الله بشدة لهذا التصرف الذي لا يعني شيئًا سوى أن عثمان كان يعتبر أموال المسلمين ملكًا له ولعائلته وليس ابن مسعود سوى خادم لديه. رمى عبد الله المفاتيح واستقال من منصبه، وبدأ يجمع الناس حوله ليعلمهم القرآن وأحكام الدين، فكوّن له أتباعًا ومريدين. ومن الطبيعي أن يستغل عبد الله دروسه ليطلق نقده ضد ممارسات عثمان وبطانته[1]. وهنا استدعاه عثمان إلى المدينة وضربه بعنف فكسر ضلعه، ونكّل به لتتزايد

(1) البلاذري في **أنساب الأشراف**، ج6، ص146، يكتب: «وكان [ابن مسعود] يتكلم بكلام لا يدعه وهو: إن أصدق القول كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. فكتب الوليد إلى عثمان بذلك وقال: إنه يعيبك ويطعن عليك، فكتب إليه عثمان يأمره بإشخاصه..».

الاحتجاجات ضد عثمان الذي كان يزعم أن ابن مسعود يستحل دمه. وقف علي إلى جانب عبد الله، كما علا صوت عائشة منددًا بممارسات عثمان. لقد تعرض ابن مسعود لإهانة شديدة ومنع حقه في العطاء إلى أن مات، وهو الذي لم يفعل شيئًا سوى إدانة الفساد ورفض المحسوبية. مات ابن مسعود في المدينة سنة 32هـ بعد أن منعه عثمان من الخروج منها، وأوصى أن لا يصلي عثمان على جثمانه[1]، فقد كان بالنسبة إليه شخصًا مبتدعًا وضالًا، غيَّر أحكام الدين ونبذ سنة الرسول ﷺ.

معاناة عمار

ولم يكن عمار بن ياسر أفضل حالًا. كان عمار مؤمنًا كاملًا، قال عنه النبي إنه مليء إيمانًا وأن الجنة تشتاق إليه، ووصفه بالطيب المطيب. لم يكن ليسكت بدوره على كل ما كان يراه من ممارسات، وهو الذي دفع ثمنًا باهظًا وعُذِّب بقسوة بسبب إسلامه فيما استشهد أبواه. ولاه عمر الكوفة لكنه سرعان ما عزله. وكان قائدًا للجيوش في بعض الفتوح.

رفض عمار ممارسات عثمان.. دخل عليه يومًا يحمل كتابًا شارك في كتابته المقداد وطلحة والزبير. كان الكتاب يتضمن نقدًا لعثمان ودعوته إلى التقوى وتهديدًا، وعندما قرأ عمار قسمًا من الكتاب، قال عثمان: أعلي تقدم من بينهم، فقال عمار: لأني أنصحهم لك. لكن ذلك لم يعجب عثمان وكذّب عمارًا، ثم أمر غلمانًا له فمدوا يديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه وهي في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق وأغمي عليه[2]. لم يكتف عثمان بتكذيب عمار وإهانته وضربه، بل إنه هدد بإبعاده إلى الربذة مثلما فعل مع أبي ذر، غير أن بني مخزوم الذين كان عمار حليفًا لهم وقفوا إلى جانب «أخيهم» بدعم من علي وسط احتجاج عائشة التي أخرجت شعر النبي ونعليه وثوبه وقالت إن أشياء النبي لم تبل ولكن عثمان أبلى سنته. لقد اعتدى عثمان على شرف الأمة كلها وهو يضطهد خيرة الصحابة، ومزق شهادات النبي لهم في الإيمان

---

(1) م.ن، ص146.

(2) البلاذري، **انساب الاشراف**، ج 6، ص 162.

والصدق والإخلاص.. والذين يقدسونه اليوم، إنما يقدسون في الحقيقة الظلم والقهر والاضطهاد والفساد.

أسطورة ابن سبأ

كانت معارضة أبي ذر ذات طابع اجتماعي بالأساس، كان يدافع عن الفقراء، ويدين جشع الأغنياء. غير أن معارضة عمار كانت معارضة راديكالية سياسية، كان يعتبر عثمان حاكمًا فاسدًا وبلا شرعية وكان يأخذ عليه محاباته لبني أمية وعبثه بأموال المسلمين[1]. وإذا كان أبو ذر قد تعرض للنفي من قبل عثمان، فإن عمّارًا ضُرب بعنف حتى أغمي عليه. وكان الفاعل هو الخليفة نفسه![2]. كان النبي يتحدث في حياته: «إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان»[3]. ويقول: «إن الله عز وجل يحب من أصحابي أربعة، أخبرني أنه يحبهم، وأمرني أن أحبهم، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: إن عليًا منهم، وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود الكندي»[4]. لكن عثمان لم يحترم أقوال النبي ﷺ في شأن أبي ذر وعمار، ووصل به الأمر إلى حد التنكيل بهم.

كان أبو ذر ينهى عن اكتناز الأموال لأنه كان يرى أن المسلم الحقيقي هو الذي لا يبقي في حوزته ما زاد عن حاجته من أموال. كان يريد للخليفة أن يكون عادلًا في توزيعه للأموال العامة مثلما كان يفعل النبي ﷺ. وكان يتمثل في ذلك كله وصايا القرآن الذي يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وسيرة النبي ﷺ الذي لم يكن يجد راحته النفسية إلا عندما يكون قد وزع كل ما في بيت المال على مستحقيه.

---

(1) **أنساب الأشراف**، ج 6، ص 161.

(2) م ن، ج 6، ص 162.

(3) **سنن الترمذي 5/667**، ح3797، **المستدرك على الصحيحين 3/148**، ح4666، **أنساب الأشراف 1/182**.

(4) **مسند ابن حنبل: 9/14**، ح23029.

لكن عمارًا ربما كان أكثر راديكالية ووضوحًا في إدانته لسلوك عثمان الذي كان يستبيح بيت المال لحاجاته الشخصية، وبحسب البلاذري: «كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجواهر، فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك وكلموه فيه بكلام شديد حتى أغضبوه، فخطب وقال: لنأخذنَّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمَت أنوف أقوام. فقال له علي: إذًا تمنع من ذلك ويُحال بينك وبينه. وقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك، فقال عثمان: أعليّ يا بن المتكاء تجترئ؟ خذوه، فأُخذ ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غُشي عليه»[1]. هو لا يستطيع أن يرد على علي الذي يعرفه جيدًا، ولكنه يستطيع أن يعذب عمار مولى بني مخزوم المستضعف.

لقد كان أبو ذر وعمار وابن مسعود من أوائل الذين دخلوا في الإسلام، وكانوا من أولئك الذين يحملون بعمق وعي الإسلام وثقافته. لكنهم كانوا من المستضعفين الذين تجرأ عليهم عثمان في الوقت الذي لم يكن يستطيع أن يفعل شيئًا مع القرشيين الذين كانوا يحرضون على قتله كما هي حالة عمرو بن العاص وطلحة والزبير وعائشة.

كان أبو ذر وعمار على نحو خاص يملكان وعي الإسلام، غير أن بعض «المؤرخين» لم يعجبه ذلك وأراد أن يجعلهما فريسة لشخص وهمي يُدعى عبد الله بن سبأ: «فهو الذي حرّك أبا ذر للدعوة الاشتراكية، وهو الذي كان من أكبر من ألّب الأمصار على عثمان، و.. ألّه عليًا، وهو الذي يؤخذ من تاريخه أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام، وألّف جمعية سرية لبث تعاليمه، واتخذ الإسلام ستارًا يستتر به نيّاته..»[2].

إن ابن سبأ يبدو لدى هؤلاء «المؤرخين» شخصية استثنائية استطاعت أن تلعب بعقول خيرة الصحابة، وتُفجر أحداث الفتنة، وتهدم تعاليم الإسلام. ولابد أنه كان على هذا النحو يملك قوة فكرية عظيمة وإرادة خارقة استطاع من خلالهما أن يحرك الناس ويمنع الصلح ويبث الأفكار الغريبة عن المسلمين!.

---

(1) **انساب الأشراف**، ج 6، ص 161.

(2) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ط القاهرة، ص 269.

إنهم يقولون إن ابن سبأ هذا، كان يهوديًا من أهل اليمن وكانت أمه حبشية، جاء إلى المدينة في زمن عثمان فأسلم ثم قلب الدنيا على رأسه. إن إسلامًا على هذا النحو لجدير بأن يسخر منه أحد القساوسة حين يقول: «انظروا إلى هذا الدين، فهو في إبان عزه وانتصاره يقع فريسة هينة لرجل غريب لا يعرف التاريخ عنه شيئًا كثيرًا، ففي الوقت الذي كان صحابة محمد يسيطرون على المجتمع الإسلامي ويبثون فيه تعاليم نبيهم نرى طارئًا يهوديًا يدخل ذلك المجتمع فيمزقه تمزيقًا مريعًا من غير أن يرفع أحد يده لطرده أو للبطش به»[1].

لقد ورد اسم عبد الله بن سبأ في تاريخ الطبري في روايات سيف بن عمر كما ورد في تواريخ أخرى. وليس هناك راوٍ آخر يُورد هذا الاسم: عبد الله بن سبأ غير سيف بن عمر.

يقول: «كان عبد الله بن سبأ يهوديًا من أهل صنعاء، أمه سوداء، أسلم زمن عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام»[2]، ثم يقول: «لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية يقول: المال مال الله. ألا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجمه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين. فأتاه أبو ذر وقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟ قال: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره. قال [أبو ذر] فلا تقله. قال: فإني لا أقول إنه ليس مال الله، ولكني سأقول: مال المسلمين» وتضيف الرواية: «وقام أبو ذر بالشام يقول: يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء. بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس»[3].

وينسب سيف بن عمر إلى عبد الله بن سبأ القول برجعة النبي والوصية لعلي. يقول سيف: «لم يقدر [ابن سبأ] على ما يريد عند أحد من أهل الشام،

---

(1) علي الوردي، **وعاظ السلاطين**، ص 96.

(2) **الطبري**، ج 2، ص 647.

(3) م ن، ج 2، ص 615.

فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيها فقال لهم: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذّب بأن محمدًا يرجع وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]. فمحمد أحق فيها، ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد. ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء. ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على علي وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة. فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر. فبعث دعاته وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السّر إلى ما عليه رأيهم.. وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك.. حتى تناولوا المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون»[2].

هذه هي الرواية التي يثبتها الطبري في تاريخه عن سيف بن عمر التميمي المتوفى سنة 180 هـ حول ابن سبأ. من الواضح أنها رواية مليئة بالثغرات التي تطعن في صحتها. لقد أراد سيف هذا ـ المعروف بالوضع ـ أن يخترع هذه الشخصية من أجل تبرئة رموز الفتنة الذين كانت تحركهم طموحاتهم وأهواؤهم. فإذا كان ابن سبأ هو حقًا المحرض لأبي ذر على معاوية في الشام فكيف يشتكي هذا الأموي على أبي ذر إلى عثمان ويترك ابن سبأ يتجول بين الشام ومصر وهو يعلم أنه المحرض الحقيقي ضده وعثمان في مصر والحجاز؟.. وكيف يسمح له أن ينتقل من مصر إلى المدينة ليكون في عداد المحتجين على الخليفة؟. ثم هل كان أبو ذر في حاجة إلى يهودي يعلمه مبادئ الإسلام وهو الذي كان من السابقين إلى هذا الدين والحاملين لثقافته بعمق؟. والغريب أن سبأ هذا يختفي تمامًا من المشهد بعد الثورة على عثمان، فقد ظهر فجأة في روايات سيف ثم اختفى فجأة أيضًا كما لو كان شبحًا.

لاشك أن ما يورده سيف ليس إلا مجموعة من الأساطير اخترعها هو أو

---

(1) سورة القصص، الآية: 85.

(2) **الطبري**، م س، ج 2، ص 647.

أمليت عليه من أجل تبرير ممارسات عثمان وتبرئة سلطته من كل ما حدث بسبب سياساته. وفي المقابل، محاولة الإساءة إلى شيعة علي من أجل الإيحاء بأن عقائدهم في الوصية والمهدوية والرجعة مأخوذة من رجل يهودي أسلم في زمن عثمان. في حين أننا نجد مثل هذه العقائد في القرآن وكتب الحديث السنية والشيعية على السواء.

إن هذه الروايات تريد في الحقيقة تحميل مسؤولية الفتنة لهذا الشخص الخرافي وتبرئة الخليفة من كل ممارساته الخاطئة، وإبعاد التهمة عن كل أولئك الذين كانوا يحرضون على قتله كما هي حالة عائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص.. لقد كانت هناك رغبة كبيرة لدى فريق من المسلمين في تقديم هؤلاء الصحابة على أنهم قديسون وسلف صالح ولا يمكن أن يكونوا مسؤولين عن أحداث الفتنة الصادمة.

إن ذلك كله يجعل من غير الممكن أن تكون شخصية ابن سبأ شخصية حقيقية، وما نسب إليه، لا يزيد عن كونه مجموعة من الأساطير والخرافات التي لا تملك أي أساس[1].

(1) كان طه حسين قد شكك في كتابه «**الفتنة الكبرى**» في وجود عبد الله بن سبأ واعتبره شخصية مختلقة، لكن مرتضى العسكري استطاع أن يثبت في كتابه «**عبد الله بن سبأ**» بطريقة علمية أن هذا الشخص مجرد أسطورة. وقد أكد هشام جعيط في كتابه «**الفتنة**» هذا الاتجاه.

الوصل السادس

ثورة المقهورين

كانت الكوفة معسكرًا متقدمًا للمسلمين تضم المحاربين الذين شاركوا في فتح العراق وأجزاء من العالم الإيراني. كانت تضم أعدادًا كبيرة من القرشيين والعرب القادمين من الحجاز واليمن. وأصبحت تشكل مركزًا اقتصاديًا إلى جانب المدينة والشام. وهناك سوف يستوطن أهل الأيام من الفاتحين الأوائل وأهل القادسية الذين هزموا جيوش الفرس. وهؤلاء جميعًا هم الذين سيقضون نهائيًا على الإمبراطورية الفارسية في معركة نهاوند.

لم تكن الكوفة تضم نسيجًا بشريًا متجانسًا، بل كان يسكنها المحاربون الأوائل من أهل الأيام ويمنيون ومضريون ممن تمردوا على أبي بكر، كما كانت تضم مؤمنين طليعيين وطلقاء ممن أسلم كرهًا.. كانت الكوفة تضم عمليًا أشخاصًا مؤثرين في هذا الجانب أو ذاك بعكس البصرة التي كانت مصرًا فقيرًا يضم محاربين من شرق الجزيرة ممن لا يملكون مجدًا حقيقيًا. وكانت لذلك تشكل مركزًا ثانويًا، ولكن مساعدًا للكوفة في فتح إيران. ولم تصبح البصرة مركزًا منافسًا للكوفة إلا في عهد عثمان عندما تم فتح كرمان وسجستان وخراسان سنة 31هـ. لقد سمح لها ذلك بالاستيلاء على غنائم هائلة، وأصبح لها مجالها الخاص.

الغضب المنظم

ومع ذلك فإن الكوفة ستبقى المركز الذي ستنطلق منه حركة الاحتجاج القوية ضد عثمان. عين هذا الخليفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي واليًا على الكوفة. كان الوليد واحدًا من الطلقاء، قال عنه النبي ﷺ إنه من صبية النار وسماه القرآن فاسقًا. حاول هذا الرجل منذ البداية أن يتقرب من الناس

ويتودد إليهم حتى يستمر في ولايته، واستمر على هذا النحو خمس سنوات. كان الوليد يشرب وكان يسامر شاعرًا نصرانيًا ادعى الإسلام، وكان يحب ألعاب السّحرة. صلى ذات يوم صلاة الصبح بالناس وهو ثمل. صلى بهم أربع ركعات ثم التفت إليهم وقال: هل أزيدكم.. وصَل خبُره إلى عثمان وشهد عليه وفد من الكوفة، حاول عثمان منع إقامة الحد عليه. لكن عليًا أصر على ذلك، وعندما لم يجرؤ أحد على تنفيذ الحد أقامه علي بنفسه، فيما كان عثمان صامتًا حزينًا أمام حزم الإمام المنافح عن حدود الله. كانت إقامة الحد عليه تكريسًا لحقده على علي الذي قتل أباه عقبة بن أبي معيط في بدر وقد كان شديد الأذى للنبي. كانت القطرة التي أفاضت ثورة المحتجين. فما فعله الوليد كان تأكيدًا لإدانة القرآن والنبي له من قبل.

بعث عثمان سعيد بن العاص، الأموي الآخر، الذي لا تاريخ له في الإسلام، واليًا على الكوفة بدل الوليد سنة 30 هـ. وفور وصوله أرسل إلى عثمان تقريرًا عن الأوضاع في الكوفة. وفي هذا التقرير كان يشكو تأخر «أهل الشرف والبيوتات السابقة» وغلبة «الروادف والأعراب». فأجابه عثمان بتفضيل الفئة الأولى من الارستقراطيين والمترفين على حساب الفقراء والمحرومين. كان عثمان يريد تأكيد رؤيته الهرمية للمجتمع بعيدًا عن المبدأ الإسلامي الذي يفرض المساواة بين الجميع بقطع النظر عن انتماءاتهم القبلية والقومية أو سابقتهم الدينية.

لم يكن الناس ليقبلوا هذه السياسة رغم المحاولات الملتوية لاستيعاب بعض النخب ذات الامتياز الديني من القراء وطلائع المحاربين. ورغم أن الأمور استمرت هادئة حتى سنة 33 هـ، إلا أن غالبية الناس الذين كانوا مهمشين كانت تغلي. لقد قَرَّب سعيد بن العاص الوجهاء ورؤساء القبائل، وحاول استرضاء بعض المهمشين، لكن الأغلبية كانت تعاني.

لم يكن العامل الاقتصادي وحده هو الذي يحرك المنتفضين، بل إن العامل السياسي والعامل الديني كليهما كان لهما تأثيره. كانت هناك فئة من القراء الذين لا يزالون يتذكرون المأثرة النبوية. وكان هناك المعارضون لعثمان

لا بسبب سياسته التفضيلية والمحابية فحسب، ولكن أيضًا لعدم شرعية حكمه في نظرهم. وفي كل الأحوال يبقى السبب الاقتصادي حاسمًا فقد كان شخص مثل طلحة يجني بالكوفة وحدها ما بين 400 و500 ألف درهم في السنة، فيما كان أكثر الناس يعيشون الحرمان.

لم يكن سعيد بن العاص يخفي جشعه، وكان يحاول إطلاق بالونات اختبار من أجل معرفة ردود الأفعال. جمع ذات مرة حواشيه والمقربين منه، وبدأوا الحديث. تحدث أحدهم وكان شابًا فأتى على ذكر طلحة وسخائه، فلاحظ الأمير ثراء الرجل، وقال من الطبيعي أن يكون سخيًا رجل يملك كل تلك الثروة الهائلة، وأنه لو كان يملك ثروة مماثلة لغمر الناس بأمواله. عند ذلك اندفع ذلك الشاب وقال: «والله لوددت أن هذا الملطاط لك، يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة..». وهنا ثار جانب من الحاضرين الذين كانوا من القراء. طرحوا الفتى أرضًا وعنفوه هو ووالده حتى أغمي عليهما. لقد فهموا أن الفتى لُقِّن هذه الكلمات، لكن الوالي تدخل ليبين أن الأمر ليس على هذا النحو، وأن المسألة مجرد أمنية. وتطور الأمر، وحاصرت قبيلة أسد القصر تريد الثأر للفتى وأبيه حيث كانت تظن أنهما قتلا.

ولن تتوقف الأمور عند هذا الحد، بل ستتزايد الاحتجاجات، وهو ما اضطر الوالي وجماعته إلى الكتابة إلى عثمان الذي طلب طرد المحتجين إلى سورية. كانوا عشرة أشخاص يحتجون على تصريحات للوالي يقول فيها: «إنما هذا السّواد بستان لقريش»[1]. كانت كلمات صادرة عن أموي يظن أن المسلمين ليسوا إلا عبيدًا للطبقة الأموية الحاكمة. واجهه مالك الأشتر بقوة قائلًا: «أتدّعي أن السّواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك». لقد كان الأشتر أحد أهم قادة الاحتجاج ضد الحكم الأموي في الكوفة.

إن الصراع هنا هو بين خطين، الأول قبلي يريد أن يجعل من بني أمية أباطرة بغطاء إسلامي. والثاني إسلامي أصيل يريد الدفاع عن النقاء الإسلامي الأول، وفضح المشروع الأموي الذي كان يتذرع بالدين لتغطية أهدافه في

(1) **الطبري، تاريخ الأمم والملوك**، ج 4، ص 323.

التسلط والاستئثار. لقد كان هناك خوف حقيقي من أن يقوم عثمان بتوزيع أراضي الصوافي على أقاربه.

كان الأشتر مؤثرًا في حركة الاحتجاج ضد الجشع الأموي، كان في الحقيقة قائدًا لهذه الحركة. ولأجل ذلك شكاه الوالي إلى عثمان وطلب نفيه هو وأصحابه. قال له: «إني لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه الذين يدعون القراء وهم السّفهاء شيئًا». وبالفعل تم نفيهم إلى الشام.

كان القراء أشخاصًا متدينين، لكن قسمًا منهم كان يفتقد الوعي السياسي والمعرفة الدينية العميقة، وهو ما سيبدو واضحًا في خلافة الإمام علي عندما سيظهر الخوارج. ومن الواضح أن تدينهم هو الذي دفعهم إلى الاحتجاج. كانوا في الغالب من عامة الناس المتدينين، لكن الذين كانوا يقودون حركة الاحتجاج كانوا يملكون هذا الوعي.

أما الأمويون فكانوا يتصرفون كأصحاب سلطة حقيقيين، وكان معاوية أيضًا يتصرف على هذا الأساس، وعندما وصل المطرودون من الكوفة إلى الشام تلقاهم معاوية الذي كان غارقًا في نزواته. وبدأ يتحدث عن أفضلية قريش على العرب، وأن النبي ﷺ من قريش، ثم انطلق يهاجم القبائل العربية الأخرى. كان يتحدث بلغة الماكر الذي يحاول استخدام مفردات الدين من أجل إدراك أهدافه.

لكن معاوية لم يكن قادرًا على تحمل وجود هؤلاء في الشام، وهو الذي يريد أن يبقى الشاميون جهلة لا يعرفون شيئًا عن حقيقة الإسلام. ولأجل ذلك كتب إلى عثمان: «إنه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان.. إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة»[1]. إنه يحاول إلباس أوصافه هو لهؤلاء المحتجين، فكل شيء في هذا الزمن الأموي أصبح مقلوبًا.

لم يطق معاوية الأشتر وأصحابه، وسرعان ما تم إبعادهم إلى حمص حيث كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وبحسب بعض المصادر سوف

(1) **الطبري**، ج 4، ص221.

يعاملهم هذا الوالي بقسوة، وسيحاول إذلالهم. لكننا نشك أن يكون عبد الرحمن يملك القدرة على فعل ذلك، فالأمر يتعلق بالأشتر، البطل الذي تشهد له معارك اليرموك والجمل وصفين.. إن الرواية التي تتحدث عن إذلال عبد الرحمن لمالك وأصحابه ينقلها الطبري عن سيف بن عمر المعروف بالوضع وعدم الاستقامة.

وعندما كان عثمان يجتمع بولاته في الأقاليم قرر الكوفيون منع سعيد بن العاص من العودة إلى الكوفة، فقد عاد الأشتر وأصحابه إليها. وبالفعل تم طرد سعيد الذي عاد إلى المدينة سنة 33 هـ، وجرى تعيين أبي موسى الأشعري مكانه. قبل عثمان الأمر الواقع وأقر الأشعري في منصبه. كانت تلك أول حركة يقوم بها المحتجون على الأرض لكن الأمور لن تتوقف عند هذا الحد.

مشهد الحصار

لم تكن أحداث الكوفة إلا إنذارًا شديد اللهجة موجهًا إلى عثمان. ذلك أن هذه الأحداث لن تكون هي التي ستنهي حياة الخليفة الأموي. ولكنها ستكون فاتحة للأحداث اللاحقة في المدينة على نحو خاص. سيتحرك المصريون بحزم، وسيلتقي الجميع في المدينة بعد مرور عام على أحداث الكوفة. وحدها الشام كانت خارج دائرة الاحتجاج، كان معاوية قد أمضى قرابة 17 سنة واليًا عليها، أي منذ موت أخيه يزيد في خلافة عمر. وسمحت له هذه المدة الطويلة بتلويث العقول والسيطرة على الناس الذين لم يعرفوا سوى بني أمية ولاة عليهم.

وعلى هذا النحو ستدخل الكوفة والبصرة ومصر إلى جانب المدينة، التي تضم أكثر الصحابة. ستكون هذه الأمصار كلها تقريبًا مشاركة في الانتفاضة على عثمان. وسيكون أهل الأمصار قادة هذه الثورة الذين سيحاصرون الخليفة العنيد. كان هناك تنسيق بين الكوفيين والبصريين والمصريين، وكانت لكل مجموعة فرقتها التي تضم قرابة 600 شخص. وكانت هذه قوة كافية لمحاصرة عثمان الذي تركه وحده كل أولئك الذين كان يعمل لمصلحتهم. فالمصالح عادة تفرق ولا تجمع عندما يكون الخصم قويًا. لقد بلغت نقمة الناس حدًا كبيرًا،

ولم يعد بإمكان الأمويين مواجهة غضب كل تلك الكتل البشرية الهائجة أو أنهم لم يكونوا يريدون ذلك.

في مصر سيقوم اثنان من قادة الثورة؛ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة بإيقاف الحملة البحرية ذات الصواري ضد البيزنطيين. كان تصحيح الأوضاع في الداخل هو الأولوية بالنسبة إليهم، ولا معنى للفتح في ظل سلطة فاسدة سوى تصدير الفساد إلى البلاد المفتوحة. كل ذلك كان له صداه في المدينة، فقاد علي مسعى من أجل تذكير عثمان بواجباته. لكن عثمان ركب رأسه ولم يستجب لعلي ثم دعا ولاته الأمويين إلى اجتماع في المدينة للتشاور. لن يثني هذا الاجتماع الثوار عن مطالبهم، وسيكون تحركهم شاملًا. عسكر الثوار في ذي خشب في شوال 35 هـ، ولكن في أماكن مختلفة. كانوا ثلاث فرق من مصر والكوفة والبصرة.

لكن الذين شاركوا فعليًا في الحصار كانوا قليلي العدد. لم يتجاوز عددهم في أقصى الحالات مائة شخص. لكنهم كانوا مؤثرين. أما الأسماء المذكورة فقليلة وأهمها: محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذفة وعبد الرحمن بن عديس البَلَوي من قبيلة بَلَى التي استوطنت مصر وهو من صحابة النبي الذين شهدوا بيعة الشجرة قبل عامين من فتح مكة. وكان هناك أيضًا كنانة ابن بشر التجيبي الكندي وعمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وسواد بن حمران السّكوني الكندي وعروة بن شُييم الليثي ومالك الأشتر رجل الكوفة المهم، الذي يرد ذكره غير مرة في حمْأة الأحداث، وهو الكوفي الوحيد الذي يظهر اسمه في مشهد الحصار مع عمرو بن الحمق الخزاعي الصحابي الجليل الذي أسلم بعد الحديبية وكان من صفوة المؤمنين. وتشير المصادر إلى حُكيم بن جبلة العبدي بوصفه القائد الفعلي للثوار، وهو رجل شجاع مطاع في قومه، وكان زعيم الفريق البصري.

لم تكن إذن ثورة فوضوية، بل على عكس من ذلك تمامًا، كانت ثورة منظمة. صحيح أن الناس في الأمصار المختلفة كانوا حانقين على عثمان وعماله، ولكنه كان غضبًا مؤطرًا. ولم يكن الهدف قتل عثمان بقدر ما كان

الضغط عليه من أجل الوفاء بتعهداته أو الاستقالة. كانوا يريدون منه توبة نصوحًا، وكانوا فعلًا يأملون ذلك.

كانوا يحتجون على النهب المنظم لبيت المال، وعلى ممارسات الولاة. وبالفعل فقد تم التفاوض مع عثمان وانتهى الأمر إلى موافقته على مطالب المحتجين، وقرر المصريون العودة إلى بلدهم.

وهنا لعب علي دورًا محوريًا من أجل منع الهجوم على الخليفة أو قتله. وبالتوازي مع ذلك، كانت هناك حوارات مع عثمان الذي بدا ضعيفًا ومترددًا وفاقدًا للقدرة على اتخاذ أية قرارات. فكلما وافق على شيء جاء مروان لينقضه. لكن هذه المرة تم انتزاع تعهد مكتوب من عثمان ينص على «العمل بكتاب الله وسنة نبيه، وأن يُعطي المحروم ويؤمّن الخائف ويُرد المنفي ولا تجمّر البعوث ويوفر الفيء»[1].

إنها وثيقة تظهر إقرار عثمان باتساع دائرة المحرومين والفقراء، وانتشار ممارسات القمع والنفي، وقطع الطرق، والاستئثار بالفيء. وتؤكد أن مطالب الثوار محقة تمامًا. فقد أمر عثمان بتخفيض عطاء الكثيرين وإلغاء عطاء آخرين، فحرم بذلك أعدادًا كبيرة من الناس من حقوقهم المالية، ومارس هو نفسه الإبعاد والنفي، وتابعه في ذلك كله ولاته في الأمصار المختلفة. إن المطالب هنا كانت تتركز حول رفع المظالم وإلغاء الإجراءات القمعية وعزل الولاة الفاسدين. وباختصار إعادة العمل بالكتاب والسنة اللذين علّق عثمان العمل بهما.

لكن عثمان نكث وعده تحت تأثير مروان بن الحكم. فقد لاحظ المصريون في طريق العودة غلامًا يسوق جمله بطريقة مريبة. وعندما استوقفوه قال إنه يحمل رسالة إلى والي مصر. فتحوها فوجدوا فيها أوامر بقتل المحتجين العائدين وقتل الوالي الجديد محمد بن أبي بكر الذي كان من المقرر أن يكون بديلًا لعبد الله بن أبي سرح والي مصر الفعلي الذي كان أخًا لعثمان من

(1) البلاذري، **انساب الأشراف**، ج 5، ص 63. وابن الأعثم، ج 2، ص 209.

الرضاعة، كانت صدمة كبيرة بالنسبة إلى الوفد الذي قرر العودة إلى المدينة وضرب الحصار من جديد على عثمان.

قرأ الوفد الكتاب على أهل المدينة، فازداد الحنق وتعمق الغضب. ثم التحقت مجموعات أخرى من الكوفة والبصرة. دام الحصار الأول قرابة الشهر، وسيمتد الحصار الثاني إلى قرابة الأربعين يومًا ينتهي بقتل عثمان على نحو مأسوي.

كانت الرسالة فضيحة لعثمان، لقد أنكر أن يكون قد كتبها أو أرسلها. لكن التوقيع كان توقيعه والختم ختمه. وإذا كان عثمان صادقًا، فإن ذلك يعني أنه أصبح مجرد ألعوبة، وأن الحاكم الحقيقي هو مروان بن الحكم. أما إذا كان هو من فعلها، فإن ذلك يعني أنه لا عهد له ولا وفاء. وفي كلا الحالتين لا يستحق شخص بهذه الصفات أن يستمر خليفة على المسلمين. إن ذلك كله يعني أن عثمان كان مسكونًا بمحيطه، وأن أية قيم إسلامية كانت غائبة عن تفكيره.

كان عثمان مختنقًا ومحاصرًا، فبعث إلى معاوية يطلب نجدته بجيش من الشام. كتب إليه: «إن أهل المدينة كفروا وأخلفوا الطاعة، ونكثوا البيعة، فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول»[1]. غير أن معاوية الذي كان يضرب أخماسًا في أسداس، تلكأ مدعيًا أنه لو بعث إليه بهذا الجيش لعاجله الثوار وقتلوه. كان معاوية يفكر في خلافة عثمان، ووجد أن الطريق إلى ذلك لا يكون إلا بقتله حتى ينصب نفسه وليًا له يطالب بدمه، أو بنقل عثمان إلى الشام ليصبح يسيرًا بالنسبة إليه استلام السلطة.

وينقل الذهبي عن ابن عباس قوله إن عثمان «بعث المسور بن مخرمة إلى معاوية، يعلمه أنه محصور، ويأمره أن يجهز له جيشًا سريعًا. فلما جاء معاوية من دمشق مصطحبًا ابن عقبة وابن حديج ودخل على عثمان سأله الأخير: أين الجيش؟ قال: ما جئت إلا في ثلاثة رهط. فقال عثمان: لا وصل الله رحمك،

(1) **الطبري**، ج4، ص368. **والكامل في التاريخ**، ج2، ص288.

ولا أعز نصرك، ولا جزاك خيرًا، فوالله لا أُقتل إلا فيك، ولا ينتقم علي إلا من أجلك. فقال معاوية: بأبي أنت وأمي، لو بعثت إليك جيشًا فسمعوا به، عاجلوك فقتلوك، ولكن معي نجائب، فأخرج معي، فما يشعر بي أحد، فقال عثمان: بئس ما أشرت به، وأبى أن يجيبه. فأسرع معاوية راجعًا »[1].

إن عثمان هنا يصرح أنه كان يمهد لمعاوية استلام الخلافة عندما يقول له: «لا أقتل إلا فيك، ولا ينتقم علي إلا من أجلك». وهذا يعني أن كل ما كان يفعله عثمان من تسليط بني أمية على رقاب المسلمين لم يكن إلا من أجل إيصال معاوية إلى السلطة. إنه نص خطير يكشف حجم المؤامرة.. لقد أراد معاوية أن يُقتَل عثمان حتى يسهل استلامه للسلطة، ولا بد أن يكون ذلك بالتنسيق مع بقية الأمويين. فمعاوية لم يكن وحده الذي رفض نجدة عثمان، بل إن العمال الآخرين فعلوا ذلك أيضًا.

كانت الأحداث تتسارع، وأصبح الوضع أكثر خطورة بعد أن أصبح عثمان يواجه الشتائم ودعوات العزل. وتروي المصادر أن عليًا لما رأى ذلك «بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من الصحابة وكلهم بدري، ثم دخل إلى عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير، فقال له علي: هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم، قال: والبعير بعيرك؟ قال: نعم، قال: فأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب، ولا أمرت به، ولا علم لي به، فقال له: فالخاتم خاتمك؟ قال: نعم، قال: فكيف يخرج غلامك ببعيرك وبكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به؟ فحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب، ولا أمرت به، ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر قط، أما الخط فعرفوا أنه خط مروان، وشكوا في أمر عثمان، وسألوه أن يدفع إليهم مروان، فأبى، وكان مروان عنده في الدار، فخرج أصحاب محمد ﷺ غضابًا»[2].

لكن المسألة لن تنتهي عند هذا الحد، بل إن الثوار طلبوا التحقيق مع مروان، فإذا تبين أنه هو من كتب الكتاب عزلوه، وإن اتضح أن مروان كتبه

(1) **الذهبي، تاريخ الإسلام**، ج3، ص350.

(2) **الطبري**، ج 4، ص 357. والسيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص 159.

على لسان عثمان رأوا فيه رأيهم. لكن عثمان رفض مرة أخرى خروج مروان إليهم بدعوى الخشية عليه من القتل. وهنا شدّد الناس حصارهم على عثمان ومنعوا عنه الماء. لقد اتفق الثوار أخيرًا على خلع الخليفة.

حاصروا منزله أكثر من شهر حتى لا يصلي في المسجد، لكن عثمان ظل مصرًّا على موقفه، كان يقول: «لا أخلع قميصًا ألبسنيه الله» محاولًا استنبات حق إلهي من داخل الإسلام. رفض عثمان كل الحلول، كان في الحقيقة رهينة لمروان. وحتى زوجته نائلة التي كانت تلح عليه في استبعاد مروان والاستجابة للثوار، والاستعانة بعلي، رفض نصائحها. كانت تقول له: إن عليًا هو من لقّبه النبي بإمام المتقين، وإن أخلاقه لا تسمح له بخذلانه، لكنه لم يكن يستجيب لها.

وازدادت الأمور تعقيدًا بعد أن أصاب أحدُ حراس عثمان أحدَ الثوار بسهم فقتله. لقد رُفض طلب تسليم القاتل. وكان مروان ومؤيدوه من بني أمية يحاولون تصعيد الموقف طالبين المبارزة بين الحين والآخر.

أما علي فلم يكن ليقبل أن يقتل عثمان أو يعتدى عليه، لقد كان يرى في الخليفة رمزًا للمسلمين لا ينبغي المس به، لأن ذلك سيدخل الأمة في المجهول. لا شك أنه لم يكن راضيًا قط عن تصرفات عثمان وحذّره بشدة أن يكون إمام الأمة المقتول الذي يفتح عليها باب القتل والاقتتال إلى يوم القيامة، كما حذّره من نقمة الله يوم القيامة.. رفض علي أي اعتداء على عثمان، وهو لأجل ذلك سيكسر الحصار ضده ليرسل إليه قرب الماء، ويكلف ابنيه الحسن والحسين حراسة بابه ومنع الناس من الاقتراب منه.

سيستمر حصار عثمان أربعين يومًا[1]. وكان الهدف الضغط على الخليفة ليعود عن أخطائه ويسلّم مروان. كان عثمان معزولًا تمامًا فقد منع من الصلاة في المسجد ورجم بالحجارة، لكن لا أحد كان يريد قتله علنًا. فقد كان واضحًا لدى قادة الاحتجاج خطورة خطوة كهذه.

---

(1) **الطبري**، ج 4، ص 364.

قتل عثمان

استمر الحصار كل هذا الوقت لأن الثوار لم يكونوا يبيحون لأنفسهم قتل الخليفة، ولأن عثمان رفض بكل عناد الاستقالة أو تسليم مروان. وفكرة الاستقالة أو رد الخلافة إلى أصحابها، فكرة متقدمة جدًا في تلك المرحلة حيث يسود الاستبداد العالم كله. ومن الواضح أنها فكرة تجد أساسها في تعاليم الإسلام حيث أن السلطة عقد بين الحاكم والمحكومين، وعندما ينتهك الحاكم بنود هذا العقد، فإنه يصبح لاغيًا تلقائيًا بين الطرفين.

لكن عثمان لم يكن يريد أن يفهم المسألة على هذا النحو، وهو لذلك سيتذرع بفكرة تيوقراطية الحكم من أجل القول إن الله هو الذي ولاه على الناس ولا يحق لهم تبعًا لذلك مطالبته بالاستقالة، ومن حقه التمسك بمنصبه.

لقد كان عثمان وهو يقول: «لن أنزع قميصًا ألبسنيه الله» يؤسس فكرة تيوقراطية السلطة. وهي الفكرة التي سيستخدمها الأمويون والعباسيون بعد أن استطاعوا أن يجدوا من يضخمها وينظّر لها، ليصبح الحاكم ظل الله في أرضه، ولا يمكن أن يكون أبدًا مسؤولًا عن أعماله أمام الناس.

ومع إصرار عثمان على عدم الاستقالة، وتوجهه إلى قراءة القرآن الذي لم يحترم تعاليمه قط، أشرف عليه نيار بن عياض وهو شيخ كبير من أصحاب الرسول ﷺ من أعلى داره وناشده الاستقالة والاعتزال، غير أن رجلًا من حراس عثمان رماه بسهم فقتله، وعندما طلب المحتجون تسليم القاتل رفض عثمان[1]. وهنا أحرق المحتجون باب داره لكنهم لم يقتحموا البيت. لكن مروان بن الحكم خرج عليهم في مجموعة من الأشخاص وجرت معركة قوية جرح فيها مروان نفسُه وأعيد إلى الدار، فقد وصلت أخبار تقول بوصول مدد من البصرة والشام[2]. وفجأة تسلق بعض المحتجين دارًا مجاورة ليتسللوا إلى عثمان، كانوا ثلاثة أشخاص وربما أكثر. وتذكر بعض المصادر أن محمد بن

(1) **الطبري**، ج4، ص382. **والكامل في التاريخ**، ج2، ص291.

(2) **الطبري**، ج4، ص382.

أبي بكر كان من بينهم، وهو الذي أمسك بلحية عثمان لكنه لم يصبه بأذى بل تركه بعد أن توسل إليه عثمان بأبيه: «والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني». ترك محمد بن أبي بكر المكان لكن رجلين آخرين قتلاه[1]، في شهر ذي الحجة 35هـ/ 656م. إن هذا يعني أن قتل عثمان كان عملًا فرديًا، ولم يكن مخططًا له، فالقتلة تسللوا إلى البيت ولم يقتحموه.

بقي الجثمان مُلقى في الشارع ثلاثة أيام. رفض المحتجون دفنه في مقبرة المسلمين، ودفن في مقبرة اليهود التي ضمها معاوية لاحقًا إلى مقبرة المسلمين. وكان دفنه ليلًا وسرًا.

انقلاب الصورة

قتل عثمان، وكان ضحية ممارساته الخاطئة وسياساته المحابية التي دفعت الكثيرين للتحريض ضده. كانت عائشة أشد الناس عليه، كانت تسميه نعثلًا وتحرض على قتله. وكان أيضًا طلحة الذي كان يطمع أن يحل محل عثمان. كما كان هناك الزبير وعمرو بن العاص الذي عزله عثمان عن ولاية مصر. لكن هؤلاء المحرضين سينقلبون ضد مواقفهم السابقة بمجرد مبايعة علي ابن أبي طالب، سيصبحون من المطالبين بدم عثمان فقط لأن عليًا هو الذي أصبح خليفة!

كان قتل عثمان المأساة التي ستدخل الأمة في فتنة حمراء تضيع فيها الحقائق ويكثر فيها الغبار. لاشك أن عثمان كان محابيًا ومستأثرًا. غير أن ذلك كله لا يبرر قتله رغم أنه اختار أن يعيش أكثر من شهرين محاصرًا ومعزولًا ومذعورًا على أن يستجيب لمطالب الثوار أو يستقيل من منصبه.

أما أولئك الذين كانوا يُكفرونه ويحرضون على قتله فقد انتقلوا فجأة إلى قائمة النائحين عليه. كان ذلك شأن طلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاص.. لقد عرف هؤلاء أن الناس يريدون عليًا للخلافة. وعلي هذا لا يمكن أن يقبل به هؤلاء الذين يكرهونه. كانوا في الحقيقة يحرضون على قتل عثمان أملًا في

(1) **الطبري**، ج 4، ص 394. **وأنساب الأشراف**، ج 5، ص 83.

الفوز بالمنصب بعده. وهذه هي حالة طلحة والزبير على نحو خاص وكذلك عائشة التي كانت تأمل أن يصبح ابن عمها خليفة.

مع عثمان بدأت الدولة الإسلامية تنتقل من الشكل الخلافي إلى الشكل المَلَكي ـ الإمبراطوري، كان الرجل يتصرف كما لو كان ملكًا وليس خليفة، أحاط نفسه بعائلته الأموية، وعيّن ولاة الأمصار منهم. ومهما كان سلوك عثمان معوّجًا فإن قتله كان يعني قتل رأس الدولة، وقَتْل رأس الدولة يمكن دائمًا أن يدخل الأمة في المجهول.

لاشك أن عمر يتحمل مسؤولية كبرى عما حدث. لقد كان يعلم أن وصول عثمان إلى السلطة يعني حمل بني أمية على رقاب الناس وكان يقول ذلك. وكان يعلم أن وصول علي إلى السلطة كان يعني استقامة الأمور وكان أيضًا يقول ذلك[1]. لكنه لم يكن بإمكانه إلا أن يمرر السلطة إلى بني أمية الذين هادنوه ثم تعاونوا معه.

لقد مكن الأمويين من قاعدة مهمة في الشام. ومهد لهم، باستخلاف عثمان، طريق الاستحواذ على الأموال والرجال من أجل أن يكون ذلك عدتهم المقبلة في أية حرب محتملة ضد خصومهم.. كان يعامل عماله بكثير من الحزم غير أن ذلك لم يكن ينسحب على واليه في الشام.

(1) يروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج12، ص51 عن ابن عباس قوله لعمر: «قلت فعثمان؟ قال أوه ـ ثلاثًا ـ والله، لئن وليها ليحملن بني أبي معيط على رقاب الناس، ثم لينهض العرب إليه!.. ثم أقبل علي بعد أن سكت هنيهة، وقال: أجرؤهم والله، إن وليها، أن يحملهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم (صلى الله عليه وآله) لصاحبك! أما إن ولي أمرهم حملهم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم!».. إن الغريب هنا ليس هو فقط إدخال عمر عثمان في هذه الشورى رغم علمه أنه سيخرب كل شيء وسيستأثر هو وعائلته بكل شيء ـ وهي كلمات سمعها من النبي ﷺ دون شك ـ وإنما الغريب هو فَبْركة هذه الشورى بحيث لا تنتج إلا عثمان خليفةً.. إن ذلك لا يمكن تفسيره إلا بوجود تفاهم مسبق مع الأمويين بعد أن مات أبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل شركاء الصحيفة الذين استذكرهم بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي وتمنى لو كان أحدهم حيًا حتى يوصى له بالخلافة كما فعل معه أبو بكر.

لقد حدد عمر للولاة مهمات تنفيذية لا يتجاوزونها إضافة إلى إمامة الصلاة، بينما كان هناك قضاة مستقلون وخزنة لبيوت المال لا يخضعون لسلطة الوالي. أما قادة الجيوش، فكانت لهم مهماتهم المحددة. ولم تكن لهم أية صلاحيات في التصرف بالأراضي المفتوحة، بل كانت تبنى لهم معسكرات خاصة بجيوشهم. وكان عمر يطلب من ولاته أن يدخلوا بلادهم نهارًا حتى يظهر ما يحملونه من أموال عند عودتهم. كان يرصد العيون لمراقبة ولاته ويتتبع أخبارهم، وهو ما جعل الولاة يعيشون خُوافًا مستمرًا منعهم من تأدية أعمالهم بكل أريحية.

ومن الأمثلة على الرقابة الشديدة التي كان يمارسها عمر ضد عماله ما نقله الطبري[1] من أن سعد بن أبي وقاص ابتنى له قصرًا في همدان، فأرسل عمر محمد بن سلمة ليحرق باب القصر. ونقل ابن عبد ربه الأندلسي أن عمر مر ببنيان يُبنى بآجر وجص فقال: «لمن هذا؟ قيل: لعاملك على البحرين، فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج من أعناقها، فأرسل إليه فشاطره ماله»[2].

بل إن عمر استدعى عامله على حمص عياض بن غنم فعزله وأمره بالعودة إلى رعي الغنم والكساء في عنقه لمجرد أنه كان «يلبس اللين ويأكل الطيب».

لكن موقف عمر من معاوية، الذي كان يسميه كسرى العرب!، سيختلف تمامًا. فقد كان هذا الأموي يعيش حياة ملكية كاملة في كل ما يأكل ويلبس ويركب ويسكن. وعندما سافر عمر إلى الشام تلقاه عامله هناك معاوية بن أبي سفيان في «موكب أبّهة وخيلاء» وسلم عليه فلم يرد عليه عمر محتجًا على فخامة موكبه، فأجابه معاوية: «إننا في بلاد كثر فيها جواسيس العدو، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا، وأما الحُجّاب فإننا نخاف من البذلة ـ الابتذال وعدم التكلف ـ وجرأة الرعية، وأنا بعد عاملك، فإن استنقصتني نقصت، وإن استزدتني زدت، وإن استوقفتني وقفت». فرد عمر:

(1) **الطبري**، ج 4، ص 195.

(2) ابن عبد ربه، ج1، ص 44.

«ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه، إن كنت صادقًا فإنه رأي لبيب، وإن كنت كاذبًا فإنها خدعة أريب»[1].

لقد فهم عمر أن معاوية يخدعه ويكذب عليه، ولكنه لن يتخذ تجاهه أي موقف. فهو في الوقت الذي كان يتشدد فيه على سائر عماله، فيعزل هذا ويصادر أموال ذاك، لا يفعل شيئًا تجاه معاوية. إن هذا يثير شكوكًا حقيقية حول وجود اتفاق بين الارستقراطية الأموية وثالوث السقيفة يقضي بتعاون الأمويين مع أبي بكر وعمر مقابل تمرير السلطة إليهم بطريقة أو بأخرى.

إن تثبيت معاوية واليًا على الشام قرابة عقدين من الزمن، وتمكينه من كل وسائل القوة لا يمكن إلا أن يثير مثل هذه الشكوك. فمن غير المفهوم أن يولي عمر طليقًا، ويترك خيرة الصحابة من المؤمنين الأوائل.

لقد كان ذلك مستفزًا لبعض الصحابة الذين يشهد لهم الجميع بالإيمان الراسخ والصدق والنزاهة، كما هي حالة حذيفة بن اليمان الذي اعترض بشدة على عمر وقال له: «إنك لتستعين بالرجل الفاجر!»[2]. وعلى هذا النحو سيكون قتل عثمان فاضحًا، ليس فقط لمعاوية الذي كان يخطط للاستيلاء على السلطة، ولكن أيضًا لكل الطامحين.

لا شك أن الانقسامات كانت موجودة في حياة النبي ﷺ، وطالما تحدث القرآن عن ذلك.. لكن قتل عثمان سيكشف هذه الفئات المختلفة. وستبدأ الحروب والانتهاكات لتتشكل لاحقًا المذاهب المختلفة التي ستتحول إلى قنابل انشطارية تنقسم إلى ما لا نهاية.

سيحرم قتل عثمان الأمة من فرصة تاريخية لاستعادة تجربة النبي ﷺ بكل صفائها ومثاليتها. فعلي الذي كان مؤهلًا لفعل ذلك سيتكالب عليه الانتهازيون والمنافقون والجهلة، ليكون مضطرًا في فترة حكمه القصيرة للانتقال من حرب إلى حرب. كان الأمر سيختلف لو جاء إلى السلطة في ظرف مستقر.

(1) **الطبري**، ج5، ص331.

(2) ابن عساكر، **كنز العمال**، ج 5، ص 771.

فبمجرد مبايعة الناس عليًا، بدأ طلحة والزبير في التآمر عليه. كانا من صحابة النبي الأوائل، وكان لهما تاريخ نضالي مشرف، ولكنه حب السلطة.. لقد أخرجا معهما عائشة أرملة النبي وبنت أبي بكر بينما كان القرآن يأمر نساء النبي ﷺ بالمكوث في بيوتهن وحذر الرسول عائشة بشكل خاص أن تكون المرأة التي تنبحها كلاب الحوأب. لكن كرهها لعلي سيدفعها بقوة إلى تناسي تحذيرات النبي. أما معاوية فسيفعل ما بوسعه من أجل دفع طلحة والزبير إلى محاربة الإمام، وسينضم إلى هذه الجوقة كل أولئك الجهلة والمغفلين.

لم يحارب علي أحدًا من أجل السلطة حتى عندما اُستبعد واغتُصب حقه. ولكنه بمجرد أن استلم السلطة باختيار الناس وبعد إلحاحهم، حاربه الجميع. كانت لعبة أهواء رخيصة استخدمت الدين غطاء، واستغلت بساطة الناس الذين جرى تجهيلهم على نطاق واسع منذ وفاة النبي ﷺ.

الوصل السابع

تمرد ثالوث الجمل

قُتل عثمان وبقيت الأمة بلا رأس. وكان من الطبيعي أن يفكر المسلمون في ملء الفراغ الناشىء. وهنا كان اسم علي يفرض نفسه بقوة، وهو الاسم الذي كان مطروحًا منذ البداية وتم استبعاده بطرائق مختلفة. غير أن هذه المرة تختلف عن سابقاتها، فالأمة كانت حاضرة هنا وهي التي ستختار إمامها بنفسها. إنها المرة الأولى التي تمارس فيها حقها في اختيار حاكمها بكامل حريتها.

وعلى هذا النحو تدفق الناس على علي. وكان كبار الصحابة هم المبادرين إلى ذلك، فكان أول من بايعه طلحة والزبير بإرادتيهما.. ولم يتخلف عن البيعة سوى القليل ممن سيُظهر ندمه على ذلك لاحقًا كأسامة بن زيد وسعد ابن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر.. لقد كان علي ديمقراطيًا في العمق ولم يحاول إكراه أحد على بيعته بعكس ما كان يجري من قبل، وما سيجري لاحقًا.

استعادة الشورى

كان توافد الناس تلقائيًا على الإمام. حتى الثوار لم يحاولوا الضغط على أحد وتركوا الناس يحددون خيارهم بكل حرية. كانوا في الحقيقة يميلون إلى علي، وكثير منهم سيكونون من أصحابه الخلص. لم يكن علي خيار الثوار فحسب، بل كان خيار الناس كلهم. كان يمثل الأمل بالنسبة إليهم من أجل استعادة حقوقهم المغتصبة وحريتهم المصادرة.

لكن عليًا لن يقبل طلب الناس في البداية، كان كارهًا لهذه الخلافة وجادًا في رفضها، وكان يقول لهم: «إنا مقبلون على أمر له ألوان ووجوه».. وكان يطلب منهم: «دعوني والتمسوا غيري». صحيح أن عليًا احتج بشدة على

استبعاده عن الخلافة بعد وفاة النبي، وكان يدافع عن حقه الطبيعي المنطلق على أساس كفاءاته الذاتية ووصايا النبي ﷺ، تمامًا كما كان يدافع عن حق الأمة في أن تختار حاكمها بكامل حريتها. غير أن الأوضاع التي انتهت إليها حال الأمة في عهد عثمان جعلت من الصعب أن يحكمها رجل حقوق لا يداهن. لقد تكونت على امتداد السنوات السابقة طبقة من الارستقراطيين الذين يملكون المال والوجاهات، فيما غزا الجهل والتخلف عامة الناس، وأصبح من اليسير اللعب بعقولهم.

لم تكن السلطة هدفًا بذاتها عند علي، بقدر ما كانت وسيلة لخدمة الناس. وعندما يصبح هذا الهدف صعب المنال، فإن رفض السلطة يكون منطقيًا في مقاييس علي. لم تكن هناك أية ظروف مؤاتية لقيادة أمة غارقة في جهلها، فيما كان الإصلاح يصطدم بعقبات كثيرة. لقد رفض علي أن يتحول إلى رهينة لأية جهة ليكون مجرد أداة لتنفيذ خياراتها. وهو لأجل ذلك رفض الخلافة ولم يقبلها إلا بعد إلحاح الناس وقبولهم لشروطه. لقد قبل علي أخيرًا أن يكون خليفة لأنه لم يكن من ذلك بد. فالإصرار على الرفض لا يعني شيئًا غير التهرب من تحمل المسؤولية، وهو لأجل ذلك وقف خطيبًا في الناس ليقول: «إني قد كنت كارهًا لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي أمر دونكم إلا أن مفاتيح مالكم معي. ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهمًا دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، ثم بايعهم على ذلك»[1].

لقد حدد علي شروطه في الإشراف على بيت المال، والتطبيق الصارم لأحكام الدين. لكنه من ناحية أخرى كان يخاف من استيلاء أموي آخر على السلطة. كان يخاف على الدين وأهله وكان يقول: «عدَا الناس على هذا الرجل، وأنا معتزل، فقتلوه، ثم ولّوني وأنا كاره، ولولا خشية على الدين لَمْ أجبهم»، «والله ما تقدمت عليها [الخلافة] إلا خوفًا من أن ينزو على الأمر تيْس من بني أمية، فيلعب بكتاب الله عز وجل»[2].

قبل الإمام الخلافة في النهاية بعد أن ألح عليه الناس كثيرًا و«ترددوا عليه

(1) **الطبري**: ج 4، ص 427، **فتوح البلدان**، ج 2، صص 434 ـ 436.

(2) **الطبري**، ج 4، ص 491، البلاذري، **انساب الأشراف**، ج2 ص 353.

مرارًا»[1]. لكنه رفض أن تكون بيعته خفية على نحو ما جرى مع من سبقه. وعندما جاءه طلحة والزبير في البداية يريدان بيعته، رفض أن يبايع. كان يقول: «لا حاجة لي في أمركم، فمن اخترتم فقد رضيت به»[2]. ولم يقبل أن يبايع إلا بعد أن أصروا عليه. لكنه قال: «إن بيعتي لا تكون سرًا». كان يريد أن تكون بيعته علنية وعامة وحرة، لا بيعة سرية وخاصة وإجبارية كما حدث مع الآخرين. كان يؤكد على ذلك وكان يقول: «إن بيعتي لا تكون خفيًا ولا تكون إلا عن رضا المسلمين»[3].

إن هذا يعني أن الإمام كان حريصًا أن تكون بيعته قائمة تمامًا على أساس الشورى التي تعني الاختيار العلني والحر للناس. وهو بذلك يقوم بإحياء الشورى بوصفها قيمة إسلامية لا يمكن للحاكم أو الخليفة أن يكتسب مشروعية إلا من خلالها.

لقد تاه أولئك الذين استبعدوا الشورى، وانطلقوا في الحديث عن الوصية بعيدًا عن اختيار الناس ورضاهم. فهِموا من النص الصادر عن الرسول ﷺ في شأن علي إلزامًا سياسيًا، في حين أنه كان يحمل فقط إلزامًا دينيًا يعتمد قناعات الإنسان المؤمن، وليس أكثر. كان حديث الغدير يعلن للناس أن عليًا هو الولي والإمام الذي يجب ـ وجوبًا دينيًا ـ على كل مسلم مبايعته وتسليم الأمر إليه بعد النبي. لكنه لم يكن يريد فرضه خليفة على أحد بوسائل القهر والقوة. كان النبي يريد فقط تبليغ أمر الله وإرشاد الناس إلى الشخص الذي يمكنه أن يحقق لهم أهداف الإسلام في العدالة والحرية والمساواة.. إذا اختاروه حاكمًا ونصروه، كان يخاطب فيهم قناعاتهم الدينية، ويبلغهم ما فرضه الله عليهم. وهذا كله يعني أن النبي لم يحاول قط مصادرة حرية أحد ولكنه أراد فقط أن ينير عقول الناس ويضعهم أمام مسؤولياتهم، لأن المسألة هنا هي مسألة مستقبل دين وأمة. إن عليًا هنا يقول شيئًا آخر غير ما يقوله هؤلاء.

(1) **تاريخ الطبري**، ج4، ص 428، **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص 302.
(2) **الطبري**، ج4، ص 427، **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص436، **فتوح**، ج2، ص 434.
(3) **الطبري**، ج 4، ص 427. **أنساب الأشراف**، ج3 ص 11.

وتاه أيضًا أولئك الذين راحوا ينظرون لمفهوم الغلبة أو يبررون كل ما حدث بعد وفاة النبي ﷺ ليحولوا ممارسات التآمر والإكراه والوصية والخديعة بعيدًا عن إرادة الناس واختيارهم إلى شورى. إن الشورى التي يتحدثون عنها ليس لها أي شاهد في طريقة وصول الخلفاء الثلاثة الأوائل إلى السلطة.

إن المفارقة المأسوية في وعي المسلمين تتحدد في أن الذين كان أئمتهم يمارسون الشورى ويلتزمون نتائجها في كل أبعادها، يتحدثون عن الوصية بوصفها آلية لاستلام السلطة. أما الذين كان أئمتهم يمارسون الإكراه والخديعة ويفرضون من يشاءون على الناس من خلال الوصية، يتحدثون عن الشورى آلية لاستلام هذه السلطة!

اشترط علي إذن أن تكون بيعته علنية وعامة وحرة. وهو لذلك لن يجبر أحدًا على بيعته ولن يطلبها ممن تخلف عنه. أما أولئك الذين سيعلنون التمرد عليه، فسيجعلون من قتل عثمان ذريعة لمحاربته، وتلك هي حالة ثالوث الجمل ثم معاوية وجماعته. لم يكن هدفهم الاقتصاص للخليفة، وهم الشركاء في دمه، ولكن السلطة كانت هي الهدف.

الثورة المضادة

لم يكن علي شخصًا عاديًا في الإسلام، بل كان المسلم الأول الذي استجاب لدعوة النبي، والفدائي الأول الذي موّه على المشركين ليلة هجرة النبي ﷺ، والمقاتل الأول بين يديه، والعالم الأول بأحكام الدين ومفاهيمه. وهو بعد ذلك الإمام المبرز في كل فضيلة. والمأساة الصادمة في حياة علي هي إصرار القرشيين على استبعاده ثم محاربته بكل الوسائل رغم أنه كان المرشح الأوضح لخلافة النبي منذ البداية ورغم الإشادة الواسعة للقرآن والنبي معًا ببطولاته وفضائله، والدعوة المتكررة منهما من أجل موالاته ونصرته.

كان علي يتخطى الجميع في سابقته وفضله. وكانت الأمة تعي ذلك جيدًا في البداية، غير أن هذه الأمة كانت هي الأخرى مستبعدة من القرار. فقد نجحت قريش في الإمساك بخيوط اللعبة، وهي اليوم أمام مفترق طرق. لاشك أن أكثر وجوه قريش بايعوا كما بايع الناس لكن ذلك لن يستمر طويلًا إذ

سرعان ما سيتم نكث هذه البيعة عندما سيتضح أن عليًا سيشطب كل الامتيازات التي قدمها عمر وعثمان لقريش وبني أمية.

لقد كانت المعارضة القرشية موجهة ضد شخص علي بقدر ما كانت موجهة ضد برامجه السياسية. ولم تكن ذكرى عثمان سوى ذريعة مفضوحة. كان أعداء علي واضحين منذ البداية، فبنو أمية وبنو مخزوم وحلفاؤهم كانوا يحقدون عليه، فهو بالنسبة إليهم قاتل آبائهم وأجدادهم في معارك الإسلام. وربما كان مدهشًا أن يبقى علي حيًا حتى ذلك الوقت دون أن تفتك به قريش.

أما برامج علي السياسية، فهي التي ستعجل بإعلان الحرب عليه. لقد أعلن منذ البداية أنه سيسترجع القطائع والأموال والعطايا التي قدمها عثمان لبني أمية وحلفائهم، وهذا وحده كان كافيًا للتمرد عليه ومحاربته.

بعد أن بايعه الناس، نجح الإمام في عزل عمال عثمان جميعهم، ولم يتمرد عليه سوى معاوية في الشام. وبالحماسة نفسها التي بايع بها أهل المدينة، بايع الناس في بقية الأمصار لعمال علي الجدد. كانت الفرحة عارمة وعامة، فهي المرة الأولى التي يختار فيها الناس إمامهم دون إكراه أو خديعة. لكن هذه الفرحة لن تستمر كثيرًا، لتبدأ الارستقراطية القرشية بضخ الأموال التي نهبت في عهد عثمان من أجل تأليب الناس ضد الإمام الأثير.

رفض معاوية منذ البداية وبوضوح بيعة علي. كان يمسك بالشام وكان يرى أنها لن تفلت منه. فقد أقرّه عليها عمر منذ ما يقرب من عقدين من الزمن، ولم يحاسبه كما كان يفعل مع بقية عماله، وفي عهد عثمان ازدادت صلاحياته واتسعت ولايته. واستطاع طوال هذه المدة أن يصنع عقول الشاميين بالطريقة التي يشاء، وأن يجعلهم متعلقين به.

ولأجل ذلك سيتم طرد والي علي الذي أرسله إلى الشام. وعندما أرسل الإمام لاحقًا رسولًا لأخذ البيعة من معاوية حبسه وقتًا طويلًا ثم أطلقه دون جواب. لم يرفض معاوية بيعة علي فحسب، بل كان يعد للحرب عدتها، فبدأ بتجييش الناس وتحريضهم. كان يقول لهم إن عثمان قُتِل مظلومًا، ولابد من الأخذ بثأره، فكان يجمع كل يوم 60 ألف شيخ يبكون حول قميص عثمان

الملطخ بدمه والملقى فوق منبر الجامع. لقد أصبح قميص عثمان وسيلة معاوية الناجعة لتهييج الناس، وأصبح علي في وجه العاصفة!

وفي المقابل بدأ الإمام بالاستعداد لحرب معاوية، كان لابد من القضاء على بؤرة التمرد هذه بعد أن اتسقت الأمور في بقية الأقاليم كما يقول الطبري. وانطلق الإمام في تجهيز جيش من المتطوعين في المدينة وطلب من ولاته في مصر والبصرة والكوفة أن يستعدوا بدورهم ويجهزوا المقاتلين في أقاليمهم. وعلى بعد ثلاثة أشهر من قتل عثمان، كانت الأمور تتجه نحو تصفية تمرد معاوية. فقد بدأ الإمام بترميم ما أفسده النظام السابق، وخلق توازنات جديدة تقطع مع السياسات القديمة.

لكن معاوية لن يستكين. كان يعمل في الخفاء من أجل التحريض ضد الإمام. كان يُغري طلحة والزبير بالتمرد على علي، وبعد الانتصار عليه يمكن أن يتداولا الخلافة وسيجدان الدعم الكبير من جهته[1]. كان معاوية يفهم أنه عاجز عن مواجهة علي في تلك المرحلة، ولابد من إدخاله في حرب استنزاف. كان يعرف أنه ضئيل بما لا يقاس أمام علي. فهو مجرد والٍ بلا تاريخ، أسلم كرهًا، ولا يمكنه أن يقدم نفسه منافسًا في الخلافة وهو الطليق ابن الطليق. وهنا كانت فكرة تحريض طلحة والزبير الصحابيين الكبيرين اللذين لهما تاريخ في الإسلام ويمكن أن يقدما نفسيهما مُطالبين بدم عثمان أو مرشحين للخلافة بدل الإمام الذي أصبح متهمًا فجأة بقتل الخليفة الأموي.

التآمر على الإمام

كانت قرارات الإمام صارمة من أجل إصلاح الاعوجاج الذي أحدثته ممارسات عثمان. لكن ذلك لم يعجب طلحة والزبير اللذين كانا أول من بايع. كانا يتوقعان أن يوليهما بعض الأمصار، وأن يستمر في تفضيلهما على الناس في العطاء. غير أن الإمام رفض ذلك كله، وقال إنه لا يستعين في حكمه إلا

(1) بخصوص رسائل معاوية التحريضية إلى طلحة والزبير انظر: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة ج1**، ص ص 233 ـ 310.

بمن يثق به[1]، وأنه سيعود في توزيع العطاء إلى سنة النبي ﷺ التي تقضي بالمساواة بين الجميع دون أية اعتبارات قبلية أو قومية أو دينية.

وبعد أن يئس الرجلان من تحقيق مطامحهما استأذنا الإمام في الخروج إلى مكة من أجل العمرة، في ربيع الأول 36هـ. كان علي يعلم أنهما لا يريدان العمرة، ولكنه لم يسمح لنفسه بمنع أحد من حقه في السفر كما فعل عمر سابقًا. كان علي يعتبر أن ذلك عقاب على جرم لم يقترفاه بعد، وكان يراه ظلمًا يُنزّه نفسه عن فعله. فحتى تلك اللحظة لم يصدر عن الرجلين ما يوجب اعتقالهما. لقد رفض علي دائمًا منطق الضربات الاستباقية، وقد أجاب ابن عباس الذي طلب منه اعتقالهما بقوله: «يا بن عباس! أتأمرني أن أبدأ بالظلم، وبالسيئة قبل الحسنة، وأعاقب على الظنة والتهمة، وآخذ بالفعل قبل كونه؟ كلا! والله لا عدلت عما أخذ الله عليَّ من الحكم بالعدل، ولا القول بالفصل»[2]. اكتفى الإمام بنصحهما بالبقاء معه، لكنهما أقسما أنهما لا يريدان الغدر وجددّا البيعة له. غير أن عليًا كان واثقًا بغدرهما، وكان يقول لبعض أصحابه: «والله لا ترونها إلا فتنة.. ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا». «والله يا ابن عباس ما قصدا إلا فتنة، فكأني بهما وقد صارًا في مكة ليستعينا على حربي»[3].

كان طلحة من كبار الصحابة المعروفين بالدهاء الذي لا يعني شيئًا سوى التفلت من كل القيم. حصل على ثروة ضخمة في عهد عثمان، ثم انقلب عليه وبدأ يحرض ضده في الكوفة والبصرة من خلال مراسلاته، كان طموحه أن يَلي الكوفة وما وراءها. أما الزبير، فكان ابن عمة النبي وعلي، وصهرًا لأبي بكر، كان صحابيًا كبيرًا عُرف بشجاعته وقربه من علي. وكان أيضًا من المحرضين على عثمان. وبعد قتله غيّر رأيه في الإمام تحت تأثير ابنه عبد الله. كان يطمح

(1) كان الإمام يقول في توضيح سبب رفضه تولية طلحة والزبير: «إني أخاف شرهما على الأمة وهما معي، فكيف إذا فرقتهما في البلاد». ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج11، ص16.

(2) الجمل، ص166. **ومروج الذهب**، ج2، ص366.

(3) البلاذري، **انساب الأشراف ج 3**، ص 22، **وفتوح البلدان**، ج 2، ص 451، والمسعودي، **مروج الذهب**، ج 2، ص 366.

إلى ولاية البصرة وما وراءها، لكن عليًا كان يعرف أن تقاسم السلطة على هذا النحو سيؤدي إلى تقسيم الدولة.

وقد انضمت إليهما عائشة بنت أبي بكر وأرملة النبي بعد علمت أن عليًا قد أصبح هو الخليفة. كانت عائشة تكره الإمام وتحقد عليه. ولم تخف فرحها باغتياله وهي التي سجدت عندما سمعت بذلك[1]. كانت تأخذ عليه مواساته للنبي في حادثة الإفك عندما أشار عليه بتطليقها وقال له: إن النساء كثيرات. وكانت تشعر بألم شديد لعقمها واعتبار النبي نفسه أبا الذرية الباقية من علي وفاطمة. وكانت تأخذ عليه زواجه بأسماء الخثعمية أرملة جعفر بن أبي طالب ثم أبي بكر وأم محمد بن أبي بكر الذي تربى في حجره.

لذلك كله، انقلبت عائشة على نفسها بمجرد سماعها بمبايعة علي. وبعد أن كانت تُفتي بقتل عثمان وتقول: «اقتلوا نعثلًا فقد كفر». أصبحت تدعو إلى الثأر له وتقول: «قتل عثمان مظلومًا، وإن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام»[2]. لم تكن عائشة تريد أن ترى عليًا خليفة، وكانت تطمح لأن يتولى الخلافة رجل من تيم العشيرة التي تنتمي إليها، كانت تريد طلحة ـ أو ذا الإصبع كما كانت تسميه ـ خليفة بعد عثمان حتى لو كان ذلك فوق رغبة الناس وخيراتهم.

لم تُبد عائشة أي ندم على تحريضها ضد عثمان، وعندما أخبرها عبيد بن أم كلاب بقتل عثمان قبل بيعة علي قالت: «أبعده الله، ذاك بما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد»[3]. كانت تقول ذلك لأنها كانت تتوقع أن يصبح طلحة هو

---

(1) الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص 55. ويقول الطبري في تاريخه (ج5، ص 150): «لما انتهى إلى عائشة قتل علي ﷺ قالت:

فالقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينًا بالغياب المسافر

قتله؟ فقيل رجل من مراد، فقالت:

يك نائيا فلقد نعاه غلامًا ليس في فيه تراب.

فقالت زينب ابنة أبي سلمة: ألعلي تقولين هذا؟..».

(2) **الطبري**، ج 4، ص 499.

(3) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج 6، ص 216.

الخليفة وهي لذلك كانت تخاطب قريشًا: «يا معشر قريش لا يسومنكم قتل عثمان كما سام أحمر ثمود قومه. إن أحق الناس بهذا الأمر ذو الإصبع [وهو طلحة] ثم أقبلت بسرعة إلى المدينة، وهي لا تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر»[1]. كانت تقول في الطريق: «بُعدًا لنعثل وسحقًا. إيه ذا الإصبع، إيه أبا شبل، إيه يا بن العم لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له، حثوا الإبل ودعدعوها»[2].

لكنها عندما انتهت إلى «سرف» قرب مكة، صُدمت. لقد أخبرها عبيد بن أم كلاب ببيعة علي. كان ذلك خبرًا محزنًا بالنسبة إليها. انقلبت على نفسها وطلبت إرجاعها إلى مكة وهي تقول: «قتل والله عثمان مظلومًا، والله لأطلبنّ بدمه»[3].

سيستغل طلحة والزبير انفعالات عائشة لإقناعها بالخروج معهما لحرب علي. فهي أرملة النبي ﷺ وبنت الخليفة الأول، ولابد أن تكون كلمتها مسموعة لدى الناس بسبب ذلك. لقد كان وجودها ضروريًا بالنسبة إلى طلحة والزبير من أجل تجييش الناس ضد الإمام الخليفة. وبالفعل استطاعت عائشة أن تجتذب قبائل الأزد وضبة وبني ناجية وأهل مكة وأهل البصرة.

اجتمع الجميع في مكة: عائشة، التي وصلت بعد أن رجعت قبل أن تصل إلى المدينة بعد أن سمعت بمبايعة الإمام، ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعمال عثمان الذين عزلهم الإمام؛ عبد الله بن عامر ويعلى بن منبه اللذان سرقا بيتي مال البصرة واليمن واستخدما تلك الأموال الضخمة لتمويل الحرب وشراء الذمم. ثم التحق بهم طلحة والزبير بعد ثلاثة أشهر أو أربعة من قتل عثمان. لقد وحدتهم جميعًا عقدهم المستحكمة تجاه علي.. كانوا متضررين من وصوله إلى السلطة. فقد عزل أصحاب المناصب منهم، وأوقف نهبهم لبيت المال، ورفض تفضيلهم على الناس.

---

(1) م ن، ج 6، ص 216.
(2) م ن، ج 6، ص 215.
(3) **الطبري**، ج 4، ص 459، ابن سعد، **طبقات**، ج 5، ص 88.

كانوا جميعًا يطمحون لاستعادة مواقعهم أو تحقيق طموحاتهم غير أنهم لم يكونوا قادرين على إعلان ذلك، وهو ما دفعهم إلى رفع شعارات متهالكة تدور كلها حول محور واحد هو المطالبة بدم عثمان. لقد كانوا جميعًا شركاء في دمه، لكن هدفهم من قتل عثمان لم يتحقق، وما تحقق هو عكس ما كانوا يريدون.

كان شعار المطالبة بدم عثمان مجرد ذريعة تخفي وراءها أطماع هذه الجماعة المجردة من أية مصداقية. أما عملهم، فسيكون تكامليًا، سيكمل بعضهم البعض الآخر. فقد وفر الأمويون التمويل اللازم للحرب، وكانت مهمة عائشة تأمين الحشد الشعبي ضد الإمام، فيما تولى طلحة والزبير تنظيم الجيش ورسم خطة الحرب.

اتفقوا في النهاية على الاستيلاء على البصرة التي كانت تضم بعض العثمانية، فقد استطاع عبد الله بن عامر الذي كان يحتفظ فيها بعلاقات ومصالح أن يقنع الجماعة بذلك. وتم استبعاد الشام والكوفة والمدينة. فمعاوية الذي كان يتربع على قلوب السوريين لن يسمح لأحد بمزاحمته في مجال نفوذه. أما الكوفة فكانت تميل إلى علي رغم وجود عاملها أبي موسى الأشعري الذي كان يتخذ موقفًا سلبيًا من الإمام. ولم يتم تداول اسم المدينة كثيرًا. فقد كانوا يرون أنها بعيدة عن متناولهم وهي التي تضم بقية المهاجرين والأنصار الذين كانوا يقفون بشكل تلقائي إلى جانب علي.

وبعد الاتفاق على تفاصيل التمرد، كان منادي عائشة في مكة يصيح كل يوم يطلب التأهب للمسير نحو البصرة ويعد بتوفير السلاح والزاد والراحلة لكل متطوع يحتاج إليها.

لكن عائشة كانت مترددة، كانت تعرف أن عُقدها هي التي تحركها وليس شيء آخر. وهي لأجل ذلك فوجئت عندما جاؤوها بجمل ضخم اسمه عسكر. لقد سبق لها أن سمعت نهيًا من النبي ﷺ عن ركوب هذا الجمل عندما يُعرض عليها. طلبت جملًا آخر، لكن الجماعة أوهموها بتغيير الجمل وقاموا فقط بتغيير غطائه[1]. كان النبي يريد أن لا تشارك في محاربة

(1) **شرح نهج البلاغة**، ج6، ص224.

علي، لكنها أرادت أن تفهم الأمر على نحو آخر كما لو كانت المشكلة في ركوب هذا الجمل أو ذاك.

حسمت عائشة أمرها وقررت المشاركة في الحرب على الإمام حتى النهاية، بعد أن تجمع حولها مع شركائها مجموعة صغيرة من الغوغاء لا يزيد عددهم على الألف رجل. سارت هذه المجموعة في اتجاه البصرة، وكانت عائشة تسأل عن اسم المكان كلما مروا بوادٍ أو ماء. كانت تتحسب لشيء ما. وعندما سمعت كلابًا تنبح سألت عن اسم المكان فقيل لها إن اسمه الحوأب. وهنا صعقت عائشة، وتذكرت ما كان يحذرها منه النبي ﷺ. قالت: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: كأني بكلاب ماء يدعى الحوأب قد نبحت بعض نسائي. ثم قال لي: إياك يا حميراء أن تكونيها»[1].

طلبت عائشة أن يردوها. لكن الزبير وطلحة لفّقا لها خمسين أعرابيًا ودفعا لهم رشوة ليشهدوا لها زورًا أن المكان ليس بالحوأب. كانت تلك أول شهادة زور مفضوحة في الإسلام، لكنها كانت كافية لإقناع عائشة بمتابعة الطريق.. وعلى تخوم البصرة أطلقت عائشة مفاوضاتها مع رؤساء القبائل وبدأت ترسل الرسل. كانت تحاول تخريب النظام القائم، وتشويه الحقائق. لم تكن تملك أية شرعية، لكنها كانت تملك حضورًا في نفوس بعض العوام. والمفارقة أنها كانت تقدم نفسها مدافعة عن قضية هي نفسها متهمة في ارتكابها. لقد كان هذا الثالوث: عائشة وطلحة والزبير يحرض ضد عثمان، وبعد أن قُتل بدأ يطالب بالاقتصاص له، لم يكن هدفهم الثأر لعثمان والمطالبة بدمه، بل كان ذلك مجرد شعار استخدم لأهداف أخرى تتعلق بطموحاتهم السلطوية. لاشك أنهم كانوا يعرفون قيمة علي وموقعه لدى الناس، وكان لابد من ذريعة لمحاربته.

أرسل طلحة والزبير إلى عثمان بن حنيف والي البصرة يطالبانه بإخلاء دار الإمارة. فبعث إليهما ابنُ حنيف عمران بن الحصين الخزاعي وأبا الأسود الدؤلي. تحدثا إلى عائشة وذكّراها بواجباتها الدينية في لزوم بيتها واحترام

(1) البلاذري، **فتوح البلدان**، ج 2، ص 457. المسعودي، **مروج الذهب** ج 2، ص 366.

وصايا النبي ﷺ. وتحدثا مع الزبير وطلحة، وذكراهما بالبيعة التي في عنقهما لعلي لإقناعهما بالعودة وعدم سفك دماء الناس. لكن عمران وأبا الأسود فوجئا بطلحة والزبير يوغلان في سبّ علي ويتوعدانه. لم يبق أمام الرجلين سوى العودة إلى الوالي عثمان بن حنيف وإعلامه بما سمعاه.

وهنا نصح حكيم بن جبلة عثمان بالخروج إليهم مع مجموعة من المقاتلين من أجل دعوتهم إلى احترام النظام القائم والوفاء بالتزاماتهم في بيعة الإمام أو إيقافهم عند حدهم، لأنهم إذا دخلوا المدينة فمن الممكن أن يستميلوا الكثير من الناس. لكن عثمان رفض مقترح حُكيم. كان عثمان بن حنيف مخطئًا في ذلك وكان عليه الاستماع إلى حُكيم.

وبالفعل، فقد دخل طلحة والزبير وعائشة المربد، ساحة البصرة الكبرى، وبدأوا الواحد بعد الآخر بالحديث المغشوش عن مقتل عثمان والمطالبة بدمه. وهو ما سبب انقسام الناس إلى مؤيد اختار الوقوف إلى جانب عائشة ومعارض اختار الوقوف إلى جانب ابن حنيف. وسرعان ما تدارك عثمان الموقف ليقف مع رجاله من أجل منع ثالوث الجمل من التقدم. كانت مواجهة سلمية لم تتحول إلى قتال إلا في اليوم التالي.

ولم يلبث ثالوث الجمل أن وصل إلى الزابوقة عند دار الرزق التي ستبنى لاحقًا، وهي مكان قريب من المدينة. ودارت هناك معركة حامية سقط فيها الكثير من القتلى والجرحى. وانتهت بالاتفاق على هدنة بين الطرفين إلى أن يصل الإمام علي. تصالحوا على أن تكون لعثمان بن حنيف دار الإمارة والمسجد وبيت المال، مقابل أن ينزل طلحة والزبير وعائشة حيث شاءوا دون أن يثيروا أية توترات في المدينة. أمضى الجميع كتاب الصلح ورجع عثمان بن حنيف إلى دار الإمارة وأمر أصحابه بالعودة إلى ديارهم والاهتمام بجرحاهم.

من الواضح أن طلحة والزبير غُلبا في هذه المعركة الصغيرة أو أقله فشلا في السيطرة على المدينة والاستيلاء على دار الإمارة. وقبلا الصلح مُرغمين. لكن في المقابل لم يكن عثمان يملك ما يكفي من المقاتلين لطرد هذه المجموعة نهائيًا خارج البصرة. ولأجل ذلك بدأ طلحة والزبير بالتفكير في

وسيلة أخرى لاحتلال دار الإمارة. لقد قررا مرة أخرى الغدر وعدم الوفاء بتعهدهما.

فكر الجماعة لو أن عليًا قدم وهم على تلك الحالة، فعندها سيأخذ بأعناقهم. ومن هنا قرروا مراسلة زعماء القبائل واستمالتهم من أجل خلع الإمام وإخراج ابن حنيف من البصرة. وبالفعل استجابت لهم قبائل الأزد وضبة وقيس بن عيلان وبنو دارم في معظمهم، وامتنع بنو يربوع الذين بقوا على ولائهم لعلي.

وبعد أن اطمأن طلحة والزبير لذلك قرّرا في ليلة مظلمة الانقلاب على تعهدهما وأسر عثمان بن حنيف الذي كان يصلي العشاء. أمسكوا به وضربوه ونتفوا شعر لحيته، غير أنهم تراجعوا عن قتله بسبب وجود أخيه سهل بن حنيف واليًا على المدينة، وخوفهم من ردة فعله. اكتفوا بحبسه ثم أطلقوه، فالتحق بالإمام في ذي قار[1].

كان طلحة والزبير مسكونين بهاجس السلطة. وكانا يريدان فعلًا خلع علي. ولم تكن أية أهداف أخرى حاضرة لديهما، كانا يعلنان المطالبة بدم عثمان، وإصلاح الأمور. غير أن ذلك كان مجرد ذريعة. ولذلك لن يكتفيا بأسر الوالي والتنكيل به، بل إنهما سيحاولان السطو على بيت المال. وعندما منعهم الخزنة من ذلك، ارتكبت مجزرة بحقهم، ذبِح سبعون رجلًا وقتل منهم خمسون تحت التعذيب. كانوا من السبابجة من أهل السند، لكن كان هناك أيضًا حُكيم بن جبلة العبدي سيد عبد القيس وأحد نساك ربيعة الذي قُتل أيضًا. كان مشهدًا مروعًا.

لن يكتفي طلحة والزبير بذلك، بل سيطلبان من القبائل تسليمهما «قتلة عثمان». لقد أصبح قتل عثمان تهمة متنقلة توجه إلى كل معارض. وبالفعل استجابت القبائل لطلبهم، وتمت تصفية 600 شخص، لم ينج منهم سوى رجل

(1) **أنساب الأشراف**، ج3، ص26. **والطبري**، ج4، صص464 ـ 468. **والكامل في التاريخ**، ج2، ص318.

واحد، في حفلة دم محزنة[1] رغم براءة هؤلاء الأشخاص. لقد تحول هذان الرجلان إلى هاويين لسفك الدماء. لم تكن القبائل تتصور مثل هذا التصرف، ولأجل ذلك غضبت عبد القيس التي أصرت على ولائها لعلي بعدما فقدت الكثير من أبنائها، وحرمت من عطائها وأرزاقها، وقررت الخروج من البصرة مع كثير من البكريين للانضمام إلى جيش الإمام لاحقًا.

انتشى طلحة والزبير بما صنعاه، غير أنهما كانا يعرفان أن المعركة لم تنته، فكتبا إلى أهل الشام والكوفة واليمامة والمدينة، يطلبان المدد منهم بزعم تطبيق حدود الله على قتلة عثمان.. لم تكفهما كل تلك الدماء التي سفكاها وقررا المضي في أوهامهما. لكن المدينة بقيت على ولائها للإمام. أما الكوفة فستكون الحاضن له.

تبدل الأولويات: الإمام في مواجهة ثالوث الجمل

كان علي منهمكًا في الإعداد لتصفية تمرد معاوية في الشام قبل أن يصله خبر خروج ثالوث الجمل إلى البصرة. جمع الإمام أصحابه وطلب مشورتهم، فأشار عليه عمار بالمسير إلى الكوفة، وأشار عليه ابن عباس بإرسال شخص إلى أبي موسى الأشعري والي الكوفة لطلب الدعم، ثم يلتحق بالكوفة بعد ذلك مصحوبًا بأم سلمة التي قد توفر دعمًا معنويًا في مواجهة عائشة في الطرف الآخر.

أخذ الإمام برأي عمار وقرر الخروج بنفسه، رافضًا إخراج أم سلمة، التي لا يجوز إخراجها ولا يجوز لها أن تخرج، فلربما أدركوا الجماعة في الطريق. وإذا لم يحدث ذلك يمكن مراسلة أهل الكوفة وبقية الأمصار. عندئذ.. جمع علي 700 رجل من المهاجرين والأنصار[2]، وانطلق بهم في اتجاه البصرة آملًا إدراك ثالوث الجمل. وعندما وصلوا إلى الربذة وجدوا أصحاب الجمل قد فاتوا. نزلوا بها لبعض الوقت، وهناك اجتمع إلى الإمام بعض

---

(1) **الطبري**، ج4، ص473.

(2) **الجمل**، ص239.

الحجاج فخطب فيهم خطبة يشكو فيها قريشًا ويعد بإعادة الحق إلى نصابه، كان يقول: «أمَ والله لأبقرنّ الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته، ماذا تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا..»[1].

كان خروج الإمام من المدينة يعني خروج مؤسسة الخلافة منها نهائيًا وإلى غير رجعة. لاشك أن عليًا كان يعلم ذلك وقد أجاب عبد الله بن سلام، الذي قال له ذلك وهو يغادر المدينة، إن النبي ﷺ قد أخبره بما يقول[2]. كان الإمام في الحقيقة مضطرًا للخروج، لأن الكوفة كانت تضم «الرجال والأموال» كما كان يؤكد، ولأنها ستكون لاحقًا المكان الأفضل للانطلاق في مواجهة معاوية.

كان الإمام إذن يريد الكوفة، وهو لذلك لم يخف ارتياحه عندما علم أن أصحاب الجمل اتجهوا إلى البصرة، وقال: «إن أهل الكوفة أشد إلي حبًا، وفيهم رؤوس العرب وأعلامهم»[3]. ومنذ الآن سيعمل علي بقوة من أجل كسب الكوفة إلى جانبه، وسيبدأ لأجل ذلك بإرسال الرسل إليها. أرسل محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وكتب معهما: «إنني قد اخترتكم على الأمصار، وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعوانًا وأنصارًا»[4]. لكنه لم ينس أن يكتب إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة يؤكد له حقيقة ثالوث الجمل ودوافعهم، ويدعوه إلى تخييرهم بين العودة عن نكثهم والدخول في الطاعة أو القتال.

لم يكن خافيًا أن بعض أصحاب الإمام كان في شك من أمره. كان بعضهم يستعظم محاربة طلحة والزبير وعائشة بسبب نظرتهم التقديسية للأشخاص الذين تحولوا في تصورهم إلى مقياس للحقيقة. وهنا كان لابد للإمام من توضيح الأمور. كان يقول لهم: «إن الحق والباطل لا يُعرفان

(1) الإمام علي، **نهج البلاغة**، خطبة 33.

(2) **المستدرك على الصحيحين**، ج 151، ح 4678. **صحيح ابن حبان: ج 15**، ح 6733.

(3) **الطبري**، ج 4، ص 477.

(4) **الطبري**، ج 4، ص 478.

بالناس، ولكن اعرف الحق تعرف أهله، أعرف الباطل تعرف من أتاه»[1].
وكان يؤكد لهم: «والذي بعث محمدًا بالحق وكرّم وجهه، ما كذبت ولا كذّبت، ولا ضللت ولا ضُل بي، ولا زللت ولا زُل بي، وإني لعلى بينة من ربي، بيّنها الله لرسوله، وبيّنها رسوله لي، وسأدعى يوم القيامة ولا ذنب لي، ولو كان لي ذنب لكفّر عني ذنوبي ما أنا فيه من قتالهم»[2].

إنه يعرف تمامًا أنه صاحب الحق، وأنه يقاتل هذا الثالوث على خروجهم على الجماعة ونكثهم البيعة. لقد أصبحوا مجموعة خارجة على القانون، ومحاربة للدولة. ومن حق الدولة في هذه الحالة أن تدافع عن نفسها. كانت تلك أمور لابد للإمام من توضيحها لأصحابه ولسائر الناس وللتاريخ أيضًا، لأن الكثيرين يجهلون الواقع، ويسجنون أنفسهم في كهوف الماضي ليحكموا على الآخرين من خلال ماضيهم لا من خلال حاضرهم.

ومثل هذه النزعات التقديسية للأشخاص هي التي ستسبب كل تلك الانقسامات داخل الأمة. بل إن البعض يسمح لنفسه اليوم بتقديس كل أولئك الصحابة الذين قاتل بعضهم بعضًا، وكان منهم من لا علاقة له بالدين وأحكامه إلا على مستوى الظاهر. وعندما يظهر من يملك الجرأة لنقد كل تلك الممارسات المنحرفة بعد وفاة النبي ﷺ تلصق به كل التهم.

وقف علي يحذر من ذلك كله ويقول إن الأمة ستنقسم بشدة إلى فرق ومذاهب بسبب هذه النزعة. وإن التزام هدى القرآن وسنة النبي في مصادرها الصحيحة هو بوابة النجاة. إن الإمام لا يقدم هذا الدرس لأصحابه فحسب، بل إنه يقدمه لكل الأجيال اللاحقة: لا مجال لتقديس أي شخص ليكون مقياسًا للحقيقة، بل إن الحقيقة هي التي يجب أن تكون المقياس في حكمنا على الأشخاص والأحداث.

كان أبو موسى الأشعري واليًا على الكوفة. لقد استمر في ولايته ولم

---

(1) اليعقوبي، ج 2، ص 210. **أنساب الأشراف**، ج 3، ص 64.

(2) **شرح نهج البلاغة**، ج 1، ص 265.

يعزله الإمام علَى كره منه بإلحاح من مالك الأشتر. وعندما وصل محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة لاستنفار الناس، ثبّطهما أبو موسى وأفتى لهما بعدم جواز الخروج والقتال مع علي. لقد كان هذا الرجل عثمانيًا منحرفًا عن الإمام. وكان قد أصبح عامل عثمان على الكوفة بعد طرد سعيد بن العاص منها.

وبعد فشل المحمدين، بعث الإمام هشام بن عتبة أحد قادة الفتح وصاحب المنزلة الرفيعة، وحمّله كتابًا إلى الأشعري يأمره باستنهاض الناس، غير أن هذا الرجل كسر الكتاب ومحاه. فكتب هشام إلى الإمام يخبره بما صنع، عند ذلك دعا علي عمارًا وابنه الحسن وكتب معهما كتابًا شديد اللهجة يعزل فيه الأشعري ويصفه بالخائن ويهدده بقوة.

وعندما وصل الرسل دخلوا في حوار مع أبي موسى لكنه أصر على عناده. وهنا دخل الحسن وعمار المسجد وخطبا في الناس. وبعد أن انهيا خطبتيهما، صعد أبو موسى المنبر يريد أن ينقض ما قاله الحسن وعمار ليثبط الناس معتمدًا على حديث نسبه إلى النبي ﷺ ويذكر فيه الفتن ويقول: «وأنت فيها نائمًا خير منك قاعدًا، وأنت فيها جالسًا خير منك قائمًا، وأنت فيها قائمًا خير منك ساعيًا»[1]. كان عمار يعرف الحديث ومن هو المقصود به، فقام إليه وقال له: إن النبي عناك وحدك بذلك وإن الرسول أمر عليًا بقتال الناكثين والقاسطين وسماهم له، ثم جذبه وأنزله عن المنبر[2].

رفض الأشعري الإقالة من منصبه.. وعندما فشل الحسن وعمار في إبعاد هذا الرجل بعث الإمام مالك الأشتر الذي كان سببًا في تثبيت الأشعري في منصبه. كان الأشتر يملك شخصية نافذة وقوية ومؤثرة، وكان مسموع الكلمة في الكوفة قلب الثورة على عثمان ومنطلقها. والكوفة هذه كانت مدينة مسيَّسة، ملأى بالقراء والموالين لعلي. وكان إقرار أبي موسى عليها خطأً فادحًا ارتكبه الأشتر الذي ألح على الإمام. كان عليه أن يصحح خطأه ويحل عقدة الأشعري.

(1) **الطبري**، ج 4، ص 482. **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص 327.

(2) **شرح نهج البلاغة**، ج 14، ص 14. **الأخبار الطوال**، ص 145.

لقد انخدع الأشتر بهذا الرجل، وكان يظن أنه صاحب تقوى لكنه الآن يفهم أنه بعيد عن ذلك. دخل الأشتر الكوفة وانتهى إلى قصر الإمارة في جماعة من الناس، وكان أبو موسى يخطب في الناس يريد تخذيلهم عن الإمام بينما كان الحسن يطالبه بالاستقالة.

خرج غلمان الأشعري يشكون إليه مالكًا الذي مر توًا بهم. وعندما نزل أبو موسى ودخل القصر صاح به الأشتر: «أخرج من قصرنا.. أخرج الله نفسك! فوالله إنك لمن المنافقين قديمًا»[1]. وعلى هذا النحو حسم الأشتر الموقف وطرد الأشعري من الكوفة، وأصبح ممكنًا إرسال قوات إمداد إلى الإمام. كانوا قرابة 12 ألف رجل، أمكن للإمام من خلالهم تكوين جيش يضم أغلبية القبائل. ومع ذلك فإن ما كان يقوله أبو موسى الأشعري ترك أثره السلبي في كثير من الناس الذين أصابهم الشك والتردد في الخروج مع الإمام.

كان أبو موسى يمثل فئة من القشريين الذين لا يملكون ثقافة الإسلام. إنهم مجموعة من المتظاهرين كثيري العبادة، لكنهم لم يكونوا يفهمون عمق الإسلام، وهؤلاء هم الذين سيشكلون النواة الأولى لظاهرة الخوارج.

وفي كل الأحوال، كان للإمام في الكوفة أنصار ناشطون ومؤثرون يحملون ثقافة الإسلام ويفهمون قيمه. وهؤلاء هم النُفّار وأهل الجماعة الذين واجهوا أبا موسى الأشعري كما فعلوا من قبل مع عمال عثمان. كانوا في الحقيقة علماء دين عقلانيين وملتزمين. وهم لذلك سيلتفون حول علي، وسيكون علي إمامًا لهم.

وعندما وصل الكوفيون إلى ذي قار، رحّب بهم الإمام بحرارة ثم خطب فيهم موضحًا موقفه من ثالوث الجمل. أكد لهم أن طلحة والزبير بايعاه بإرادتهما الحرة، ولم يُكرها على البيعة قط كما بدآ يدعيان. وهما الآن ينكثان تلك البيعة ويفسدان النظام العام ويقتلان المسلمين[2]. كان الإمام يتألم من

---

(1) **الطبري**، ج 4، ص 468.

(2) كان طلحة والزبير يبرران نكثهما للبيعة بأنهما قد أكرها عليها. غير أن ذلك لا حقيقة له. وإذا ما استثنينا رواية سيف الضعيفة التي يوردها الطبري، فإن كل المصادر تشير إلى أنهما =

تصرفات هذه الجماعة. وهو الآن يريد إخماد الفتنة التي افتعلوها. كان يريد إصلاح مرحلة كاملة من السياسات المنحرفة، من أجل إعادة الأمور إلى نصابها.

لكن في المقابل كان ثالوث الجمل يصر على الاعوجاج ويمارسه. كان يتحدث أحيانًا عن الانتقام لعثمان وأحيانًا أخرى يتحدث عن الإصلاح. لم يصبروا على علي لا شهرًا ولا سنة، وهم لذلك لا يجدون أي مأخذ على الإمام. وحتى القصاص لعثمان يحتاج إلى استقرار الأوضاع حتى يمكن للعدالة أن تأخذ مجراها. وهذه العدالة لن توفر حينئذ طلحة والزبير وعائشة الذين طالما حرضوا على قتل عثمان.

لم يكن علي يريد تحقيق الإصلاح من خلال الحرب، بل كان يحاول ما أمكنه تجنب الحرب وإصلاح ما فسد عبر التفاوض والحوار وصولًا إلى السّلم الاجتماعي. ومع ذلك كان الإمام يتجهز للحرب ويُعد لها عدتها. فالطرف المقابل، أصحاب الجمل، خرجوا من مكة للاستيلاء على البصرة مهما كانت الوسائل، ثم مواجهة الإمام انطلاقًا منها.. كان الإمام يدافع عن النظام الذي يقوده، فيما كان طلحة والزبير في موقع الخارجين على الشرعية والمثيرين للفتنة.

لاشك أن الإمام كان رجل حرب بامتياز، لقد كان سيف النبي في معاركه كلها، وكان نصره المؤزر. وإذا كان الإمام مع النبي ﷺ يحارب الكفر، فإنه اليوم مستعد لمحاربة الضلال. لكن ينبغي القول إن الحرب بالنسبة إلى علي كانت آخر الدَّوَاء، وهو لذلك سيبذل ما بوسعه لتجنبها. سيفاوض ويحاور دائمًا قبل خوض المعارك. إنه بذلك يستعيد التقليد النبوي في مواجهة المشركين.. إن ما كان يؤرق الإمام هو إصرار الأطراف المقابلة دائمًا على الحرب. فهذه لا

= كانا المبادرين إلى البيعة بإلحاح. لقد بايعا بشكل حر غير أنهما انقلبا على الإمام عندما رفض تلبية مطالبهما المادية وطموحاتهما السياسية. وكان الإمام يقول: «لقد بايعاني طائعين غير مكرهين». ومهما يكن، فإنه لا شيء يبرر خروجهما على الشرعية وقتلهما للناس بعد أن أصبح علي خيار الأكثرية.

تعني شيئًا سوى إراقة دماء مسلمين لا علاقة لهم بدم عثمان تمامًا كما فعلوا مع القيسيين والسبابجة.

الدعوة إلى الحوار

تحرك الإمام بجيشه من ذي قار نحو البصرة ونزل في «الزاوية» حيث صلى أربع ركعات وعفّر خديه بالتراب، ودعا الله أن يحقن دماء المسلمين.. كان فعلًا يريد تجنب الحرب لكنه كان يتحسب لها. جمع الإمام أصحابه وخطب فيهم، كان يريد أن يؤكد لهم عدالة قضيته ويدعوهم للصبر والشدة على العدو. كان ذلك إعدادًا نفسيًا ضروريًا من أجل تحقيق النصر في المعركة. لكنه في كل الأحوال سيمنع أصحابه من البدء بالقتال. لقد أراد الإمام أن يستنفد كل الوسائل لتجنب الحرب، وهو لأجل ذلك سيرسل موفديه إلى ثالوث الفتنة في محاولة لإقناعهم بالعودة عن قرار الحرب.

كان الإمام قد أرسل صعصعة بن صوحان عند خروجه، ولم يتلق سوى أجوبة سلبية من طلحة والزبير. وهو الآن يرسل عبد الله بن عباس لكنه يتلقى الردود نفسها. كانت حجج الإمام قوية وحاسمة، ولأجل ذلك ردت عائشة: «لا طاقة لي بحجج علي بن أبي طالب»[1]. لكن عائشة وجماعتها ركبوا رؤوسهم وفقدوا القدرة على التراجع عن أخطائهم. كانوا يفكرون في شيء واحد هو الحرب.

لكن تلك المناظرات كان لها تأثيرها لدى بعض القبائل، فقد قرر أربعة آلاف مقاتل من قبيلة تميم الكبيرة، بتأثير من زعيمها الأحنف بن قيس، الانسحاب من المعركة. لقد خير الأحنف الإمام بين أن يأتيه في مئتي سيف أو أن يحبس عنه أربعة آلاف سيف. فاختار الإمام العرض الثاني. نجح الأحنف في تحييد قسم كبير من التميميين، لكنه لم ينجح في تحييد التميميين الآخرين الذين انخدعوا بادعاءات ثالوث الجمل وأصروا على محاربة الإمام.

---

(1) البلاذري، **فتوح البلدان**، ج 2، ص 467.

وبشكل مواز، تشكل تيار اعتزل الطرفين. ربما لم يستطع أن يفهم الجهة المحقة، أو ربما كان يفهم ولكنه فضّل السلامة. وفي كل الأحوال، لابد أن يكون هناك دائمًا طرف ظالم وآخر مظلوم في كل نزاع.. لابد من معتدٍ ومُعتدى عليه. وعندما تكون الصورة غير واضحة، يكون الاعتزال أولى. أما عندما تكون الصورة واضحة فإن الاعتزال يصبح خذلانًا للحقيقة وتواطؤًا مع المعتدين.

ولأجل ذلك لم يتردد الكثيرون في الانضمام إلى الإمام عندما تبين لهم أنه على حق وأن عائشة وجماعتها على باطل. هاكم مثالًا على ذلك: «أقبلت عائشة في هودج من حديد وهي تنظر من منظر قد صُيِّر لها في هودجها فقالت لرجل من ضبّة وهو آخذ بخطام جملها أو بعيرها: أين ترى علي بن أبي طالب؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يده إلى السماء، فنظرت فقالت: ما أشبهه بأخيه! قال الضبّي: ومن أخوه؟ قالت: رسول الله ﷺ. قال: فلا أراني أقاتل رجلًا هو أخو رسول الله ﷺ فنبذ خطام راحلتهما من يده ومال إليه»[1].

وهذا مثال آخر: «أقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة[...] فقال: أخبرني عن قتلة عثمان! فقال: نعم، دم عثمان ثلاثة أثلاث، ثلث على صاحبة الهودج ـ يعني عائشة ـ وثلث على صاحب الجمل الأحمر ـ يعني طلحة ـ وثلث على علي بن أبي طالب. وضحك الغلام وقال: ألا أراني على ضلال؟! ولحق بعلي، وقال في ذلك شعرًا»[2]. إنهما مثالان عن أشخاص لم تكن الصورة واضحة في أذهانهم، أو أنهم انخدعوا بخطاب ثالوث الجمل، ثم في لحظة صدق مع الذات قرروا الانضمام إلى الإمام بعدما اتضحت في أذهانهم صورة الحقيقة.

التقى الجيشان في الخُريبة في ضواحي البصرة يوم الخميس 15 جمادى 36هـ [= 9 ديسمبر 656م][3]. ضم جيش الإمام عشرين ألفًا، بينما بلغ جيشُ

(1) **موسوعة الإمام علي**، م س، ج 5، ص 208.
(2) **الطبري**، ج 4، ص 465.
(3) **الطبري**، ج 3، ص 501.

ثالوث الجمل ثلاثين ألفًا. خرج علي على بغلة النبي مجردًا من السلاح، وطلب الزبير ليذكره بحديث سمعه الزبير نفسه من النبي ﷺ. قال له: «أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ في بني بياضة وهو راكب على حماره، فضحك إليّ رسول الله وضحكت إليه، وأنت معه، فقلت أنت: يا رسول الله ما يدع علي زهوه، فقال لك: ليس به زهو، أتحبه يا زبير؟ فقلت: إني والله لأحبه. فقال لك: إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم. فقال الزبير: استغفر الله، والله لو ذكرتها ما خرجت، فقال له [علي]: يا زبير ارجع، فقال: وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان؟ [الحزام] هذا والله العار الذي لا يُغسل. فقال: يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار. فرجع الزبير»(1).

استطاع الإمام أن يُقنع أخيرًا الزبير بخطئه ودعاه إلى اعتزال الحرب. غير أن ابنه عبد الله اتهمه بالجبن وهو ما أزعجه وأثاره فهجم على ميمنة جيش الإمام ثم ميسرته والإمام يقول: «أفرجوا له فقد هاجوه». لقد حاول ابنه إحراجه بهذه التهمة، فأراد أن يثبت عكس ذلك ثم انصرف معتزلًا الحرب.. هرب الزبير نحو المدينة، لكن ابن جرموز أدركه في وادي السباع وطعنه بين كتفيه غيلة فأرداه.

وإذا أمكن للإمام أن يخرج الزبير من المعركة، فإن طلحة أصر على موقفه رغم أن الإمام حاول أن يثنيه هو الآخر. ولن تكون عاقبته أفضل من عاقبة الزبير، فقد رماه حليفه مروان بن الحكم بسهم مسموم وسُحب من المعركة ليموت لاحقًا متأثرًا بجراحه. وكان مروان يقول إنه أدرك ثأر عثمان بذلك(2). من الواضح أن جماعة الجمل كانوا يدركون أنهم يظلمون عليًا والأمة كلها وهم يمزقون صفها، ويدخلونها في المجهول.

أما علي فكان على يقين أنه صاحب الحق، وكان يتلو الآية الكريمة: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ

(1) **الطبري**، ج 4، ص 508.

(2) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج3، ص223. البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج3، ص43. **تاريخ الطبري**، ج 4، ص 509.

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾[1]. وكان يحلف «إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا منذ نزلت»[2].

بقي علي ثلاثة أيام يحاول إقناع زعماء الفتنة بالرجوع عن عنادهم، لكنه لم ينجح إلا في التأثير في الزبير الذي ترك المعركة مبكرًا. وفي الحقيقة لم يمل الإمام محاولة تجنب الحرب. أخذ مصحفًا وطلب من يأخذه ويدعو ثالوث الجمل إليه. أخذه في النهاية شاب بعد أن ألح على الإمام في ذلك. أخبره الإمام أنه يقتل وضمن له الجنة. وبالفعل أخذ المصحف ووقف بإزاء الصفوف وقال هذا كتاب الله وأمير المؤمنين يدعوكم إلى ما فيه. لكن عائشة أمرت بطعنه بالرماح فاستشهد، تمامًا كما أخبره الإمام الذي لا يمكن لأحد غيره أن يفعل ذلك. كانت صدمة كبيرة للبصريين الذين أصبحوا يشكون بقوة في صواب موقفهم. فهم أمام إمام يبرهن لهم في كل مواقفه وكلماته أنه وصي النبي الذي ظُلم كما لم يُظلم أحدٌ سواه.

الاحتكام إلى السيوف

التحم الجيشان واشتد القتال، كان الإمام يحارب بنفسه. وعندما تلكأ ابنه محمد عن التقدم بالراية التي كان يحملها أخذها منه بعد أن رأى أصحابه يُقتلون وأصبحت الكفة تميل إلى البصريين. كان الإمام يضرب بسيفه حتى أشفق عليه أصحابه وخافوا أن يصيبه أذى. لقد كان علي ذلك القائد الذي لا يطلب شيئًا من الآخرين حتى يكون هو المبادر إليه.

سقط الكثير من القتلى لينتهي الجزء الأول من المعركة قرابة الظهر وقد أصبح الزبير وطلحة في عداد القتلى.. فيما تمكن عبد الله بن الزبير من النجاة بنفسه بعد أن ضربه الأشتر ضربة موجعة في وجهه قبل أن يفرج عنه. ولم يلبث الطرفان أن استأنفا القتال بعد الظهر. أصبحت عائشة هي القائد الفعلي للمعركة من جانب البصريين، وأصبح جملها محور القتال. لقد تحول الجيشان إلى كتلتين ضخمتين دون أجنحة. وسقط عدد من أصحاب

---

(1) سورة التوبة، الآية: 12.

(2) محمدي ريشهري، **موسوعة الإمام علي**، ج5، ص224.

الإمام، فاستشهد سيحان بن صوحان وأخوه زيد فأخذ عنهما الراية أخوهما صعصعة. لكن القتلى في جانب البصريين كان عددهم أكبر، كان أكثرهم من ضبة والأزد، وكانوا يُعدّون بالآلاف.

أما عائشة الجالسة في هودجها الحديدي، فقد أصبحت تتحسب للهزيمة، وبدأت تطلق صرخاتها الداعية لإيقاف الحرب. وعندما عرفت أن الكوفيين مصرون على إنهاء المعركة بالطريقة التي يرونها، دعت البصريين إلى لعن قتلة عثمان لينطلق دوي اللعن. كانت تريد تهييج البصريين من أجل الصمود في المعركة.

لاحظ الإمام أن الجمل تحول إلى كعبة يطوف حولها البصريون، فطلب من أصحابه عقر الجمل. وهنا تقدموا نحوه وكشفوا عنه أهل البصرة وضرب أعين بن ضبيعة عرقوبه بالسيف ليغرق بين القتلى وهو يطلق رغاء.. ثم صاح الإمام بمحمد بن أبي بكر ليقطع البطان ويلقي الهودج المشكوك بالنبال كالقنفذ. بمجرد أن فعل ذلك محمد بمساعدة عمار، خمدت نار المعركة كما لو كانت «جمرة صب عليها الماء»[1]. كان ذلك مشهدًا مثيرًا ومدهشًا كما لو كان الجمل صنمًا قد تحطّم.

ما بعد المعركة

لم تستمر المعركة أكثر من يوم واحد، غير أنها خلّفت آلاف القتلى. خليط من الشهداء والمخدوعين والحاقدين.. الذين ودعتهم العيون الدامعة والقلوب الحزينة. غير أنه لم يكن هناك بد من القتال بعد أن أصر «الناكثون» عليها. لم يكن هناك شيء آخر غير الحرب يوقف الخارجين على النظام عند حدهم.

وتجمع المصادر أن عدد القتلى في جيش الإمام كان خمسة آلاف، لكن عدد القتلى في الجانب الآخر وقع فيه اختلاف كبير. في بعض المصادر قُتل منهم ثلاثة عشر ألفًا[2]، وفي مصادر أخرى عشرة آلاف أو خمسة

(1) المسعودي، **مروج الذهب**، ج 2، ص 375.

(2) المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص 360.

آلاف[1]، ويوصل ابن عبد ربه الرقم إلى عشرين ألفًا[2]. لاشك أن رقم العشرين ألفًا مضخم، لكن في المقابل فإن الرقم خمسة آلاف الذي يورده سيف بن عمر وينفرد به مشكوك فيه، فسيف هذا يختلق عادة الأخبار والأرقام والأشخاص.. ولا يمكن الاطمئنان إليه. ولعل رقم عشرة آلاف هو الرقم الأقرب إلى الواقع. وهو رقم يتطابق مع نبوءة الإمام علي لما بلغه خروج عائشة: «وقد ـ والله ـ علمْتُ أنها الراكبة الجمل لا تحل عقدة ولا تسير عقبة ولا تنزل منزلًا إلا إلى معصية، حتى تورد نفسها ومن معها موردًا يقتل ثلثهم ويهرب ثلثهم، ويرجع ثلثهم»[3].

كانت إذن معركة دامية، مشبعة بالمأساة حاربت فيها القبائل بعضها بعضًا. كانوا مشتركين في الإثنية، لكنهم كانوا مختلفين في التزاماتهم الدينية. فالمؤمن في النهاية لا يقاتل مؤمنًا، وإذا حدث ذلك، فإن المعتدي يكون قد فقد إيمانه. كانت معركة في سبيل الدين من جهة الإمام وصحبه، ولكنها كانت معركة في سبيل الدنيا من جهة جماعة ثالوث الجمل.

ومع ذلك لم يعامل الإمام البصريين كخارجين على الملة بتاتًا. اعتبرهم مسلمين وعاملهم على هذا الأساس، وهو لذلك سيمنع من الإجهاز على الجرحى أو ملاحقة الهاربين أو قتل الأسرى أو نهب البيوت. وكان ينادي: «من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن». كانت سماحة تفوق حتى تصور أعدائه الذين لو كتب لهم النصر لنكلوا بالناس وأخذوهم كل مأخذ.

كان محمد بن أبي بكر قد أخذ أخته إلى دار عبد الله بن خلف في البصرة حيث كانت النساء يبكين ابني خلف، عبد الله الذي كان في صف عائشة وعثمان الذي كان في صف الإمام. وعندما وصل علي إلى دار أبي خلف انفجرت صفية بنت الحارث أرملة عبد الله في وجهه تسبه وتشتمه وتصفه بـ«قاتل الأحبة»، لكن الإمام أعرض عنها وكان يعرفها منذ كانت صبية. دخل

(1) **الطبري، تاريخ الملوك..** ج4، ص 539.
(2) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج3، ص 324.
(3) المفيد، **الإرشاد**، ج1، ص 246.

على عائشة، وتحدث معها. عاملها بلطف ومنع من الإساءة إليها ثم جهزها في اليوم التالي وأعادها إلى المدينة في أربعين امرأة متنكرات في ملابس الرجال يحرسنها.

وفي الوقت الذي كان الإمام يغادر الدار، كانت صفية تكرر شتائمها ضده، فأجابها هذه المرة بأنه لو كان قاتلًا لقتل من هو مختبئ في الغرف المجاورة، وكان يشير إلى مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر وغيرهم.. اكتفى بذلك ومنع رجاله من التعرض لها.

تألم الإمام كثيرًا على القتلى، وصلى عليهم جميعًا كوفيين وبصريين ثم دفنوا في مقبرة مشتركة. لقد وجد هذا الإمام العظيم نفسه في مواجهة حتمية تاريخية تقضي بمواجهة أشخاص مخدوعين.. إنها قريش التي أبت إلا حربه كما فعلت مع النبي من قبل. لن يذهب علي إلى تكفير أعدائه جملة وتفصيلًا. بل كان يميز بين عوام لا يعرفون وجه الحقيقة، وزعماء تقودهم أهواؤهم.

أما ما غنمه الإمام في ساحة المعركة من أسلحة ودواب وأموال، فباعه وقسمه على أصحابه، ثم فتح بيت المال وقسم ما فيه أيضًا بينهم، ولم يأخذ لنفسه شيئًا، لم تغره كثرة الأموال، وكان يقول: «يا خضراء ويا بيضاء غرُي غيري»(1)، لم يستحوذ على شيء من أموال المسلمين كما فعل طلحة والزبير اللذين نهبا بيت المال وكانا يقولان: «هذه الغنائم التي وعدنا الله بها»(2)، أو كما كان يفعل عثمان ذلك. كان علي ذلك الإمام الذي يريد إحياء النزعة المساواتية في الإسلام.

ثم جمع أهل البصرة فوبخهم وحذرهم من العودة إلى الشقاق وأكد لهم أنه هو وأصحابه على الحق وأنهم كانوا يقاتلون إلى جانب معتدين وظالمين، ثم جلس يبايعه الناس. كانت عملية من أجل محو آثار النكث والعودة إلى الصواب، وتوحيد الأمة من جديد. لقد فهموا أنهم أخطأوا، وأنه يتوجب عليهم العودة إلى نظام الدولة التي أرادوا تمزيقها. لقد بايعوا الإمام من قبل،

(1) الجمل، ص285.
(2) م.ن، ص285.

ولكنهم خضعوا لخداع ثالوث الجمل، كانوا ربما يفتقدون الوعي السياسي الكافي، والمعرفة الدينية الصحيحة والسلوك الأخلاقي القويم. ولكنهم الآن يفهمون أن عليًا هو صاحب الحق، وأنه بعفوه وسماحته يستعيد سيرة النبي ﷺ. وهم لذلك يبايعونه على السلم والحرب. فالإمام منذ الآن سيبدأ بالاستعداد للحرب القادمة ضد المنشق الآخر معاوية بن أبي سفيان بعد أن نجح في إخماد الفتنة وتجاوز الأحقاد وترسيخ الشرعية.

الوصل الثامن

المواجهة الجديدة.. حرب صفين

استخلف الإمام عبد الله بن عباس على البصرة.. ثم كتب إلى أهل الكوفة يخبرهم أنه قادم إليهم، ولم يلبث أن وصل إلى الكوفة يوم الاثنين 12 رجب 36 هـ. نزل في الرحبة ورفض النزول في قصر الإمارة، ثم دخل المسجد وخطب في الناس. شكر لهم استجابتهم لندائه ودعمهم له ضد ثالوث الجمل، ولكنه عتب على المتخاذلين الذين قصروا في نصرته.

كان الإمام أمام تحد آخر يقوده معاوية في الشام، وكان عليه الاستعداد من جديد لحرب جديدة. كان معاوية يمسك بقوة بأهل الشام، فقد استطاع على امتداد عقدين من الزمن أن يشكل عقولهم بالطريقة التي يشاء. كان شخصًا بلا دين ولا قيم، فهو في النهاية واحد من الطلقاء الذين أسلموا كرهًا وبقوا بعيدين عن ثقافة الإسلام. ولأجل ذلك لم يتورع معاوية عن استخدام كل الوسائل مهما كانت غير أخلاقية من أجل تحقيق أهدافه في الاستيلاء على السلطة.

لقد وجد معاوية كل شيء مهيأ لخدمة مخططاته. فقد كانت للأمويين علاقات تاريخية قديمة في الشام تعود إلى جده أمية بن عبد شمس الذي نُفي إلى الشام بعد خلاف مع عمه هاشم بن عبد مناف، حيث أقام هناك عشر سنوات. ثم عمق أبو سفيان هذا الحضور عندما اشترى أراضي واسعة في الشام وبنى شبكة من العلاقات الشخصية مع كثير من الوجهاء والارستقراطيين.

وعندما آلت الخلافة إلى أبي بكر، قرّب هذا الخليفة الارستقراطية القرشية، وأصبح يزيد ومعاوية ولدا أبي سفيان من قادة الجيوش التي فتحت الشام، وكان أبو سفيان مرافقًا لهما يروي الأساطير والخرافات للناس، ويزوّر الأحاديث على لسان النبي ﷺ.

الإمساك بالشام

وبعد فتح الشام، ولّى عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان عليها، لكنه مات في طاعون «عمواس» بعد أشهر (17 ـ 18هـ)، وأوصى إلى أخيه معاوية لتنتقل إليه ولاية الشام دون إذن من عمر الذي لم يفعل سوى الإقرار بما حدث. وبذلك أصبح معاوية واليًا على الشام كلها بداية من سنة 18 هـ، بعد أن ورث ولاية الشام عن أخيه. ثم أضاف له عثمان في خلافته منطقة الجزيرة سنة 25 هـ. وهذا يعني أن معاوية استمر واليًا على الشام 18 سنة (من سنة 18هـ إلى 36 هـ)، وهي مدة كافية لأن يحشو عقول أهل الشام بما يشاء، وأن يضع السياسات التي تخدم أهدافه بعد أن أعطاه عمر ثم عثمان الحرية الكاملة في أن يحكم كما يشاء.

كان معاوية يتصرف كما لو كان ملكًا. أحاط نفسه بهالة من الأبهة والبذخ وبنى لنفسه قصر الخضراء الذي كان يغصّ بالحراس. كان يتحرك في موكب كما يفعل الأباطرة. ولا يسمح لأحد بالدخول عليه دون إذن مسبق. كان في الحقيقة بعيدًا عن الخط الذي رسمه النبي ﷺ، ملتزمًا بالتقاليد الإمبراطورية التي كانت سائدة لدى الفرس والروم.. ومع ذلك لم يجد أية اعتراضات من قبل أهل الشام الذين لم يعرفوا غير معاوية واليًا عليهم، والذين ألفوا مثل هذه الممارسات من حكامهم السابقين من البيزنطيين.

ومع وصول عثمان إلى السلطة، استطاع معاوية أن يحتفظ بموارد الشام لنفسه، وهو ما مكنه من بناء قوة عسكرية خاصة به، والإنفاق بسخاء على حاشيته وأتباعه والمقربين منه، واستقطاب زعماء القبائل ووجهاء القوم. وعلى هذا النحو أقر معاوية كل المظاهر السلطوية السابقة على الإسلام. ولم يكتف بذلك، بل إنه أبقى على النظام الاقتصادي والاجتماعي السابق كما لو كانت بلاد الشام لم تفتح. استمر مثلًا العمل بالمعاملات الربوية وإقرار التفاوت في توزيع العطاء ومنع المعارضين منه، كما أبقى مؤسسات القضاء وأجهزة الشرطة في أيدي كبار الملاكين للعقارات وأثرياء المدن وكبار التجار من السكان الأصليين.

وفي ظاهرة معبرة تعكس تصرف معاوية في الشام كما لو كانت إقليمًا مستقلًا، فرض الضرائب على البضائع الموردّة من خارج الشام، وأعفى رجال الدين كافة، من غير المسلمين، من الضرائب من أجل أن يضمن ولاء الطبقات المختلفة له. إن ذلك كله يؤكد أن بلاد الشام كانت إقليمًا منفصلًا تمامًا عن دولة الخلافة. وهذه الحقيقة لا تقتصر على المستويات السياسية والاقتصادية بل تتعداها إلى الجوانب الفكرية والعقدية. فقد استطاع معاوية أن يجمع حوله مجموعة من رواة الأحاديث الذين كانوا «يبدعون» في إخفاء أحاديث واختلاق أخرى تمتدح بني أمية وتبرز فضائلهم الموهومة، وتدعي أنهم ورثة النبي وأنهم أهل بيته من دون الناس، وتتحدث عن فضائل موهومة لمعاوية وتدعو إلى لزوم طاعته.

وبالتوازي مع ذلك، كان معاوية يقرب الشعراء والقصاصين ويجزل لهم العطاء ويدعو إلى ترويج شعرهم وقصصهم التي تبشّر بملك بني أمية وتستميل الناس. وعلى هذا النحو أبقى معاوية الشام كلها بعيدة عن ثقافة الإسلام، مشبعة بعناصر الثقافة الجاهلية. كان يمارس تجهيلًا فظيعًا للناس، ولم يكن يتورع عن استخدام أية وسيلة لتمرير أفكاره.

لقد فُتحت الشام بعد وفاة النبي ﷺ في عهد عمر بن الخطاب، وكان قرار عمر منع خروج الصحابة من المدينة خدمة كبيرة لمعاوية الذي وجد نفسه مطمئنًا إلى تنفيذ مخططاته دون إزعاج. فباستثناء ما سببه أبو ذر الغفاري وبعض الصحابة الآخرين، الذين تم نفيهم إلى الشام ثم أعيدوا من حيث جاؤوا، لم يواجه معاوية أية عوائق جديّة في تشكيل عقول الناس بالطريقة التي يشاء.

ويمكن أن نجد أمثلة كثيرة تبرز مدى الجهل الذي كان يغرق الناس في ظلامه، وكان سببًا مركزيًا وظّفه معاوية في إخضاعهم واستخدامهم في حروبه على أساس السهولة الكبيرة التي كان يجدها في إقناعهم بوجوب طاعته وتقبلهم لادعاءاته.

دخل عليه ذات مرة وجوه من الارستقراطية المتنفذة وكان عنده عمرو بن العاص فبادروه بالقول: «السلام عليك يا رسول الله، صلى الله عليك. فانفجر

عمرو بن العاص ضاحكًا وهو يقول: لعنكم الله من حمير! نهيتكم عن أن تنادوه أمير المؤمنين، فجعلتموه رسول الله»[1].

وتنقل بعض المصادر أنه «لما توجه إلى الخليفة العباسي، أبو العباس السفاح، أشياخٌ من أرباب النعمة والرياسة من سائر أجناد الشام، فحلفوا لأبي العباس السفاح، أنهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة».

وفي بعض الروايات التي يقدمها المسعودي أن «بعض الإخباريين قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من هو أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصًا من لصوص الفتن». وفي رواية أخرى نقلها المسعودي عن الجاحظ قوله: «سمعت رجلًا من العامة وهو حاج، وقد ذكر له بيت الله الحرام، فكان قوله: إذا أتيته من يكلمني منه؟ وأنه أخبره صديق له قال له رجل منهم يصلي على محمد ﷺ ما تقول في هذا؟ أربّنا هو؟»[2].

إن إستراتيجية التجهيل التي اتبعها معاوية، هي التي سمحت له بإخضاعهم بالكامل حتى بلغ من طاعتهم أنه «صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمرو بن العاص: إن عليًا هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنّة ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير»[3].

لكن إستراتيجية التجهيل هذه لم تكن كل شيء في سياسة معاوية مع أهل الشام، بل إن القمع والبطش في بعض الأحيان، والرشوة وشراء الذمم في أحيان أخرى كانت أيضًا من وسائله الناجعة. «يتفق الرواة في وصف جند علي بأنهم كانوا صفر الوجوه من القيام، رثوا الثياب، فإذا وقف علي يأمرهم كانوا

---

(1) عبد الرحمن الشرقاوي، **علي إمام المتقين**، ج 2، ص 46.

(2) المسعودي، **مروج الذهب**، ج 3، ص 42.

(3) عبد الرحمن الشرقاوي، م.س، ج 2، ص63.

يناقشونه حتى يقتنعوا. أما جند معاوية فكانت ملابسهم فاخرة، جاءوا إلى القتال في أحسن زينة وهندام على عادة جيوش الفرس». وقد وقف عمرو بن العاص مرة يقارن بين الحالتين، وشعر معاوية بما يجول في خاطره فقال مزهوًا: «يا ابن العاص، كيف ترى هؤلاء وما هم عليه؟» قال عمرو: «لقد رأيت من يسوس رعيته بالدين والدنيا، فما رأيت أحدًا تأتي له من طاعة رعيته ما تأتي لك من هؤلاء. قال معاوية: أفتدري متى يفسد هذا، وفي كم ينتقض؟ قال: لا. قال معاوية: «متى كُذبوا في الوعد والوعيد، وأُعطوا على الهوى لا على الغنى»»[1]. وعلى هذا النحو استطاع معاوية أن يروّض أهل الشام وأن يجعل منهم العجينة التي يشكلها كيفما يشاء.

من الواضح أن معاوية كان يعمل منذ أن أصبح واليًا من أجل الاستيلاء على السلطة، وليس مستبعدًا أبدًا أن يكون ذلك بالاتفاق مع الخلفاء الذين ولوه من أجل أن يحكم الشام بالطريقة التي يشاء.

كان معاوية يؤمن أن ملك العرب والمسلمين سيؤول إليه في النهاية، وكان يعمل لأجل ذلك ويروج القصص التي أخذت مكان القرآن والسنة، والتي كان يحرص على حضور جلساتها. ومن القصص التي كانت تُرَوّج أن ملك بني أمية كان مكتوبًا منذ الجاهلية، حيث «أن الكاهن الذي احتكمت إليه هاشم وأمية»، في أمر مفاخرتهما، لمّا حكم بنفي أمية بن عبد شمس قال: «ولأمية أواخر» متنبىء بظهور ملك بني أمية. وفي قصة أخرى كانت واسعة الشهرة في حينها أن «هند بنت عتبة بن ربيعة ذهب بها والدها وزوجها أبو سفيان إلى كاهن من كهان اليمن»، فلما امتحنه عتبة جعل يضرب بيده على كتف كل واحدة من النساء اللواتي تجمعن عنده، ولما بلغ هندًا، قال: «انهضي غير رسخاء ولا زانية وستلدين ملكًا اسمه معاوية.. فتزوجها أبو سفيان، فولدت له.. معاوية»[2].

ولم يكن هذا الأمر غائبًا عن ذهن أبي سفيان الذي كان يوصي معاوية:

---

(1) م. ن، ص 41.

(2) المسعودي، **مروج الذهب**، ج 3، ص 39.

«يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله ورسوله، وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة، وصرنا أتباعًا، وقد ولّوك جسيمًا من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمد. فنافس فإن بلغته أورثته عقبك»[1].

وهنا يفصح أبو سفيان عن مخططه في الاستيلاء على مفاتيح الدولة التي بناها محمد ﷺ وعلي وبقية الصحابة بدمائهم وأرواحهم، والتي حاربها أبو سفيان وحزبه القرشي بقوة، ويعلن أن تولية معاوية الشام ليس إلا خطوة على طريق الاستيلاء الكامل على السلطة.

إن هذا كله يعني أن عليًا كان يواجه شخصًا مصممًا على عدم التنحي والاستمرار في السلطة ورفض مبايعة الخليفة الجديد كلفه ذلك ما كلّفه، مستندًا في ذلك إلى طاعة مطلقة وعمياء كان يتلقاها من أهل الشام، وإلى دعم كل أولئك الطامحين والانتهازيين الذين كانوا يطمعون في نفوذ لن يوفره لهم علي.

بعد اجتماع الناس حول الإمام علي ومبايعته، عزل كل عمال عثمان باستثناء أبي موسى الأشعري الذي تدخل مالك الأشتر من أجل إبقائه. بايعت كل الأقاليم الإسلامية، ولم يرفض البيعة سوى معاوية. كانت الشام تمثل ثقلًا كبيرًا في العالم الإسلامي، وكان يتجمع فيها عدد كبير من المقاتلين يضاهي العدد الذي كان موجودًا في البصرة والكوفة.

ولم يكن أمام الخليفة سوى المواجهة التي كان يعد لها. لقد كان معاوية مصرًا على رفض البيعة وعدم التنحي معًا، وكان بدوره يريد الحرب. لم يكن بوسع الإمام إقرار معاوية دون أن يبايع، وحتى لو بايع فإن إقراره كان سيكون خطأً سياسيًا، لأن الثورة ضد عثمان قامت بالأساس ضد جشع بني أمية وفسادهم. ولن يكون قرار تثبيت معاوية في منصبه مقبولًا لديهم، وسوف تتصدع جبهة الإمام في هذه الحالة منذ البداية.

كان الإمام، إذن، يريد مواجهة معاوية، لكن ثالوث الجمل أفسد عليه

---

(1) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 8، ص 118.

ذلك واضطره إلى تغيير أولوياته. كانت الشام كلها موحدة وراء معاوية، لكن وضع الإمام كان مختلفًا. كان في الحقيقة يُعاني تشققات كثيرة في معسكره سوف تظهر لاحقًا. فعلي الذي كان محشورًا في المدينة ولم يتول أية مناصب بعد وفاة النبي، لم يتح له أن يبني قاعدة موالية له بعكس معاوية الذي أتيح له ذلك وهو الذي استمر في ولاية الشام قرابة العقدين من الزمن سمحت له ببناء هذه القاعدة على النحو الذي يشاء. لقد أصبح علي مجهولًا لدى المسلمين بسبب التعتيم على بطولاته ومنع رواية أحاديث النبي في فضله وتفوقه وسابقته.

كان الناس في معظمهم، وقد أصبحت تفصلهم عن النبي ﷺ عقود من الزمن، يجهلون القيمة الحقيقية لعلي، وهم لذلك كانوا كثيرًا ما يشكون في مواقفه وقراراته، وكان مضطرًا في كل مرة للدخول في نقاشات طويلة من أجل إقناع جنوده بصوابية خياراته، رغم أن هذا الشك كان منطلقًا في جزء مهم منه من السلوك الديمقراطي للإمام. لقد كان يرفض فرض أي موقف على أتباعه، وكان كثير الاستشارة لأصحابه.

من الواضح أن كثيرًا من الكوفيين خذلوا الإمام في معركة الجمل. كما أن البصرة في معظمها حاربته. وهذا يعني أنه لم يبق مع الإمام سوى 15 ألف مقاتل من الموالين له حقيقة. وهم الذين بقوا بعد انتهاء المعركة التي أكلت خمسة آلاف مقاتل من أنصاره. وهذه المجموعة ستضاف إليها مجموعات أخرى من البصريين الذين غُلبوا ثم انضموا إليه، والكوفيين الذين خذلوه في البداية، ومجموعات أخرى من أهل المدينة واليمنيين. إن هذا كله يعني أن الإمام علي لم يكن يملك جيشًا متجانسًا ومواليًا على نحو كامل.

حقيقة الصراع

أما الصراع مع معاوية، فلم يكن فقط صراعًا سياسيًا، بل كان في العمق صراعًا دينيًا وإيديولوجيا. كان صراعًا حول العقيدة والخيارات السياسية والاجتماعية. لقد كان علي وصي النبي ووارث علمه، كان هو الإمام بعده، وكان يفترض أن يكون مرجع المسلمين جميعًا.. هذا الأمر واضح لدى كل المنصفين.. أما معاوية فهو وريث زعيم الشرك أبي سفيان بن حرب، وهما معًا

أسلما كرهًا، وظلا بعيدين عن قيم الدين الجديد ومبادئه. صحيح أن معاوية كان يظهر الإسلام، غير أن ذلك لم يكن سوى وسيلة لإدراك أهدافه.

إننا هنا لا نرجم بالغيب ولا نتحدث من فراغ. فإضافة إلى ممارسات معاوية الذي حارب من قال عنه النبي ﷺ إن «حربه حربي»، والذي شرّع لعن من قال النبي «حبه إيمان وبغضه نفاق»[1] لعقود طويلة من الزمن على منابر المسلمين.. إضافة إلى ذلك، نملك نصًا خطيرًا يكشف حقيقة الصراع بين الإمام ومعاوية وحقيقة الهدف النهائي الذي كان يتوخاه هذا الأموي.

ينقل المسعودي وغيره عن مطرف بن المغيرة بن شعبة قوله: «وفدت مع أبي المغيرة إلى معاوية، فكان أبي يأتيه يتحدث عنه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية ويذكر عقله، ويعجب مما يرى منه، إذ جاء ليلة فأمسك عن العشاء فرأيته مغتمًا، فانتظرته ساعة، وظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت له: ما لي أراك مغتمًا الليلة؟ قال: يا بني إني جئت من عند أخبث الناس! قلت له: وما ذاك؟ قال: قلت له ـ وقد خلوت به ـ : إنك قد بلغت منايا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلًا، وبسطت خيرًا، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، فقال لي:

هيهات هيهات!! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، والله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر، ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه فعمل ما عمل وعُمل به، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، وذكر ما فُعل به. وإن أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمدًا رسول الله، فأي عمل يبقى مع هذا؟ لا أُمَّ لك، والله إلا دفنا دفنًا»[2].

---

(1) **موسوعة الإمام علي**، ج11، صص278 ـ 283.

(2) المسعودي، **مروج الذهب**، ج4، ص41. **الأخبار الموفقات**، ص576/ 375. ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة: ج5**، ص129. **كشف اليقين**: ص ص466 ـ 565. **كشف الغمة**، ج 2، ص44.

إن هذا النص يوضح بشكل نهائي أن هدف معاوية لم يكن الاستيلاء على السلطة فحسب، بل أيضًا «دفن الإسلام» والانتهاء منه.. وعلى هذا الأساس، فإن ما يردده البعض من أن معاوية كان يطالب بدم عثمان، وكان يريد الاقتصاص له، ليس إلا سذاجة. لقد أعلن معاوية غير مرة أنه كان يحارب من أجل السلطة، وأن قضية عثمان لم تكن سوى ذلك السلاح الذي استخدمه ضد علي. بل إن معاوية كان متواطئًا في قتل عثمان عندما رفض مساعدته على فك الحصار الذي كان مضروبًا عليه.

ولذلك تبسط الأمور كثيرًا عندما يقال إنه لا يمكن تجريد معاوية من عواطفه تجاه ابن عمه عثمان. فمعاوية لم تكن تهمه سوى مصالحه. كان فقط يفكر في حساباته الخاصة، ولم تكن لديه أية عواطف تجاه عثمان الذي اعترف أنه كان مجرد مطية من أجل وصول السلطة إلى معاوية عندما خاطبه بوضوح: «فوالله لا أُقتل إلا فيك، ولا ينتقم علي إلا من أجلك». إن هايندز كان مصيبًا عندما كان ينسب مقاصد سوداء إلى معاوية في كتابه «مقتل عثمان». لقد كان هذا الأموي يحكم إقليمًا مستقلًا، ويملك جيشًا خاصًا، وكان بإمكانه إنقاذ عثمان، لكنه لم يفعل، ودخل المدينة ومعه شخصان لا أكثر.

لقد اتخذ معاوية قرار التمرد على سلطة الإمام منذ أن بايعه الناس في المدينة. كان قرارًا سابقًا على حرب الجمل. بل إن معاوية هو من شجع ثالوث الجمل على التمرد من أجل إنهاك الإمام والاستعداد لمواجهته في الوقت نفسه.

ومن أجل فهم الأسباب التي كانت تحرك الإمام علي في خياراته السياسية، لابد من فهم طريقة تفكيره أولًا. لقد كان احترام الآخرين في حقوقهم هو الأساس في مواقف الإمام. كان ملتزمًا تمامًا بالقيم الإسلامية، وهو لذلك سيرفض أي انتهاك لحقوق الناس. كان يرى أن السياسة يجب أن تكون محكومة بالأخلاق. ومن هنا قراراته الأولى بعزل جميع ولاة عثمان. ولم يستثن إلا أبا موسى الأشعري بإلحاح من الأشتر. كانوا جميعًا ولاة فاسدين بالنسبة إلى الإمام وكان يقول: «لست متخذًا المضلين عضدًا». إن إبقاء هؤلاء الولاة كان يعني بالنسبة إليه إمضاء لممارساتهم الظالمة.

استجاب جميع الولاة لقرار الخليفة رغم أن بعضهم قام بنهب بيت المال في مصره قبل أن يتنحى كما هي حالة عبد الله بن عامر ويعلى بن منية.. ولم يرفض القرار سوى معاوية. سيرفع معاوية قميص عثمان ليجعل منه الأداة التي يحارب بها الإمام / الخليفة. لقد انتخب علي بشكل حر وبايعته الأغلبية الساحقة من الصحابة في المدينة، كما بايعته الأقاليم المختلفة.

لقد كان علي رجل الإسلام الأول بعد النبي، ولا أحد يشك في أنه يتقدم على الجميع في سابقته وفضله وعلمه وجهاده.. لم يكن بوسع معاوية أن ينكر ذلك، ولا أن يدفع الانتخاب الشرعي للإمام الذي جرى في المدينة. كان يعرف أنه عديم الوزن أمام علي، فهو أموي طليق، اعتبره النبي صعلوكًا وعده مع أبيه من المؤلفة قلوبهم وأغدق عليهما الأموال بعد غزوة حنين. إنه ببساطة رجل بلا تاريخ في الإسلام، وهو لذلك سيبحث عن وسيلة أخرى يجعلها سلمًا لتحقيق أهدافه.

كان أبو سفيان يتزعم قريشًا وقد تكرس ذلك بعد قتل أبي جهل في معركة بدر، وبهذه الصفة سيحارب النبي في أُحد والخندق.. لكنه عندما بدأ يشعر أنه غُلب، بدأ يظهر بعض اللين حتى أنه في فتح مكة سلم نفسه للنبي بشكل مهين. لكن أبا سفيان لن ينسى أن النبي قد أفتك منه قيادة قريش، وأضاف إليها سائر العرب.. سيعمل بكل قوته لاستعادة تلك الرئاسة. وهو في الواقع سيزرع هذا الطموح غير المشروع في قلب ابنه معاوية. وعندما نقول إنه طموح غير مشروع فلأن الإسلام يرفض أن يحكم أي شخص باسمه إلا إذا كان هو من حدد هذا الشخص.. ولاشك أن معاوية لا علاقة له بالإسلام حتى يحكم باسمه.

كان الإمام قد بعث إلى معاوية يطلب بيعته، لكن معاوية تلكأ، وأعطى نفسه مهلة طويلة للرد على الإمام، كان يتحسب لما ستؤول إليه الأمور. لقد أراد الإمام في البداية أن يحصل على بيعة معاوية ثم بعد ذلك يعلن قراره في شأن ولايته، لكن معاوية لم يكن ليبايع قط. وحتى من الناحية السياسية لم يكن بإمكان الإمام إبقاؤه، فالذين ثاروا على عثمان وبايعوه كانوا يريدون تغييرًا

شاملًا، وكانوا سيعتبرون عليًا خائنًا لقضيتهم لو أبقى معاوية. بل إنه حتى لو أقر الإمام معاوية، فوق رغبة الثوار، فإن ذلك سيكون نقطة لمصلحة معاوية، سيكون تزكية لا يستحقها. وسيكون ورقة في يده يستخدمها متى شاء.

وفي الحقيقة، كان كل شيء يدل على أن معاوية سيرفض حتى النهاية مبايعة علي. فالأحقاد القديمة ضد علي، والأطماع الشخصية في الاستيلاء على السّلطة تمنعه من ذلك. ولو حاول الإمام خداع معاوية بتثبيته فترة من الزمن ثم عزله، فإنه سيكون مضطرًا لتوضيح الأمر للناس، وحينئذ لابد أن يصل الخبر إلى معاوية.

ومع ذلك أرسل الإمام بعدما بويع في المدينة سبرة بن الجهين إلى معاوية، لكن معاوية تلكأ في الجواب. ثم بعد مرور ثلاثة أشهر من قتل عثمان رد برسالة فارغة. رفض الجواب على طلب الإمام، لكن ذلك كان في ذاته جوابًا، إنه رفض للبيعة. لقد أوضح رسول معاوية، وهو رجل من بني عبس، أنه ترك ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان المعلق على منبر الجامع، وأن معاوية يطلب دمه. لقد أراد معاوية منذ البداية تعبئة أهل الشام ضد الإمام/ الخليفة. كان في الحقيقة قد باشر الإعداد للحرب عسكريًا ونفسيًا، مستخدمًا في ذلك أكثر الوسائل كاريكاتورية: البكاء على قميص عثمان. إن قرار الانشقاق اتخذه معاوية منذ أن وصل الإمام إلى السلطة، لكن معاوية أراد أن يدفع ثالوث الجمل ليبدأوا بمحاربة علي لإنهاكه من جهة، ولكسر الحاجز النفسي الذي كان يمنع من محاربته من جهة ثانية. فالأمويون في النهاية هم من موّل تلك الحرب. لاشك أن معاوية كان يفكر في نفسه أولًا، ولكنه كان يفكر أيضًا في عائلته، كانت أهدافه ضيقة وهو لذلك سيذهب بعيدًا في تدمير وحدة الأمة وقيمها الإسلامية.

الورقة المصرية

منذ البداية كان معاوية يفكر في مصر، كان يخاف هجومًا مزدوجًا ينطلق في الوقت نفسه من العراق ومصر، وهو لأجل ذلك بدأ بالعمل دون تأخير لتخريب الثقة بوالي مصر قيس بن سعد. كان يريد تحييد مصر أو

غزوها في الوقت الذي كان علي مشغولًا بإعادة تنظيم جبهته الداخلية. كان الإمام مطمئنًا إلى الوضع في مصر، فهو يعرف جيدًا قيمة قيس الإدارية ومقدرته السياسية. كان يثق به على نحو كبير. لقد أمسك قيس بمصر، بعد أن استطاع محمد بن أبي حذيفة طرد عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو لذلك لم يشهد معركة الجمل.

لكن وجود قيس في مصر مزعجًا بالنسبة إلى معاوية، وهو لذلك سيعمل على إبعاده بكل الوسائل. ولم يوفر حتى الوسائل اللاأخلاقية من تجسس وأكاذيب وأعمال تزوير. لقد أراد معاوية استمالة قيس إلى جانبه وعندما فشل في ذلك زوّر رسالة على لسان قيس وقرأها على أهل الشام، لينتشر الخبر ويصل إلى الكوفة. لم يصدق الإمام قط الإشاعة، ولكن أهل الكوفة صدّقوها. قال لهم: «والله ما أصدق بهذا على قيس»[1]. لكنهم أصروا على عزل قيس متهمين إياه بالغدر. أجابهم الإمام: «ويحكم، أنا أعلم بقيس إنه والله ما غدر، ولكنها إحدى فعلاته». لكنهم أصروا على موقفهم وقالوا للإمام: «لا نرضى حتى تعزله»[2]. وجد الإمام نفسه أمام خيارين إما أن يعزل قيسًا ويتحمل تبعات ذلك وإما أن يصر على موقفه ويواجه احتمال التصدع المبكر في جبهته الداخلية، فاختار الحل الأول.

لقد كانت مشكلة الإمام في قاعدته التي كانت سهلة الانخداع، مهزوزة الثقة، ولكنها كانت تظن نفسها على قدر من الفطنة والكياسة. كانت قاعدته في معظمها تعاني الجهل المركب. إن ذلك هو ما سمح لمعاوية بتمرير خدعه. فما كان يفعله هذا الرجل ليس جديدًا أبدًا، بل هو منهج سياسي سار عليه كل المستبدين والطغاة في التاريخ.. منهج يقصي كل القيم الأخلاقية في الممارسة السياسية، ويتبنى مقولة «الغاية تبرر الوسيلة» التي تبيح كل الممارسات مهما كانت ظالمة من أجل الوصول إلى الأهداف المتوخاة.

لم ينخدع الإمام قط بأية بوالين كان يطلقها معاوية ولكن مشكلته كانت

---

(1) **الطبري**: ج 4، ص 553. **انساب الأشراف**، ج 3، ص163.

(2) **انساب الأشراف**، ج 3، ص 162.

في جيش لا يفهمه، ولا يطيعه. لقد اضطر فجأة إلى جمع هذا الخليط ليكوّن جيشًا وجد فيه الجميع مكانًا لهم، بينما لم يكن معاوية يعاني أية مشكلة مماثلة وهو الذي حكم الشام عقدين من الزمن وفرض سلطته على السوريين وجعلهم مطيعين له على نحو مطلق.

صحيح أن الإمام لم يتح له الخروج من المدينة بعد وفاة النبي، ولكنه كان قريبًا من الخلفاء، وكان هو من يعطي المشورة في أكثر المواقف إشكالية. كان في الحقيقة مؤثرًا في كثير من قراراتهم التي كانت تتعلق بشؤون الحكم والقضاء والفتح على تخوم فارس والروم، ثم بكيفية التعامل مع الأراضي المفتوحة. كان الإمام يملك معرفة الإسلام، ولكنه كان أيضًا رجل سياسة وحرب وهو الذي كان يستنجد النبي ﷺ بخدماته في المهمات الكبرى.

ولأجل ذلك فإن ما يقال عن الإمام من أنه رجل تقوى وليس رجل سياسة ليس دقيقًا ولا صحيحًا. والصحيح أن الإمام اختار لنفسه نهجًا سياسيًا يختلف عن السائد، وهو منهج يريد للسياسة أن تتحرك في إطار القيم الأخلاقية وليس خارجها، كان يخضع كل خياراته السياسية وتكتيكاته لأحكام الدين والأخلاق. ولا شك أن هذا المنهج يضيق على صاحبه كثيرًا هامش المناورة حيث لا مجال لأساليب الغدر والخيانة والكذب والقمع والترهيب.. إن ذلك هو معنى قوله: «لولا التُقى لكنت أدهى الناس».

كان الإمام يؤمن أنه يملك الشرعية الكاملة، وأن معاوية وجماعته بغاة. وكان معاوية يعرف أنه يظلم عليًا بتمرده عليه، ولكنه كان يريد تحقيق طموحاته ولو على حساب الدين ومصالح الناس. ولأجل ذلك كانت مراسلات الإمام إلى معاوية تصب في اتجاه محاولة تنبيهه على الخطيئة التي يرتكبها.

تواصلت تلك المراسلات ثلاثة أشهر تقريبًا. وفي النهاية أرسل علي وهو عائد من البصرة إلى الكوفة رسولًا إلى معاوية. كان ذلك جرير بن عبد الله البجلي زعيم قبيلة بجيلة، وأحد قادة الفتح وأحد عمال عثمان السابقين في همذان. لم يشهد مقتل عثمان ولا معركة الجمل، وكان ذلك يعني قدرًا من الحيادية لدى الرجل. كانت مهمة جرير دعوة معاوية إلى الدخول في بيت

الطاعة والرجوع إلى جماعة المسلمين، وتذكيره أنه «من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى»[1]. ماطل معاوية كعادته، كان يبدد الوقت استعدادًا للحرب التي صمم على خوضها، لم يعط جوابًا وحبس جريرًا عنده.

لم يكن معاوية مرتاحًا من جهة مصر ولا من جهة بيزنطة. وكان لابد له من رجل ماكر يكون مستشارًا له، ووجد ضالته في عمرو بن العاص وهو رجل طالما حارب النبي وهجاه شعرًا ولاحق أصحابه إلى الحبشة محرضًا ضدهم ملكها. لكنه في عهد عمر أصبح واليًا على مصر. أما عثمان الذي كان هواه في عشيرته فقد عزله وولّى مكانه عبد الله بن سعد أخاه من الرضاعة. وهذا ما جعل عمرو يحقد عليه ويحرض على قتله[2].

سيشترط عمرو على معاوية ولاية مصر طعمة في مقابل أن يبيعه دينه كما كان يقول. وسيقبل معاوية ذلك. إنّه اتفاق يعكس حقيقة هذا الثنائي، تحالف شيطاني لن يخلو من المساومات والتوترات بين الطرفين. كان عمرو مقتنعًا أنه يبيع دينه بدنياه. فعندما طلب معاوية منه أن يبايعه، أجابه عمرو قائلًا: «لا والله، لا أعطيك ديني حتى آخذ من دنياك». فرد عليه معاوية: «لك مصر طعمة»[3]. إنها إذن مساومة انتهت إلى صفقة تم توثيقها وختمها بحضور شهود![4].

في النهاية قرر معاوية أن يكون شعاره الأساسي المطالبة بالثأر لدم عثمان، وأطلق جريرًا، ومعه رسالة فيها إعلان الحرب. كان علي يرفض تسليم أي شخص إلى معاوية بتهمة قتل عثمان. لقد كان عثمان خليفة. والخليفة الجديد هو وحده من يملك حق محاكمة قتلته. ثم إن عثمان له أولاد هم أصحاب الحق في المطالبة بدم والدهم ولم يوكلوا أحدًا لذلك. فهم وحدهم أولياء دمه ولا شأن لمعاوية بذلك.

---

(1) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص 157.

(2) ريشهري، **موسوعة الإمام علي**، ج 5، ص 310.

(3) اليعقوبي، ج 2، ص 186.

(4) م. ن، ص 186.

كان الإمام بلا شك ضد قتل عثمان، وكان يدافع عنه ويحاول حمايته، كان يرى أن الخليفة إذا أخطأ فإنه يحاكَم وليس من حق أي كان الاعتداء عليه. وبعد قتل عثمان، لم يكن هناك قتلة مباشرون معروفون، وكان المحرضون كُثرًا، وكان الأمر يحتاج إلى تحقيق موسع ويحتاج إلى استقرار الأوضاع.

ومع ذلك طلب الإمام من معاوية أن يدخل فيما دخل فيه الناس ثم يحاكم إليه القوم الذين يتهمهم، ليفصل في القضية[1]. لكن معاوية لم يكن صادقًا في ادعائه وهو لذلك لم يستجب للإمام.

ولأجل ذلك تخطئ فاكيا فاغليري التي تستنتج من خلال تحليلها للمصادر الخوارجية أن الإمام كان يؤيد قناعات القتلة وقراء الكوفة، وأن قتله كان بسبب فساد سلطته، وهو لذلك قتل بمقتضى العدل[2]. صحيح أن سلطة عثمان كانت فاسدة، ولكن ذلك لا يعطي المبرر لأية جهة أن تعتدي على حياته. إن هذا هو معنى قول الإمام متحدثًا عن عثمان: «لقد استأثر فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزع» و«لا أقول إنه قُتل مظلومًا ولا أقول إنه قُتل ظالمًا»[3].

إعلان الحرب

رفض الإمام إذن تسليم أي شخص لمعاوية، وكان ذلك ذريعة لأن يعلن هذا الأخير الحرب على الخليفة. وهي الذريعة نفسها التي استخدمها من قبل ثالوث الجمل. قرر الإمام الخروج بنفسه إلى الحرب بعد أن استشار أصحابه. وعندما علم معاوية بذلك استشار عمرو بن العاص وقرّر هو الآخر الخروج في جيشه.

كانت المشكلة منذ البداية في تركيبة جيش الإمام. كانت هناك بلا شك كتلة موالية تمامًا للإمام، وكان يقودها مالك الأشتر وعمار بن ياسر وحجر بن

(1) الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص 426.

(2) جعيط، **الفتنة**، ص 190.

(3) **الطبري**، ج 5، ص 8.

عدي وعُدي بن حاتم وقيس بن سعد وآخرون.. كانوا يسيطرون على الكوفة عمليًا من خلال النفوذ الذي كان لهم داخل قبائلهم. كانوا يفهمون طبيعة المعركة، وكانوا يعرفون أنهم يقفون مع إمام هو صاحب الحق. لقد حاربوا ثالوث الجمل بهذا اليقين، وهم اليوم يستعدون لحرب البغاة باليقين نفسه.

كان دعمهم ثابتًا لعلي، ولم يكن ذلك قط دعمًا نفعيًا، فقد كانوا قبل ذلك إلى جانب النبي ضد الارستقراطية القرشية التي حاربته ثم اختطفت السلطة وهمشتهم. كانوا مسكونين بإيمان عميق، وهؤلاء هم الذين سيكونون قادة جيش الإمام وعماله في المناطق المختلفة.

وبالتوازي مع ذلك كانت هناك كتلة أخرى تضم «القراء». لا شك أن بعضهم كانوا يملكون الوعي العميق والمعرفة الصحيحة والتقوى العاقلة.. لكن أغلبهم كان عكس ذلك. كانت أغلبية من أصحاب الجباه السود، كثيرة الصلاة والصيام، رثة الثياب، يحلقون شعورهم بشكل معين ويلبسون البرانس. كانوا فئة متشددة، مبالغة في تدينها، لكنه كان تدينًا أعمى لا عقل له، لأن هؤلاء لم يكونوا يفهمون الإسلام على نحو سليم، ولا يحملون ثقافته التي كانت تدعو إلى التوازن وتحذر من الإفراط في العبادة وإظهار التدين دون وعي مستقيم.. فكان النبي ﷺ يقول: «إن فيكم قومًا يعبدون ويدأبون، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1]. كانوا يملكون أصواتًا جميلة ويقرؤون القرآن، لكنهم لم يكونوا يفهمون ما يقرؤون، أو أنهم كانوا يفهمونه بشكل مُعْوج.

إن مشكلة هؤلاء القراء هي غياب البعد العقلاني لديهم، وهم لذلك سينخدعون بسرعة غريبة في أكثر من منعطف. وسيجد بعض المنافقين سهولة في اختراقهم واللعب بعقولهم. لقد ضحك عليهم من قبل أبو موسى الأشعري وخذلهم عن علي في حرب الجمل، فلم يشارك من مجمل مقاتلي الكوفة البالغ عددهم قرابة 50 ألف مقاتل سوى 12 ألف. وهذا يعني أن قرابة 3/4 مقاتلي الكوفة لم يشاركوا إلى جانب الإمام بتأثير من زعماء القبائل الذين تمت الاستعانة بقدراتهم التعبوية، فقد كان عامة الناس يسيرون وراء زعمائهم

(1) ريشهري، **موسوعة الإمام علي**، ج 6، ص 263.

القبليين أو العسكريين من خلال ما عرف بالأسباع، والتي أدخل عليها الإمام بعض التعديلات. ويبدو أن شعورهم القبلي وارتباطهم بالكوفة بوصفها العاصمة الجديدة التي يجب دعمها، كان هو العامل الأقوى في دفعهم للانضمام إلى جيش الإمام. فهؤلاء لم يكن لهم ذلك الولاء العقائدي الذي نجده عند أصحاب الإمام المقربين.

لا شك أن شخصية الإمام الفذة والاستثنائية كانت مؤثرة في استقطاب كل هذه الفئات دون أن يستخدم أية وسائل إكراهية. فقد كان له صيته الإسلامي، وتميزه الكبير رغم أن مناوئيه أجهدوا أنفسهم لإخفائه ونجحوا في ذلك إلى حد كبير عندما أصبح أكثر الناس بعد ربع قرن من وفاة النبي ﷺ يجهلون فضله وكل وصايا النبي في شأنه أو يجحدون ذلك. لقد كان ذلك أهم أهداف إستراتيجية منع تدوين الحديث وتداوله.

كان الإمام يريد أن يشارك المقاتلون في جيشه طوعًا ولم يكن يريد فرض شيء على أحد. وهو لذلك اكتفى بمعاتبة أولئك الذين لم يشاركوا في معركة الجمل. لكنهم اعتذروا وسيشاركون في معارك صفين دون أن تكون حماستهم بمستوى حماسة أصحاب الإمام ولا حتى بمستوى حماسة القراء.

وتبقى حالة الأشعث بن قيس مشتبهًا فيها ومريبة. كان هذا الرجل يتزعم قبيلة كندة. أسلم في حياة النبي لكنه ارتد بعد وفاته وأُسر في الحرب، لكن أبا بكر عفا عنه وزوّجه أخته.. زوّج الأشعث لاحقًا ابنته لابن عثمان فنصبه عاملًا على أذربيجان. لقد كان مقربًا من الخلفاء السابقين وهذا ليس غريبًا أبدًا. وعندما جاء الإمام علي عزله، ففكر في الالتحاق بمعاوية، لكنه تراجع عن ذلك بنصيحة من أصحابه حتى لا ينقطع عن قومه ويصبح مجرد ذيل لأهل الشام كما قالوا له، والتحق بالإمام. كان الأشعث رجلًا سيّئًا وصفه الإمام بالمنافق. كان مؤثرًا في قبيلته وفي كثير من القراء. وهو لذلك سيلعب دورًا تخريبيًا في جيش الإمام. كان الإمام يعرف جيدًا حقيقة هذا الشخص، وقد أراد في إحدى المرات التخلص منه لكن أصحابه تدخلوا لإنقاذه[1].

---

(1) **تاريخ دمشق**، ج 9، ص 139. سير **أعلام النبلاء** ج 2، ص 40.

وربما كان الإمام يخشى تصدع جبهته الداخلية بشكل مبكر، إذا تعرض له، فاستبعاده كان يعني خروج قبيلته كندة من صف الإمام، والتحاق الكثير من المخدوعين به. كان في الحقيقة يمثل تواصلًا للقيم الجاهلية، فالأشعث هذا هو الذي سيكون طرفًا رئيسيًا في فرض قبول التحكيم على الإمام، ثم فرض أبي موسى الأشعري مفاوضًا عنه. ثم التآمر لقتله في النهاية. وهذا كله يعني أن هذا الشخص كان مؤثرًا في عقول قطاع كبير من جيش الإمام، وهذه إحدى محن علي.

وإضافة إلى هذه المكونات، سيضم هذا التكتل أهل البصرة. ليس واضحًا ما إذا كان البصريون قد انضموا جميعًا إلى جبهة الإمام، ولكن الأكيد أن قبائل تميم وعبد القيس وبكر، عدا الأزديين، كانت حاضرة.. وربما كان للأحنف بن قيس دور في استمالتهم نحو علي. ولا ننسَ أن قبيلتي عبد القيس وبكر قد كانتا منذ البداية مع الإمام في معركة الجمل. وربما كان عدد البصريين المنضمين إلى هذا التكتل يزيد على 20 ألف مقاتل. لكن تأثيرهم سيكون بلا شك أقل من تأثير الكوفيين الأكثر اندفاعًا والذين يضمون فئة مهمة من الموالين تمامًا للإمام.

والفئة الأخرى المكونة لجيش الإمام كانت الأنصار. كان عددهم أقل من الكوفيين والبصريين، غير أنهم كانوا يملكون ثقلًا معنويًا كبيرًا. فقد كانوا من صحابة النبي ومن أبناء الصحابة الذين تم تهميشهم عندما عادت الارستقراطية القرشية إلى موقع السلطة. كانوا في معظمهم أنصارًا للإمام كما كانوا من قبل أنصارًا للنبي ﷺ. وهم الذين بادروا إلى بيعة الإمام بحريتهم الكاملة بعدما كانوا في السابق مكرهين على بيعة الخلفاء السابقين الذين أبعدوهم عن مراكز الفعل والتأثير. لقد أعادهم علي إلى الواجهة، لأنه أراد أن يكون إسلاميًا وعادلًا، ولأنه جاء ليفكك الاستئثار القرشي الذي شوّه الإسلام وأفسد مبادئه. كان الأنصار يعرفون مكانة علي وكانوا يعترفون له بذلك ويناصرونه، لكن قريشًا التي كانت تعرف له هذه المكانة أيضًا ستحاربه هو وأبناءه حتى النهاية.

لقد نجح الإمام في جمع هذه الفئات المختلفة ليصنع منها جيشًا كبيرًا،

وهذا في ذاته إنجاز كبير. إن مثل هذا العمل لم يكن سهلًا قط أمام كل ذلك التمزق الذي عرفته الأمة في عهد عثمان وبعد قتله، وأمام نكث ثالوث الجمل وانشقاقهم. إن الخسارة الكبرى التي لحقت بالإسلام والمسلمين بعد وفاة النبي هي استبعاد علي، وتمهيد الطريق للأمويين ليأتي في النهاية معاوية الذي سيبني إمبراطورية للشر تزرع الجهل والبؤس والحزن في كل مكان. إن الدفاع عن معاوية، كما يفعل الكثيرون اليوم، إنما هو دفاع عن سياسات التجهيل والإفقار والقمع والترهيب.

كانت الشام إقليمًا مستقلًا تقريبًا، ومغلقًا أمام الهجرة العربية بعد أن انتهى فتح هذه البلاد. كان معاوية حريصًا على ذلك حتى لا تفلت الشام من قبضته وكان ذلك جزءًا من تخطيطه للمستقبل. لم يسمح بالدخول إلا للمناوئين لعلي الذين هربوا إليه. إن ذلك هو ما جعل الشاميين يتبعون معاوية على نحو أعمى. كان يأمر فيطاع بلا نقاش. لقد جعل منهم قطيعًا يسوقه راعيه في الاتجاه الذي يحدده هو.

وقف علي أمام هذا المشهد البائس، ولم يجد أمامه سوى الحرب إذا لم يتوقف معاوية عن عناده ويتنحّ. من الخطأ القول إن عليًا توجه إلى الشام من أجل التفاوض لأن التفاوض يعني الاستعداد لتقديم تنازلات. لقد طالت مراسلات الإمام مع معاوية قبل أن يتحرك بجيشه، وعندما أصر معاوية على عناده لم يبق إلا خيار الحرب. لم يكن مقبولًا من معاوية لدى الإمام سوى أن يبايع كما بايع الناس.

اندلاع المعارك

خرج الإمام في جيشه في شوال 36 هـ من الكوفة منطلقًا نحو صفين سالكًا الطريق المحاذي لنهر الفرات مرورًا بكربلاء والمدائن والأنبار ودير الزور وبليخ وصولًا إلى الرقة. بينما كان معاوية قد خرج في جيشه من دمشق نحو الرقة مرورًا بحمص وحماة.

كان أكثر أهل الرقة من العثمانية الذين هربوا من الكوفة إلى معاوية. وهم لذلك رفضوا طلب الإمام علي بإقامة جسر على نهر الفرات ليعبر هو

وجيشه، ولم يستجيبوا إلا بعد تهديدات الأشتر. وكعادته، لن يمل الإمام التفاوض لكن دون التنازل عن أي شيء. وسيرسل إلى معاوية يدعوه مرة بعد أخرى للرجوع عن شقاقه والدخول في ما دخل فيه الناس. لكن جواب معاوية كان بيتًا من الشعر:

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

كان ذلك إصرارًا على الحرب، لتنطلق المواجهة الأولى بين مقدمة الجيشين في صفين قريبًا من الرقة. كانت معركة خفيفة بدأها جيش معاوية وانتهت بفرار مقدمة جيش الشاميين. لكن جيش الشام لن يفرط بسهولة في الماء بعد أن وصل إلى أرض المعركة قبل جيش الإمام. لقد رفض معاوية السماح للعراقيين بالشرب والتزوّد من النهر. كانت تلك حركة غبية ولا أخلاقية ليست غريبة عن هذا الرجل. كان يتصور أنه يمكنه أن يحرز النصر بهذه الطريقة رغم أن عمرو بن العاص نصحه بفسح المجال للجميع للاستفادة من الماء.

لن يلجأ الإمام إلى القوة من أجل الحصول على الماء إلا بعد استنفاد الوسائل السلمية مع معاوية. ولذلك استمر أهل العراق يومًا وليلة بلا ماء. وفي النهاية أذن الإمام للأشعث بن قيس بالزحف على الشاميين وانضم إليه الأشتر فتمكنا من إبعادهم عن الماء بعد معركة قوية سقطت فيها رؤوس وأيدٍ. وأصبح المشهد معكوسًا، أهل الشام في الصحراء بلا ماء وجيش الإمام يسيطر على الفرات. لكن عليًا رفض أن يتصرف على طريقة معاوية وأمر أصحابه أن يفسحوا في المجال للشاميين للتزود بالماء. لم يرد الإمام أن تتحول المعركة عن أهدافها لتصبح معركة من أجل الماء. وهو فوق ذلك كان يتصرف وفق ما تمليه عليه أخلاقياته الرفيعة.

كانت الأشهر الحرم فرصة بالنسبة إلى الإمام لإمهال معاوية وجماعته فربما بدّلوا رأيهم. ولن تبدأ الحرب بشكل جدي وعنيف إلا بعد شهرين، فقد وصل جيش الإمام إلى صفين في أواخر ذي القعدة وستبدأ المعارك بعد انسلاخ شهر محرم. وطوال هذه المدة كانت هناك سجالات ولكن أيضًا علاقات اجتماعية طبيعية.

لكن العراقيين استبطأوا إذن الإمام لهم بالقتال.. لم يكن علي يخشى

الحرب، ولا كان شاكًا في ما هو مقدم عليه، فهو رجل الحرب الذي لا يجارى، والإمام الواثق بحقه، ولكنه كان يتأنى عسى أن يرجع بعض الشاميين ويهتدي إلى الحقيقة. إن ذلك هو ما يفسر انفتاح العراقيين على أهل الشام، وإظهار الكثير من الليونة تجاههم من أجل استمالتهم، غير أن تلك المحاولات لم تنجح كثيرًا.

بعد طول انتظار، واستنفاد كل الوسائل لتجنب الحرب، اشتعلت المعارك. كتلتان بشريتان ضخمتان الواحدة في مواجهة الأخرى، الأرقام التي يوردها المؤرخون متفاوتة. البلاذري في الأنساب يتحدث عن 50 ألفًا هو عدد جيش الإمام و70 ألفًا هو عدد جيش معاوية[1]. وفي مصادر أخرى تم تقدير جيش الإمام بـ150 ألفًا أو 120 ألفًا أو95 ألفًا[2]. بينما يقدر جيش معاوية بـ83 ألفًا أو 90 ألفًا أو100 ألف أو 120 ألفًا أو 130 ألفًا[3].

ويبدو أن العدد الذي يورده البلاذري في الأنساب يتعلق بالمقاتلين الفعليين أما الأعداد الأخرى فربما أشارت إلى المرافقين لهم من نساء وخدم وشيوخ وغيرهم. وهو ما اختلط على المؤرخين فأوصلوا الرقم إلى 150 ألفًا.

مع بداية شهر صفر اشتعلت المعارك على امتداد أسبوع كامل، من الأربعاء إلى الأربعاء، كانت تخرج كل يوم وحدة عسكرية من جيش الإمام يواجهها معاوية بوحدة مماثلة، في اليوم الأول خرج الأشتر وقابله من جهة معاوية حبيب بن مسلمة. ثم في اليوم الثاني خرج هشام بن عتبة من جيش الإمام فواجهه أبو الأعور السلمي. في اليوم الثالث خرج عمار بن ياسر فواجهه عمرو بن العاص. وفي اليوم الرابع خرج محمد بن الحنفية فواجهه عبيد الله بن عمر بن الخطاب من جيش معاوية. وفي اليوم الخامس انشق

(1) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 2، ص 322.

(2) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، ص261. وياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج3، ص414. **والعقد الفريد**، ج3، ص332. (على التوالي).

(3) البلاذري، **فتوح البلدان**، ج2، 583. وياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج3، ص414. والبلاذري، **أنساب الأشراف**، ج3، ص97. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، ص261.

شمر بن أبرهة بن الصباح الحميري والتحق بالإمام في جماعة من قراء أهل الشام، ساء ذلك معاوية، فخاطبه عمرو بن العاص وقال له: «مهما نسيت فلا تنسَ أنك على باطل» وطلب منه أن يجمع قادة جيشه ويخطب فيهم لتحريضهم وتثبيتهم. وفي هذا اليوم خرج عبد الله بن عباس، فخرج إليه الوليد بن عقبة، وكان القتال في ذلك اليوم شديدًا طلب فيه ابن عباس من الوليد أن يبرز إليه لكنه جبن ورفض. وفي اليوم السادس خرج قيس بن سعد فواجهه ابن ذي الكلاع الحميري أما في آخر أيام الأسبوع فعاد الأشتر وخرج فواجهه مرة أخرى حبيب بن مسلمة الفهري.

وعلى امتداد أسبوع من المعارك سقط قتلى وجرحى من الجانبين دون أن تميل الكفة بشكل واضح إلى فريق دون آخر، رغم أن عدد الجرحى كان أكثر في صفوف الشاميين[1]. كانت معارك استعراضية يعلن فيها كل طرف قدراته القتالية، لكن عليًا أوقف في النهاية ذلك وأعلن التعبئة العامة وقرر دخول الجيش كله في الحرب من أجل حسم الأمور. جمع جيشه واستنهضه. لا تتفق المصادر حول أسماء قادة جيش الإمام الذي كان مكونًا من جناحين؛ ميمنة وميسرة، وقلب. كانت الميمنة مكونة من اليمنيين من قبيلة كندة وبشكل خاص مذحج وهمدان. وكان أميرها الأشعث بن قيس، وربما حل محله في اللحظات الحاسمة عبد الله بن بديل الخزاعي الصحابي الذي أسلم قبل فتح مكة وشهد حنين والطائف وتبوك، وكان من الصحابة الكبار الذين يحملون قضية الإسلام بوعي كبير، والمقربين من الإمام.

أما في الميسرة فكانت قبائل ربيعة المتمرسة على القتال وكان يقودها عبد الله بن عباس. وفي القلب، كان علي مع أهل المدينة وقبيلة مضر. ويبدو أن كل جناح كان مكونًا من وحدات من الخيالة والرجّالة التي يقودها آمر.

أما جيش معاوية فكان هو أيضًا مكونًا من جناحين وقلب. كان على الميمنة ابن ذي الكلاع الحميري، وكان هذا الجناح مكونًا من أهل حمص وقنسرين، وعلى الميسرة كان حبيب بن مسلمة الفهري الذي كان يقود أهل

(1) **موسوعة الإمام علي**، ج6، ص 110.

الأردن وفلسطين. وفي القلب، كان أهل الشام يقودهم الضحاك بن قيس الفهري. وصاحب اللواء كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. أما معاوية فلم يكن يسعه سوى التواري والاختباء.

من الواضح أن الوحدات العسكرية في كل جيش كانت في الحقيقة كتلًا قبلية. وهذا يعني أن القبيلة ما زالت تحتفظ بأهميتها وقدرتها على التعبئة، وتملك قدرًا كبيرًا من التماسك الداخلي. كان هناك في جانب الإمام، مذحج وعلى رأسها الأشتر، وهمدان ويقودها قيس بن سعد، وكنده ويرأسها الأشعث ثم لاحقًا حجر بن عدي، وطي ويرأسها عدي بن حاتم، وعبد القيس ويقودها الأحنف.. أما في الجانب الشامي، فالأمور ليست واضحة، والمعلومات قليلة. لكن لا شك في وجود قبائل حمير وقيس وجماعات يمنية وشامية أخرى.

سيبيت جيش الإمام ليلة الأربعاء بين متعهد لسلاحه وقارئ للقرآن وقائم يصلي. وستكون هناك يوم الأربعاء معركة دامية سقط فيها الكثيرون ولم يفصل بين الفريقين إلا الليل. لكن يوم الخميس 7 صفر سيكون اليوم الذي ستستعر فيه الحرب، سيكون يومًا طويلًا يتصل فيه النهار بالليل، سيحارب الفريقان ولن يوقف الليل المعركة بل ستكون ليلة دامية سميت «ليلة الهرير».

بدأ الشاميون بالهجوم على ميمنة جيش الإمام، واستطاع حبيب بن مسلمة أن يكشفها. لاحظ علي ذلك فطلب من سهل بن حنيف ومن معه من أهل الحجاز ومن الأشتر ومن معه أن يساعدوا الميمنة، وأمكن في النهاية إبعاد الشاميين. كان على الميمنة الأشعث بن قيس، وقد حاولت مجموعات من مذحج وهمدان الفرار لكن الأشتر أنقذ الموقف وأعادهم إلى المعركة. وشن هجومًا معاكسًا. وكان عبد الله بن بديل قد بادر بشن هجوم في الميمنة فقاتل قتالًا شديدًا حتى انتهى إلى معاوية المختبئ في قبته. لكن حراسه الذين بايعوه على الموت دونه صمدوا أمام هجوم ابن بديل الذي وجد نفسه محاصرًا بعد أن انكشفت ميمنة العراقيين بفعل هجوم حبيب بن سلمة الذي كان معاوية يستصرخه. لم يبق مع ابن بديل سوى مائة مقاتل من القراء، ومع إصراره على الوصول إلى معاوية، أمر هذا الأخير حراسه بإلقاء الصخور والحجارة عليه بعد أن عجزوا عن مواجهته بالسلاح، فاستشهد.

وسقط في هذا اليوم هاشم بن عتبة حامل لواء الإمام في صراع مع ذي الكلاع وقُتلا معًا. كانت عملية بطولية حاول فيها هاشم اختراق جيش الشام. لقد قاتل نهاره كله لكنه تعرض إلى طعنة شقت بطنه ولم يلبث أن سقط شهيدًا وسقط حوله جماعة من بني أسلم.

لكن استشهاد عمار بن ياسر كان له وقعه الخاص، فقد أوضح الحقائق لكل المرتابين كما هي حالة خزيمة بن ثابت الذي شهد الجمل ولم يقاتل وشهد صفين ولم يقرر دخول المعركة حتى قتل عمار، فقاتل عند ذلك حتى استشهد هو الآخر.

لقد هز استشهاد عمار جيش معاوية، فقد كانوا يعرفون حديث النبي ﷺ: «عمار تقتله الفئة الباغية»[1]. لكن معاوية تدارك الأمر وقال: «إنما قتله من أخرجه إلى الحرب»[2] وانطلت الخدعة بسرعة على الشاميين. وعندما وصل قول معاوية إلى الإمام علّق قائلًا: «فرسول الله إذن قتل حمزة»[3].

من الواضح أن قادة جيش الإمام الموالين كانوا أكثر اندفاعًا من غيرهم، كانوا يؤمنون بقوة بعدالة قضيتهم، وهم لذلك كانوا لا يبالون بالموت، فسقط منهم عبد الله بن بديل وهاشم بن عتبة وعمار بن ياسر.. لقد كانوا يبحثون عن الشهادة بالقدر نفسه الذي يبحثون فيه عن النصر.

كان مالك الأشتر هو الآخر من هذا الصنف، كان فوق امتلاكه لثقافة الإسلام، والوعي العميق، مقاتلًا من الطراز الأول. كان في الحقيقة الساعد الأيمن لعلي، الإمام والخليفة. وكان له دور أساسي في تحفيز الكوفيين وتنظيم الجيش. لم يبارزه أحد إلا صرعه، فكان كل من يعرفه يتحاشاه لأن مصيره كان معروفًا، لقد فر من أمامه عمرو بن العاص. وعندما خرج إليه مرة رجل لا أطول ولا أضخم جثة منه، أشفق أصحاب الأشتر عليه، لكنه عاجله بضربة قضت عليه. وعندما كان مالك في ليلة الهرير قاب قوسين أو أدنى من إنهاء

(1) **الطبري**، ج5، ص38. **والكامل في التاريخ**، ج2و ص381.

(2) **الطبري**، ج5، ص41.

(3) **شرح نهج البلاغة**، ج20، ص334.

المعركة بنصر حاسم لجأ معاوية إلى رفع المصاحف، فأحاط قسم كبير من العراقيين بالإمام وأصرّوا على أن يوقف الأشتر حملته.

أما الإمام، فكان يقاتل بنفسه كما فعل في معركة الجمل وكما كان يفعل دائمًا. كان الإمام من الحكام القليلين في التاريخ الذين يقاتلون بأنفسهم في المعركة وربما كان الوحيد. إن ذلك يعكس ثقة كبيرة بالنفس، وتجردًا كاملًا عن مغريات الحياة، وإيمانا راسخًا بالحق الذي يدافع عنه. إننا أمام رجل مذهل، وشخصية فريدة في التاريخ جمعت بين بأس الحرب والمعنى الإنساني العميق والعلم الواسع.. فعلي هذا أينما وجهته وجدته رجلًا استثنائيًا. لم يفهمه أهل عصره، ولم يقدّروا قيمته. وبعض أولئك الذين عرفوه أكلهم الحسد له أو الحقد عليه، فحاكوا ضده مختلف المؤامرات. أما أولئك الذين قدروا له عبقريته، وأفادوا من طاقاته، فإنهم قليلون.

قتل علي بسيفه أكثر من 500 من صناديد العرب في يوم واحد في صفين، وكان لا يتوقف عن القتال إلا إذا انحنى سيفه. كان يقاتل في أكثر الأوقات حاسر الرأس ودون دروع تحميه. لكنه كان أخلاقيًا تمامًا حتى وهو يقاتل، لقد أعرض عن عمرو بن العاص الذي استعان بعورته لإنقاذ نفسه، كان بإمكان الإمام أن يقتله، لكن حياءه منعه.

وعندما اشتد القتال، وتساقط الأبطال في ساحة المعركة، وأكلت السيوف أعدادًا كبيرة، طلب الإمام من معاوية أن يخرج إليه ويبارزه لتجنب المزيد من القتلى. كان علي يعلم أن معاوية أجبن من أن يفعل ذلك، فهو كما وصفه «قعيدة بنت البكر المخدّرة يفزعها صوت الرعد»[1].

وبالفعل، فقد كان توقع الإمام في محله. لقد وصل طلب الإمام إلى معاوية. قال له عمرو بن العاص: «لقد أنصفك الرجل»، لكن معاوية أجابه: «ليس مثلي يُخدع عن نفسه، والله ما بارز ابن أبي طالب رجلًا قط إلا سقى الأرض من دمه». ثم تراجع إلى آخر الصفوف والإمام يراقب المشهد

(1) **كنز الفوائد**، ج 2، ص 43. **بحار الأنوار ج** 33، ص 415.

مبتسمًا[1]. وكان معاوية يقول عندما يتذكر الحادثة: «والله إني لأعلم أني لو قتلته دخلت النار، ولو قتلني دخلت النار». إنه جواب لكل أولئك الذين يبررون لهذا الرجل ممارساته ويدافعون عن سياساته. كان يعلم أنه على باطل، ولم يقل إنه اجتهد بل كان يقول إن ما حمله على قتال علي هو الملك. لقد أجاب عمرو بن العاص حينما سأله عن سبب قتاله للإمام: «الملك عقيم، ولن يسمعها مني أحد بعدك»[2].

ومن أجل ذلك كان معاوية يستخدم الآخرين من أجل السلطة والملك، أما قضية عثمان فلم تكن سوى ذريعة بائسة سبق أن استخدمها ثالوث الجمل. وعندما رفض معاوية مواجهة مباشرة مع الإمام، جمع علي قرابة 12 ألف فارس، وحمل بهم على الجمع الذي كان فيه معاوية كبّروا جميعًا تكبيرة واحدة انتفضت لها صفوف الشاميين وتقدموا حتى انتهوا إلى معاوية الجالس على منبره في قبته. شعر معاوية بالخطر فطلب فرسًا.. كان يفكر في الفرار، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة مستذكرًا أبياتًا من الشعر لعمرو بن الإطنابة يقول فيها:

أبت لي عفّتي وأبى بلائي — وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإجسامي على المكروه نفسي — وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت — مكانك تحمدي أو تستريحي

نزل عن فرسه، ثم استنجد بعك والأشعريين فوقفوا دونه ودافعوا عنه[3]. لقد كان يوم الخميس يومًا ملحميًا أحمر، تساقط فيه القتلى من الطرفين بأعداد كبيرة، لكن العدد كان أكبر في الطرف الشامي الذي بدأ ينادي «البقية، البقية». كانوا يريدون إيقاف القتال الذي أصبح غير محتمل بالنسبة إليهم. وبدأوا يستحضرون شعارات جاهلية تحمل معاني الحمية والعصبية العربية.. كانوا يتحدثون عن نهاية العرب، ويتحدثون عن الخطر الخارجي: «ألا تذكرون

---

(1) **أنساب الأشراف**، ج 3، ص 85. **وقعة صفين**، ص 274.
(2) الصدوق، **الأمالي**، ص 132، 125. **وبحار الأنوار**، ج 33، ص 393.
(3) **أنساب الأشراف**، ج3، ص 88. **وقعة صفين**، ص 412.

الأرحام، أفنيتم لخم الكرام، والأشعريين وآل ذي حمام.. أما تذكرون أهل فارس والروم والأتراك»[1]. وكانوا يقولون: «من لثغور الشام بعد هلاك أهل الشام؟ من لثغور العراق بعد هلاك أهل العراق؟، من للذراري والنساء؟»[2].

وعلى هذا النحو ظهر لدى الشاميين خوف شديد من تواصل الحرب. لقد شعروا أن هزيمة ساحقة تقترب منهم. لا شك أن هذه الشعارات وهذا الصراخ الذي كان ينطلق من الجبهة الشامية، كان له وقعه لدى قسم كبير من جيش الإمام.. ذلك القسم الذي سيجبر الإمام على إيقاف الحرب بعد خدعة رفع المصاحف.. حتى معاوية بدأ يبحث عن مخرج فأرسل إلى ابن عباس يستعطفه من أجل إيقاف المعارك.

كان الأشتر على وشك تحقيق نصر حاسم، كان التاريخ سيمشي سويًا على قدميه لو حدث ذلك. لقد استمرت الحرب ليلة الجمعة ولم تتوقف كما هي عادة الحروب في تلك العصور. كان ابن عباس يقود الميسرة وعلي في القلب والأشتر على الميمنة. لكن عليًا كان موجودًا في كل مكان، كان يتحرك يمنة ويسرة يحرض مقاتليه رغم سقوط الكثيرين بين قتلى وجرحى.

وعندما رأى عمرو بن العاص، أن هزيمة الشاميين واقعة لا محالة اقترح على معاوية رفع المصاحف. لم تكن تلك فكرة جديدة. لقد فعلها الإمام قبل بداية معركة الجمل عندما أرسل شابًا بالمصحف يدعو ثالوث الجمل لما فيه، وقتل آنذاك ذلك الشاب بأمر من عائشة. إن عمرو بن العاص يسرق الفكرة، ولكنه هنا يستخدمها لإنقاذ معاوية وجيشه وليس من أجل الاحتكام إلى القرآن حقيقة. قبل معاوية المقترح فورًا ورفعت المصاحف على الرماح! كان مقاتلة الشام يقولون: «هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام، من لثغور العراق بعد أهل العراق؟»[3].

وبسرعة كبيرة وجدت تلك الدعوة قبولًا لدى قسم كبير من العراقيين. كان

---

(1) ابن مزاحم، **وقعة صفين**، ص 302.

(2) م. ن، ص302.

(3) **الطبري**، ج 5، ص 48.

بعضهم يريد إيقاف الحرب فعلًا. وكان الأشعث بن قيس هو من يقود هذا الفريق، لقد استماله معاوية من قبل ودعاه إلى نفسه[1]. كان في الحقيقة شخصًا مزروعًا في جيش الإمام. واستطاع أن يكون مؤثرًا في عقول الكثيرين داخل هذا الجيش وهم أولئك اليمنيون من أبناء قبيلته، والقراء الذين يفتقدون الوعي، بما يجري حولهم.

قال الإمام منذ البداية: «إنها مكيدة، وليسوا بأهل قرآن». وأكد لمقاتليه: إن القوم «أرادوا صرفكم عنهم»[2]. لكن الأشعث هدد بالانشقاق وأيّده في ذلك اليمنيون. بل إن الأشعث سينتقل إلى تهديد الإمام نفسه بعد أن رأى تأييد اليمنيين له، ليقول له: «والله، لتجيبنّهم إلى ما دعوا إليه، أو لندفعنّك إليهم برمتك»[3]. إنه تهديد صريح ومباشر بتصفية الإمام / الخليفة أو تسليمه للعدو. إنها الخيانة في أبشع صورها. وتلك هي محنة الإمام الذي أصبح يواجه عدوين، عدو من الخارج وعدو من الداخل.

أراد الإمام أن يوضح الأمر للمخدوعين فوقف يقول: «إنهم والله ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكر، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا»[4]. لكن قسمًا كبيرًا من جيشه وأصحابه أحاطوا به. كانوا قرابة الـ20 ألفًا من أصحاب الجباه السود يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين.. طالبوه بالاستجابة لدعوة الشاميين وهددوه مرة أخرى بالقتل إن لم يفعل. طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ويأمره بإيقاف حملته، ليتحول علي في لحظة من أمير إلى مأمور.

كان الأشتر على مقربة من معاوية، كان يوشك أن يجهز عليه، بينما كان معاوية يفكر في أن يأخذ له الأشتر الأمان من الإمام، أو الهرب. لكن الأشتر

(1) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 3، ص 98. **فتوح البلدان**، ج 3، ص 180. **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، ص188.
(2) م. ن.
(3) م. ن.
(4) ابن مزاحم، **وقعة صفين**، ص 489. والطبري، ج 5، ص 48.

اضطر إلى إيقاف حملته خوفًا على حياة الإمام أو أن يصيبه مكروه بعد أن تلقى تهديدات اليمنيين والقراء.

لقد كان رفع المصاحف وسيلة ناجعة لخداع قسم كبير من جيش الإمام. لاشك أن ذلك كان مكرًا استخدم لإيقاف الحرب. لكن يبدو أن اليمنيين وجمهور القراء كانوا أيضًا يبحثون عن مخرج لإيقاف المعارك. لقد ملّوا الحرب أو أنهم بدأوا يخشون الموت هم أيضًا. لقد قالها لهم الأشتر بوضوح: «يا أصحاب الجباه السود! كنا نظن صلواتكم زهادة في الدنيا وشوقًا إلى لقاء الله عز وجل، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت»[1]. لقد أنقذ المصحفُ معاوية الذي لم يؤمن به يومًا، وتلك هي مفارقات التاريخ!

---

(1) **الطبري**، ج 5، ص 49. البلاذري، **فتوح البلدان**، ج 3، ص 186. ابن مزاحم، **صفين**، ص 490.

الوصل التاسع

التحكيم وميلاد الخوارج

لم يكن رفع المصاحف سوى حركة ماكرة أراد من خلالها عمرو بن العاص إنقاذ معاوية من هزيمة مدوية. ورغم أن هذا الرجل كان أبعد الناس عن القرآن، إلا أن الأشعث وقبيلته ثم أصحاب البرانس والجباه السّود من جمهور القراء، وجدوا في هذه الحركة فرصة للتخلص من عبء الحرب التي كانوا في شك منها منذ البداية. كان إصرارهم على إيقاف الحرب مزيجًا من الانخداع والرغبة في وقف المعارك.

وعلى هذا النحو أُرغم الإمام على إيقاف المعارك بعد أن أحاط به القراء وأطلقوا تهديداتهم ضده. والمفارقة أن هؤلاء الذين فرضوا وقف المعارك ثم قبلوا التحكيم، سيعلنون لاحقًا رفضهم لهذا التحكيم وانشقاقهم عن الإمام. وقد لعب الأشعث دورًا مشتبهًا فيه في تحريض القراء واليمنيين من أجل الضغط على الإمام الذي لم يجد أمامه سوى قبول هذا المطلب.

كان من الممكن أن يكون وقف المعارك موقتًا، لكن عليًا الذي كان يرفض فرض أي شيء على أنصاره استشار قادة جيشه فكان بعضهم معارضًا لوقف الحرب بشكل واضح كما هي حالة الأشتر وعدي بن حاتم وحجر بن عدي وعبد الله بن عباس.. غير أن آخرين مثل سعيد بن قيس زعيم الهمدانيين والأشعث بن قيس زعيم كندة وبعض زعماء ربيعة.. كانوا يريدون إيقاف الحرب. ورغم أن الإمام كان مع مواصلة الحرب، إلا أنه لم يكن بوسعه الوقوف ضد الأغلبية التي أرادت وقف الحرب. لقد أوضح الإمام ذلك عندما أجاب عُدي بن حاتم الذي سأله: «ألا نقوم حتى نموت؟!» أجابه بقوله: «ويحك! إن عامة من معي يعصيني، وإن معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه»[1].

(1) **وقعة صفين**، ص 379. ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج 28، ص 77.

إن القول بأن عليًا أوقف الحرب عن طيب خاطر، وأنه لم يتعرض لأية ضغوط[1] ليس صحيحًا. والصحيح أن الإمام احترم رغبة الأغلبية رغم أنه كان يراه موقفًا خاطئًا. وهذا في الحقيقة جزء من سلوكه الديمقراطي. كان يقول: «قد أحببتم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون»[2].

كانت هناك إذن رغبة شامية في إيقاف الحرب بعد أن لاحت بوادر الهزيمة، وهي رغبة قابلها جمهور القراء في جيش الإمام برغبة مماثلة. لم يكن الأمر يتعلق برغبة في السلام من جانب معاوية، بل كان وهنًا أوجد له عمرو ابن العاص خدعة رفع المصاحف لإنقاذ حاكم الشام وجيشه.

أما الحجة في إيقاف الحرب من الجهتين، فكانت الامتثال إلى كتاب الله وحكمه. كان ذلك في الحقيقة مجرد شعار من جهة معاوية. وسيتضح ذلك من خلال الحَكَمين الذين رُشحا للتحكيم. لقد رشح الشاميون عمرو بن العاص دون خلاف، ومن الواضح أن عَمْرًا هذا كان بعيدًا عن القرآن وهو الذي صرّح عندما بايع معاوية أنه يبيع دينه.

لكن في الجانب العراقي كان هناك خلاف حول اسم ممثلهم في التحكيم، طرح الإمام في البداية اسم الأشتر لكن الأشعث رفضه، فاقترح ابن عباس فرُفض هو الآخر. من الواضح أن الأشعث أصبح في موقع قوة يسمح له بفرض اسم الممثل. لقد استنجد بمنطق القبيلة لتبرير رفضه لابن عباس ليقول: «لا يحكم فيها مضريان»، وحاول الإيهام بحرص الأشتر على الحرب لرفض اسمه. سيكون ذلك تمهيدًا لفرض اسم أبي موسى الأشعري الذي سيتم جلبه من الشام. كان الأشعري من القرّاء أصحاب البرانس، وكان صاحب سوابق سيئة مع علي. كان في الحقيقة أحد القراء ولكنه اعتزل الحرب بعد أن طرده الأشتر من الكوفة.

وفوق انحرافه عن الإمام، كان شخصًا بليدًا، بلا وعي سياسي ولا خبرة كافية تجعله كفؤًا لعمرو بن العاص. إن فرض أبي موسى الأشعري كان مأساة

(1) هشام جعيط، **الفتنة**، ص 251.

(2) **وقعة صفين**، ص 483. ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج1، ص 136.

أخرى تضاف إلى المآسي السابقة التي عاناها الإمام.. فإذا كان معاوية يتمثل بشخص موال له تمامًا، فإن الإمام وجد نفسه مرغمًا على أن يتمثل بشخص يُعاديه حقيقة. لقد أصبح الأشعث واليمنيون يمثلون أغلبية في جيش الإمام إلى جانب القراء. وفَرْض الأشعري لا يعني شيئًا سوى أن أغلبية جيش الإمام أصبحت خارج سلطته، وأقرب إلى الحياد الذي لا يعني شيئًا سوى خدمة أهداف معاوية. كان الإمام يتعرض لخيانة أغلبية جيشه، هذا الجيش الذي أصبح يقول له: «لا نريد إلا رجلًا سواء بينك وبين معاوية».

إن القراء الذين خذّلهم أبو موسى الأشعري عن الإمام في معركة الجمل، يطلون اليوم من جديد ليأخذوا مواقعهم القديمة. لقد رفضوا في الماضي المشاركة في معركة الجمل، وهم اليوم يرفضون مواصلة الحرب. بل إنهم اليوم يتذكرون زعيمهم المطرود أبا موسى الأشعري ليقولوا إنه كان على حق عندما نبّههم وحذرهم[1]. وعلى هذا النحو كانت نزعة الشك في قيادة الإمام تزدادا اتساعًا.

لقد فهم الخوارج، كما سيسمون لاحقًا، هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾[2] على نحو خاطئ. كانوا يرون أن معاوية وجماعته يمثلون الفئة الباغية. وهم لذلك اعتبروا أن مجرد رفع المصاحف كان يمثل عودة إلى أمر الله. لكن الحقيقة هي أن معاوية وأصحابه جعلوا من القرآن مجرد وسيلة لإنقاذ أنفسهم. لم يفئ معاوية وحزبه قط إلى أمر الله.. وقد رفض الإمام الإقرار بأن معاوية وأصحابه مؤمنون أو مسلمون من الأساس وكان يقول: «ما أقر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون، ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء ويقر بما شاء لنفسه وأصحابه، ويسمي نفسه بما شاء وأصحابه»[3]. كان اليمنيون الذين يقودهم الأشعث والقراء متفقين منذ البداية

(1) **الطبري**، ج 5، ص 51. البلاذري، **فتوح البلدان ج 3**، ص 193.

(2) سورة الحجرات، الآية: 9.

(3) **وقعة صفين**، ص 509. **شرح نهج البلاغة ج2**، ص 233.

على وقف المعارك ثم اختيار حكمين. ويبدو أن القراء هم الذين فرضوا أبا موسى الأشعري ممثلًا عنهم بفضل دعم الأشعث[1].

أما الصيغة المتداولة لوثيقة التحكيم فهي تلك التي يوردها الطبري، وفيها اتفاق بين الطرفين على مرجعية القرآن، وأن الحكمين أبا موسى الأشعري وعمر بن العاص ملزمان بالتقيد بأحكامه. وأن أجل انقضاء الوثيقة يمتد إلى رمضان 37هـ، أي ثمانية أشهر من حين إمضائه. أما مكان اللقاء فهو متوسط بين الكوفة والشام، وهو بذلك غير محدد بدقة. وبإمكان الحكمين أن يُحضرا من شاءا من الشهود[2].

واللافت في هذه الوثيقة إكراه الإمام علي على محو لقبه «أمير المؤمنين». لقد سبق أن حدث مع النبي شيء مثل هذا في صلح الحديبية عندما أكره على محو لقبه «رسول الله». إن أمير المؤمنين هنا هو لقب حقيقي لعلي. أما الآخرون الذين أطلقوا على أنفسهم هذا اللقب، فلم يكن بالنسبة إليهم سوى لقب اعتباري. لقد كان علي، ولا يزال، أميرًا وإمامًا بشكل حقيقي. وإذا كان الإمام قد أكره على محو لقبه هذا، فإن ذلك لا يغير من الواقع شيئًا لأن عليًا يبقى أميرًا لكل المؤمنين الذين قبلوا أن يكون إمامًا لهم. تمامًا كما أن محو لقب «رسول الله» لا ينفي أبدًا حقيقة كونه رسولًا من الله إلى الناس جميعًا.

لقد اعترض عمرو بن العاص على وضع هذا اللقب بحجة أن أهل الشام لا يعترفون بعلي أميرًا للمؤمنين. ولم يكن غريبًا أن يدعم الأشعث موقف ابن العاص.. لقد حدث كل شيء ضد الحقيقة.

انشقاق الحرورية

كان القراء هم من فرض على الإمام إيقاف الحرب. لا شك أن ذلك كانت له استتباعاته التي لم يكن هؤلاء يدركونها. لم يفهموا أن وقف المعارك

---

(1) **أنساب الأشراف**، ج 2، ص 338.

(2) **الطبري**، ج 5، ص 53.

يستتبع بالضرورة توقيع وثيقة هدنة. وهم لذلك سيحتجون على الإمام في أكثر من نقطة، لقد احتجوا عليه في تحكيم الرجلين الأشعري وابن العاص وإقرار الهدنة. فأوضح لهم أن القرآن هو الحكم، ولكنه «خط مسطور بين دفتين لا ينطق، وإنما يتكلم به الرجال»، وقال لهم إن الهدنة يمكن أن تكون فرصة لمن لم يتبين حقيقة الأمور حتى يراجع موقفه، ولمن كان مصرًا على عناده حتى يعود عن ذلك.

كانوا يمثلون كتلة مهمة، ووصل عددهم إلى 12 ألف رجل[1]. سينفصلون عن الإمام عند بلوغهم الكوفة ليلجؤوا إلى حروراء، ومن هنا تسميتهم بالحرورية. ولن يبقى مع الإمام سوى شيعته الحقيقيين. ليظهر لأول مرة مصطلح الشيعة بمعناه الضيق الذي سيصبح عنوانًا لكل الموالين لعلي. كانت كلمة الشيعة قبل ذلك تستخدم بمعناها اللغوي الواسع الذي يعني الأنصار والأتباع. وقد وردت في وثيقة التحكيم بهذا المعنى، فتحدثت عن شيعة علي وشيعة معاوية. وحتى النبي ﷺ استخدمها قبل ذلك بهذا المعنى اللغوي، وهو لذلك كان يضيفها إلى علي ليتحدث عن شيعة علي وليس الشيعة دون إضافة كما سيصبح عليه المصطلح لاحقًا.

لقد جدد الشيعة بيعتهم للإمام وقالوا له: «نوالي من والاك ونعادي من عاداك». وبينما كان الحرورية ينشقون، كان الأشعث وجماعته يقفون على الحياد، وهو ما أنتج في النهاية الموقف الحاسم الذي سيتخذه الإمام وشيعته ضد هذين الفريقين.

اكتشف القراء، الذين لجأوا إلى حروراء والذين سيدعون بالخوارج لاحقًا، خطأ موقفهم عندما فرضوا إيقاف الحرب، والاستجابة لخدعة رفع المصاحف. فَهِموا أنهم كانوا على خطأ وقالوا لعلي: لقد كفرنا بما فعلنا، وإنّا تائبون. ولكنك أنت أيضًا كفرت فعليك أن تتوب وتسقط الهدنة مع معاوية وتعود إلى مقاتلته. لاشك أن الإمام لم يكن بوسعه الاستجابة لهذا المطلب

(1) **الطبري**، ج 5، ص 63. البرّادي، ص 118.

الذي يتناقض مع التزاماته الدينية وقيمه الأخلاقية. وعندما تأكد القرّاء أن الإمام لن يستجيب لهم انفصلوا عنه، وعسكروا في حروراء قريبًا من الكوفة. لقد كان هذا الانفصال يعني خروجًا على الإمام ومن هنا تسميتهم بالخوارج. وهم بذلك سيضعون أنفسهم في مواجهة الشيعة الذين سيقفون منذ الآن وحدهم مع علي في مواجهة أعدائه.

كان الخوارج يحملون منطقًا متهافتًا. وكانوا في معظمهم يتوهمون أنهم على حق، وعندما سيتمكن الإمام من إزالة هذا الوهم، فإن أكثرهم سيعود إلى صفوف الشيعة. سيجعلون، عند معسكرهم في حروراء، شبث بن ربعي التميمي المؤذن السابق لسجاح مدعية النبوة، أميرًا للقتال، وعبد الله بن الكواء اليشكري إمامًا للصلاة.

سيرسل إليهم الإمام ابن عباس لإقناعهم بالحجج والبراهين بالعودة إلى وحدة الصف، ثم التحق بهم علي بنفسه وتمكن من إقناع العدد الأكبر منهم. كانوا في البداية 12 ألف مقاتل، لن يبقى منهم سوى ثلاثة آلاف أو أربعة سيقاتلون في النهروان. لقد أقنعهم أن القرآن لا ينطق بذاته، بل يتكلم به الرجال. وأفهمهم أن الحكمين عليهما واجب التقيد بأحكام القرآن كما نصت عليه وثيقة الهدنة[1].

لن يعترف الإمام بخطأ لم يرتكبه، ولن يحكم على نفسه بالكفر كما طلب الخوارج وهو المسلم الأول. لقد فرض عليه كل شيء من إيقاف الحرب إلى تعيين الحكمين. والذين يتحملون المسؤولية هم وحدهم الذين فرضوا ذلك.. رفض الإمام النكث بعهده، وأعلن التزامه بوثيقة الهدنة، أما الخوارج فقد تراجع أكثرهم عن موقفهم الخاطئ. لقد فعلوا ذلك بسبب اقتناعهم بصوابية موقف الإمام وليس أبدًا لأنه أطلق وعودًا بالعودة إلى قتال معاوية وعدم الالتزام بالهدنة.. إن ذلك مما لا يمكن أن يصدر عن الإمام[2].

---

(1) **الطبري**، ج 5، ص 63 ـ 64. **أنساب**، ج 3، ص 114.

(2) البرّادي، ص 125. وهو مصدر خارجي، يقول إن الإمام أعطى للخوارج العهد والميثاق برفض التحكيم والعودة إلى مقاتلة معاوية. وهو ما لا يمكن الأخذ به خصوصًا وأنه مصدر غير محايد.

مؤتمر التحكيم

في شهر ذي الحجة أو محرم سنة 38هـ/ 658 م، عقد في دومة الجندل مؤتمر التحكيم. وقد شكك بعض المؤرخين في مكان الاجتماع واعتبروا أنه وقع في أذرح. لكن أكثر المصادر تشير إلى أنه وقع في دومة الجندل، وهي مدينة قرب تبوك بين المدينة والشام[1]. ومهما كان موقع الاجتماع، فإنه لا يملك أية أهمية تستدعي التوقف عنده طويلًا.

لم يكن الإمام علي مترددًا قط في تنفيذ تعهداته بخصوص التحكيم كما توهم بعضهم[2]. صحيح أن عليًا كان ضد التحكيم منذ البداية، وضد أن يكون أبو موسى ممثلًا عنه. غير أن ذلك لم يكن ليثنيه عن الالتزام بتعهداته. لقد قبل الإمام إيقاف الحرب وتوقيع وثيقة الهدنة لأن ذلك كان خيار أغلبية جيشه. ورغم أن الحرورية كانوا يضغطون من أجل أن يتراجع الإمام عن تلك التعهدات، إلا أن تلك الضغوط لم تكن لتثنيه عن المضي في الوفاء بمضمون الوثيقة. إن ذلك مما تمليه عليه التزاماته الدينية والأخلاقية التي لا مجال للتشكيك فيها أبدًا.

وقع اللقاء بين الطرفين على الأرجح في دومة الجندل مرة واحدة. حضر أبو موسى الأشعري في 400 شخص من العراق، وحضر عمرو بن العاص في عدد مماثل من الشام. وقد كان المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير الذين اعتزلوا حرب صفين حاضرين، كان بعضهم يريد شهرة، بينما كان البعض الآخر يطلب السلطة. كانوا على كل حال مجموعة من الطامحين. كان المغيرة رجلًا بلا دين، وكان ابن الزبير شخصًا كريهًا، أما عبد الله بن عمر فكان رجل دنيا بلا مبادئ. وكان الغائب الأبرز بين هؤلاء سعد بن أبي وقاص الذي اعتزل هو الآخر صفين. لكنه لم يكن الغائب الوحيد، بل غاب أيضًا زيد بن ثابت وأسامة بن زيد.

كان الإمام مدركًا منذ البداية أن أبا موسى الأشعري سيُخدع، فقد كان

(1) **الطبري**، ج 5، ص 70، **وقعة صفين**، ص 539، **الأخبار الطوال**، ص 199. **فتوح البلدان**، ج 4، ص 214. اليعقوبي، ج 2، ص 190. **مروج الذهب**، ج 2، ص 406.

(2) جعيط، **الفتنة**، ص 217.

هذا الرجل بليدًا ومغفلًا، وكان فوق ذلك منحرفًا عنه. أحضره الإمام إليه وأوصاه أن يحكم بكتاب الله ولا يتجاوزه، ثم قال بعد أن خرج من عنده: «كأني به وقد خُدع». لكن الإمام لم يكن بوسعه استبداله.. كانت النتائج إذن، معروفة مسبقًا لدى أمير المؤمنين، ولم يكن يأمل من هذا المؤتمر شيئًا سوى ترسيخ الفتنة. ومع ذلك فقد حاول أصحاب الإمام تقديم نصائحهم لأبي موسى، وتلك كانت حالة ابن عباس وشريح بن هاني والأحنف بن قيس. لقد ذكروه بحق علي وأفضليته وسابقته وشرعية قيادته في مقابل معاوية الطليق الذي لا حق له في الخلافة ولا في الشورى. وأكدوا له أنه في ظل خلافة الإمام فلا خوف على أهل الشام، وفي ظل سلطة معاوية فلا بقاء لأهل العراق.

ذكروه بسوابقه مع أمير المؤمنين، ونصحوه بأن يجعل من هذه المناسبة تكفيرًا عن أخطائه السابقة. وألح الأحنف على أسلوب المحاجّة، قال له: «إذا لقيت عَمْرًا غدًا فلا تبدأه بالسلام، فإنها وإن كانت سنّة إلا أنه ليس من أهلها، ولا تعطيه يدك، فإنها أمانة، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش، فإنها خدعة، ولا تلقه وحدك، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود»[1]. لكن هذه النصائح كلها لن تجد أذنًا صاغية عند الأشعري.

اجتمع هذا الرجل مع عمرو بن العاص، ومنذ البداية انطلق ابن العاص في تنفيذ مخططه للإيقاع بالأشعري. كان يخاطبه باللقب الذي يحبه «صاحب رسول الله»، وكان يصر على أن يتكلم أبو موسى أولًا.. أعطاه صدر المجلس وقدمه في الصلاة وكان لا يأكل حتى يأكل الأشعري، وبهذه الطريقة انتزع ثقته فيه.

اقترح أبو موسى اسم عبد الله بن عمر بديلًا عن علي ومعاوية. رفض ابن العاص اسم عبد الله بن عمر واقترح ابنه هو. لكن الأشعري قال إنه لم يكن محايدًا وكان في صف معاوية. لقد طلب أبو موسى خلع علي ومعاوية من أجل أن يستخلف عبد الله بن عمر الذي كان صهرًا له. لم يقبل عمرو بن العاص اسم ابن عمر واقترح أن يكون الأمر شورى وقال للأشعري أنت تخلع عليًا

(1) ابن شهر آشوب، **المناقب**، ج 2، ص 260. المجلسي، **بحار الأنوار**، ج 41، ص 310.

وأنا أخلع معاوية. لم يكن ذلك هو الموقف الحقيقي لابن العاص، بل كان مجرد وسيلة للإيقاع بالأشعري. لقد حلف له وأعطاه العهود والمواثيق على صدق استجابته لمقترحه. وهنا اطمأن أبو موسى ودفعه ابن العاص إلى أن يتكلم أولًا. ورغم تحذير ابن عباس، وتأكيده أن ابن العاص، رجل غادر، فإن أبا موسى الأشعري لم يسمع نصيحة ابن عباس، ووقف ليقول إنه يخلع عليًا ومعاوية معًا وإن الأمر شورى بين المسلمين. ثم تقدم عمرو بن العاص وقال إنه يخلع عليًا كما فعل الأشعري لكنه «يثبت معاوية لأنه ولي دم عثمان وأحق الناس بمقامه».

وهنا عمت الفوضى، وتلاحى الطرفان وظهرت مشاهد عنف فضرب شريح بن هانئ عمرو بن العاص بسوطه.. وانفضّ الاجتماع. أما الأشعري فإنه هرب بفضيحته إلى مكة خوفًا من ردة فعل الإمام. لقد غَيَّب عليًّا تمامًا في حديثه مع عمر وابن العاص، وكان يطرح دائمًا اسم عبد الله بن عمر. كان يتظاهر بأنه محايد لكنه في الواقع كان يخدم أهداف معاوية حتى وإن لم يكن يعي ذلك.

ورغم أن ما صدر عن عمرو بن العاص لم يكن مقبولًا قط ولا جديًا، إلا أنه ستكون له تداعياته. سيبدأ الشاميون منذ تلك اللحظة بالسلام على معاوية بإمارة المؤمنين. بينما سيزداد وضع الإمام تراجعًا أمام استفحال الفتنة داخل معسكره. إن ما فعله ابن العاص لا يدل على مكر ودهاء بقدر ما يدل على تحلل هذا الشخص من أية قيم أخلاقية أو دينية. إنها حركة تفضح تمامًا مروق هذا الرجل، لتبقى ممارساته عارًا تاريخيًّا لا يمحى.

ولا يمكن رفض رواية التحكيم جملة كما فعل لامنس بحجة أن خدعة بهذا الحجم يمكن أن ترتد على عمرو بن العاص ومعاوية. لا شك أن لامنس هذا ليس لديه فكرة عن مقدار الجهل والسذاجة الذي كان يتمتع به الناس في تلك الفترة بعد الجهد الكبير الذي بذله الخلفاء الثلاثة ومعاوية على نحو خاص من أجل منع الحديث وإحياء الثقافة الجاهلية من خلال تشجيع الشعر والاستنجاد باليهود لتفسير القرآن على أساس التوراة وزراعة الجهل والخرافة في كل مكان.

إن ردة الفعل السلبية تجاه معاوية وابن العاص لا يمكن أن تصدر إلا عن الأقلية الواعية والمثقفة والملتزمة، والتي كانت بطبيعتها ضد هذا الثنائي من خلال موقعها في صف الإمام علي. إن ما جرى في مؤتمر التحكيم يبرز المسافة الكبيرة التي كانت تفصل الناس عن القرآن والإسلام. لقد كانت قيم الإسلام ومبادئه هي الغائب الأكبر في حركة الناس كما في حركة الحكام. ولم يكن يُستحضر القرآن إلا من أجل التبرير والتجبير. كان القرآن يُستخدم فقط عندما تقتضي المصلحة الذاتية ذلك على أساس قراءة حرفية ومجزأة، وكان هذا ما يؤرق عليًّا ويثير سخطه.

ميلاد الحزب الخوارجي

كان المُحَكِّمة قد اختاروا الانشقاق بعد إيقاف الحرب والعودة إلى الكوفة.. وأصبحوا خارج نظام الدولة ومن هنا تسميتهم بالخوارج. لم يكتفوا بذلك بل إنهم بدأوا بإثارة الاضطرابات وتخريب الأمن العام في الكوفة. بدأوا يتجرؤون على الإمام نفسه في الجامع الأكبر، كانوا يقاطعونه أثناء الصلاة.. مرددين شعارهم المعروف «لا حكم إلا الله» من أجل الضغط عليه للتراجع عن تعهده تجاه الشاميين. لم يحاول الإمام قمعهم أو منعهم من عطائهم بل كان يسمح لهم بأن يقولوا ما يشاءون وكان فقط يواجههم بالحجة والدليل في حواراته معهم. ولن يقاتلهم إلا عندما سيبدؤون بقطع الطرق وقتل الناس.

لم يكن هؤلاء الخوارج منذ البداية من أصحاب علي ولا من شيعته المقربين، كانوا يمثلون ثقلًا في جيشه، لكنهم لم يكونوا من الموالين لشخصه، ولذلك كانوا يحتجون عليه في كل قرار يتخذه فكان يعاملهم بكثير من الصبر والأناة. كانوا في الحقيقة يختلفون عنه في كل شيء، وبهذا المعنى كانت جرثومة التصدع كامنة فيهم، وستنفجر في لحظة معينة بقوة كبيرة عندما سيضطر الإمام إلى مواجهتهم عسكريًا.

كان الأمر يتعلق بمجموعة من القراء الذين يحفظون القرآن، ويبدون كثيرًا من التعمق في العبادة. لكنهم كانوا يملكون وعيًا غبيًا لا يفهم حقيقة ما يجري. لقد توغلوا في الدين إلى حد الخروج عنه كما «يخرج السهم من الرمية» كما

يروى عن النبي[1]. كانوا فئة من المتطرفين والمتشددين في الدين سيتحولون إلى إرهابيين على نحو ما نرى هذه الأيام لدى الفئات السلفية. كانوا يسبحون في الظلام، وهم لذلك كانوا يمرون بالدين دون أن يهتدوا بهديه ولا أن يستنيروا بأنواره.

أما التصاقهم بالقرآن، فلم يكن إلا التصاقًا شكليًا. لم يفهموا عمق المعنى القرآني ولا قيمه.. وكان فهمهم له حرفيًا ومجزأً بعيدًا عن أية قراءة موضوعية ذات أبعاد قيمية. ولأجل ذلك لم يكن القرآن مرجعًا حقيقيًا بالنسبة إلى الخوارج بقدر ما كانت أهواؤهم وعصبياتهم هي هذا المرجع. لقد أصبح القرآن مجرد مسوغ لعنادهم. كانوا مثلًا يطالبون الإمام بنكث اتفاق الهدنة مع معاوية في الوقت الذي يلزم فيه القرآن باحترام تلك المواثيق حتى لو كان الطرف المقابل من غير المسلمين.

اعتقدوا في البداية أن القرآن يمكن أن يكون وحده هو الحاكم، لكنهم اصطدموا لاحقًا بحقيقة أنه «لابد للناس من إمام بر أو فاجر». لقد اقتنعوا أخيرًا بكلام الإمام الذي خرجوا عليه، واختاروا عبد الله بن وهب الراسبي أميرًا عليهم.. فهموا أخيرًا أن السلطة مؤسسة ضرورية لأمن المجتمع ونظامه وتوازنه.

كانوا في الحقيقة مجموعة من الشكاك الذين استقر الشك في داخلهم وكان الموضوع الأكبر لهذا الشك هو الإمام نفسه. ومن هنا مجادلته في كل شيء، ومخالفة آرائه ومواقفه. وصفهم الإمام بأنهم من ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2]. لم يكونوا إسلاميين في شيء، حتى مظهرهم الخارجي لم تكن له علاقة بالإسلام، أما ثقافتهم فكانت ثقافة بدوية تتلبس بالإسلام دون حقيقة. وهذا هو شأن القوى السلفية اليوم التي لا تفهم الإسلام إلا على أساس خلفيتها البدوية، وهم لذلك سيطالبون الإمام أن ينكث عهوده. وفي النهاية سيتحولون إلى قطاع طرق مهمتهم السلب والنهب. وهذه هي سمات المغالين دائمًا. أشخاص فارغون بلا عقل ولا قيم.

(1) **صحيح البخاري**، ج 6، ح 2541.

(2) سورة الكهف، الآية: 104.

وليس غريبًا بعد ذلك أن يحاولوا فرض رؤيتهم بشكل استبدادي دون احترام رغبة الأكثرية. فالأشخاص الفارغون كثيرًا ما يلجؤون إلى الأساليب الديكتاتورية لفرض تصوراتهم. كان الخوارج بدوًا، والبداوة هنا تعني طريقة في التفكير وأسلوبًا في التعامل، وليس المقصود بها نمط حياة بعيدًا عن الحضارة. ولأجل ذلك لا طائل في مراجعة الأصل القبلي لهؤلاء الخوارج كما يفعل البعض. ومع ذلك فقد كان أكثرهم من مضر وقيس وبكر وطي وهي قبائل بدوية بلا شك.

نهاية الخوارج / بداية الخوارج

لن تكون نهاية الخوارج نهاية مطلقة، ولكنها ستكون تصفية لهم على نطاق واسع. لن ينجو منهم سوى بضعة أفراد، ربما تسعة أشخاص فقط، أما البقية فسقطوا بين قتلى وجرحى. بدأوا يطوفون على الناس ويطلبون رأيهم في أبي بكر وعمر، وخصوصًا في علي وعثمان، وكل من كان يحمل رأيًا مخالفًا لرأيهم سموه كافرًا. ومن هنا ادعاؤهم العريض أنهم وحدهم «المسلمون»، فالآخرون بالنسبة إليهم كفار ودمهم مباح. كانت تلك في الوقت نفسه عقيدة دينية بلا أساس وإيديولوجيا سياسية متطرفة بلا أفق. ولأجل ذلك لن يترددوا في إراقة دماء الناس بأية طريقة حتى لو كان ذلك غيلة.

كان الإمام مقيمًا بالكوفة ينتظر انقضاء المدة المتفق عليها مع أهل الشام من أجل العودة إلى محاربة معاوية، لكن الحرورية الذين انشقوا عنه بعد معركة صفين كانوا مصرين على الخروج عليه. كانوا في البداية نحو 4000 فارس من أصحاب البرانس، ثم انضم إليهم ما يزيد على 8000 رجل ممن يرى رأيهم وأصبحوا قرابة 12000 مقاتل نزلوا بحروراء، وأمّروا عليهم عبد الله بن الكواء[1]. كانوا في أغلبهم من الكوفيين ولم يكن هناك سوى 500 من البصريين[2].

بعث إليهم أمير المؤمنين ابن عباس يحاجّهم لكنهم لم يستجيبوا له،

---

(1) **فتوح البلدان**، ج4، ص 251.

(2) **الطبري**، ج 5، ص 76.

فخرج إليهم الإمام بنفسه في مائة فارس، واستطاع أن يقنع عددًا كبيرًا منهم، وعلى رأسهم ابن الكواء، وبقي منهم في النهاية ما بين 2800 و4000 رجل[1].

وبعد فشل مؤتمر التحكيم، اجتمع الخوارج وولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، ثم عسكروا على جسر النهروان. كان علي يحدس أن القوم مصممون على القتال وكان يقول: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون»[2]. بعث إليهم الإمام يعطيهم الأمان وحرية الحركة ما لم يخرجوا على القوانين ويعتدوا على الناس. وأعلمهم أنه يريد المسير إلى الشام. ثم عسكر بالنخيلة بعد أن تلقى إجابة غير مطمئنة من الخوارج ويئس من عودتهم إلى صوابهم. كان يقول لهم: «لكم عندنا ثلاث خصال: لا نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها، ولا نمنعكم الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بحرب، حتى تبدؤونا»[3]. لقد أراد أن يفهمهم أنه يلتزم حتى في تعامله مع أعدائه أحكام الإسلام وقيمه.

حاول الإمام عبثًا استمالتهم، فأرسل إلى عبد الله بن وهب يدعوه وجماعته للالتحاق به لمواجهة معاوية، غير أن جوابهم كان مطالبتهم إياه بالإقرار على نفسه بالكفر ثم إعلان التوبة من ذلك!. وفوق ذلك كله، بدأوا بارتكاب جرائم بحق الناس. لقد دخلوا إحدى القرى، وعندما رأوا رجلًا عرفوا لاحقًا أنه عبد الله بن خباب صاحب النبي ﷺ يسوق بامرأته على حمار. أوقفوه وهددوه وأرعبوه ثم سألوه عن الخلفاء الأربعة فأثنى عليهم جميعًا. لم تعجب إجابته تلك العصابة، وقرروا قتله. لقد أضجعوه على ضفة النهر وذبحوه كما تذبح الشاة، ثم بقروا بطن امرأته الحامل، وقتلوا معها مجموعة أخرى من النساء بينهن أم سنان الصيداوية[4].

---

(1) **الطبري**، ج 5، ص65.

(2) **أنساب الأشراف**، ج3، ص 130. ورفض الإمام البدء بالقتال في كل معاركه هو مبدأ إسلامي التزم به حتى النهاية.

(3) ابن خلدون، ج2، ص 637.

(4) **الطبري**، ج 5، ص 81. **أنساب الأشراف**، ج 3، ص 142.

لا مجال لإنكار هذه الرواية بزعم أن المصادر التاريخية تريد «أن تبيض صفحة علي وتبرر للمجزرة التي ارتكبت في حق الخوارج» كما يزعم هشام جعيط[1]. لقد كان الإمام يرفض دائمًا البدء بقتال الخوارج: وكان يرد دائمًا بكامل هدوئه على غلوهم وتطرفهم وسبابهم.. وكان يقول إنه المؤمن الأول الذي جاهد مع النبي ﷺ، وهو على بصيرة من أمره، وليس معقولًا أن يحكم على نفسه بالكفر أو يعترف بذنب لم يقترفه. كان الإمام مهتمًا باستئناف القتال ضد معاوية، ولم تكن مواجهة الخوارج ضمن أولياته. وليس معقولًا أبدًا أن يبدأ بقتالهم وهو الذي رفض دائمًا البدء بقتال أية فئة.

لقد اعتبر الإمام أنه احترم المهلة المحددة للهدنة، وأن ما حدث في مؤتمر التحكيم ليس فيه ما يُلزم لأن الطرفين؛ أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص لم يُحكّما القرآن وإنما حكّما أهواءهما. نزل الإمام بالنخيلة، وبدأ بتعبئة الناس للقتال من جديد. بعث ابن عباس إلى أشراف البصرة فاستجاب له الأحنف وجارية بن قدامة التميميان، والتحق به قرابة 3200 مقاتل وربما أكثر من جملة 6000 مقاتل. وكان ذلك متوقعًا، فالبصرة لم تكن يومًا إلى جانبه إلا قليلًا.. وكالعادة سيعتمد علي بشكل أساسي على شيعته في الكوفة.. وقف فيهم خطيبًا، وطالبهم بالاستعداد لقتال القاسطين، فأبدوا استعدادهم للمضي إلى الشام، وبايعوه على ذلك[2].

غير أن وصول خبر قتل عبد الله بن الخباب وامرأته وكثير من النساء وتعرض الخوارج للناس وإرهابهم، أوجد خشية لدى المقاتلين على أسرهم وأموالهم، فطلبوا من الإمام مقاتلة هؤلاء الخوارج أولًا ثم السير بعد ذلك إلى أهل الشام. كان جيش الإمام يعد أكثر من 68000 مقاتل، كانوا يستعدون للتوجه إلى الشام. كانوا 40000 رجل و17000 شاب حديث السن، و8000 من الموالي والعبيد، وأعدادًا أخرى. لكن ليس واضحًا إذا كان هذا العدد كله حاضرًا مع الإمام عند توجه الجيش إلى الشام.

(1) جعيط، **الفتنة**، م.س، ص 228.

(2) **الطبري**، ج 5، ص80. ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج 1، ص 166.

أرسل الإمام الحارث بن مرة العبدي عندما بلغه خبر قتل عبد الله والنساء يستعلم له ما حدث، غير أنه قُتل بدوره. وبدا الموقف أكثر تعقيدًا، فالخوارج لم يتوقفوا عن تعنتهم وتطرفهم ولم ينج من بطشهم حتى الرسل والمبعوثون الذين لا يجوز قتلهم حتى في الأعراف الجاهلية.. لكن الإمام سيرسل مرة أخرى قيس بن سعد للمطالبة بتسليم القتلة مقابل الكف عنهم. غير أن جواب الخوارج كان «كلنا قتلتهم، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم»[1].

كان ذلك إعلانًا للحرب من جهتهم ولم يبق أمام علي سوى إيقافهم عند حدهم، لكنه لن يصمم على قتالهم قبل أن يتيح لهم ما يكفي من الوقت لكي يتراجعوا عن مواقفهم ويقلعوا عن عدوانهم.. وهو لذلك سيأمر بوضع راية أمان لدى الصحابي أبي أيوب الأنصاري ويعلن أن كل من يأتي الراية أو يذهب إلى الكوفة أو أي مكان آخر، ويغادر مكان التجمع الخوارجي فهو آمن باستثناء القتلة. وهنا استجاب 1200 رجل من جملة 4000 مما يعني أن بقية عقل ما زالت موجودة لدى هؤلاء. لقد غادر فروة بن نوفل الأشجعي بصحبة 500 فارس. كان يقول إنه لا يوجد سبب لمقاتلة علي ولابد من اعتزال هذا الأمر حتى تتضح الأمور. وانصرف حتى نزل البندنيجين والدسكرة، كما غادرت مجموعات أخرى، والتحق بالكوفة نحو 600 رجل، بينما التحق نحو 100 شخص آخرين بالإمام. ولم يبق مع عبد الله بن وهب سوى 2800 شخص[2]. وهذا يعني أن 1200 رجل قبلوا عرض الإمام وتراجعوا عن مواقفهم العدوانية. أما المجموعة المتبقية فكان يقودها عبد الله بن وهب الراسبي، وزيد بن حُصين الطائي وشريح بن أوفى العبسي وحرقوص بن زهير السعدي وحمزة بن سنان الأسدي[3].

كان الإمام يأمل عودة الخوارج عن عنادهم من أجل المضي نحو الشام والانتهاء من معاوية، إلا أن ذلك لم يحدث. وبقيت الخطوة الأخيرة التي

(1) **الطبري**، ج 5، ص83. **مروج الذهب**، ج 2، ص 415.
(2) **الطبري**، ج 5، ص86. **أنساب الأشراف**، ج3، ص 146.
(3) **الطبري**، ج 5، صص75 ـ 85.

سيخطوها الإمام، دعاهم إلى الرجوع والتوبة لكنهم بدأوا برمي سهامهم فقتلوا رجلًا من أصحاب الإمام، وكان ذلك إعلانًا عن اندلاع المعركة.

بدأ الخوارج القتال بقوة وهم يطلقون صيحتهم المعروفة «الرواح، الرّواح إلى الجنة». كانوا في البداية مندفعين، لكن عندما تمكن الإمام من قتل رجل منهم نظر إليه وقال مستهزئًا: «حبّذا الرواح إلى الجنة!». سمع عبد الله بن وهب ذلك فقال: «ما أدري، أإلى الجنة أم إلى النار». لقد شك ابن وهب، وهو ما دعا مجموعة من أصحابه إلى اعتزال المعركة.. شد الخوارج بقوة على جيش الإمام فضعضعوا الخيالة التي فتحت أمامهم الطريق وتلقاهم الرماة بوابل من السهام ثم طوقهم الخيالة وهاجمهم المشاة بقيادة الإمام نفسه بالسيوف والرماح فلم يلبثوا أن صرعوهم في وقت قصير «كأنما قيل لهم موتوا فماتوا» كما يعبر الطبري[1].

نجا منهم 400 جريح أمر الإمام بمداواتهم ثم نقلهم إلى عائلاتهم في الكوفة. وكعادته، منع الإمام من النهب، ولم تؤخذ سوى الأسلحة والدواب الموجودة في أرض المعركة. وتم دفن القتلى بطريقة لائقة. لقد دفن الغالبون المغلوبين.. وكان من بينهم قادة الخوارج عبد الله بن وهب وحرقوص بن زهير ذو الثدية.

غير أن فكر الخوارج سيبقى حاضرا سواء من خلال إيديولوجيتهم السياسية المتطرفة أو من خلال عقيدتهم في تكفير الآخرين واستباحة دمائهم. لم يكن الإمام راغبًا من الأساس في مقاتلة الخوارج، وكان همه منصبًا على الاستعداد لمواجهة جديدة مع أهل الشام. لقد اضطر إلى قتالهم اضطرارًا بعد أن أصبحوا يمثلون تهديدًا حقيقيًا لأمن الناس. لم يكن هناك أي حقد على الخوارج بقدر ما كان هناك أسف عميق على عماهم.. كان الإمام يستخدم كل الوسائل الممكنة لثني من يستطيع ثنيه عن غيه.. وقد نجح مع القسم الأكبر منهم لكنه لم ينجح مع قسم آخر.

وهذا يعني أنه لم تكن هناك إرادة لتصفيتهم. بل على العكس كانت هناك

(1) **الطبري، ج 5، ص87.**

إرادة لهدايتهم.. وللمصادفة ربما كان الذين قتلوا في معركة النهروان ممن شارك في محاصرة عثمان الذين كانوا ضمن تركيبة جيش الإمام، لكنهم لم يكونوا من الموالين له أو القريبين منه. وما تعرض له الخوارج ربما كان في غير مصلحة معاوية الذي كان يطالب بتسليم قتلة عثمان. لقد أراد أن يتجنب ذلك ليقول إن عليًا يقتل أتباعه[1]. لا شك أنه كان تحليلًا مغرضًا، من خارج الواقعة، وربما لا يرى بوضوح حقيقة ما يجري، أو أنه لا يريد أن يرى، لأن عليًا لم يقتل أتباعه بل قاتل منشقين تحولوا إلى إرهابيين.

لكن الواضح أن جبهة الإمام ستزداد ضعفًا. فعندما انتهى من الخوارج وعاد إلى النخيلة، وجد أغلبية جيشه هناك. كان ينوي المسير إلى البغاة في الشام. لكن الجيش تبخّر وتسرب المقاتلون إلى الكوفة ليبقى الإمام وحده في ألف رجل من الأشراف والرؤساء[2]. كان يريد التوجه إلى الشام وكان يحث جيشه على ذلك، لكن الجواب كان «نفذت نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا»[3]. لقد طلبوا العودة إلى الكوفة للاستعداد والتجهز على نحو أفضل. وبالفعل عادوا إلى الكوفة لكنهم سرعان ما تفرقوا جميعًا.

وتشير المصادر إلى دور لعبه الأشعث مرة أخرى لتخذيل الناس، فهو من تحدث إلى الإمام عن ضرورة تجهيز السلاح. لا شك أن الحجج التي ساقها حول إصلاح الأسلحة ومزيد الاستعداد وشفاء الجرحى كانت معقولة ويمكن تفهّمها.. لكنها في الحقيقة لم تكن سوى مبررات لتفكيك الجيش. كانت طريقة لرفض القتال، ربما لأن الناس ملّوا الحرب، وربما لأنهم بدأوا يفكرون أكثر في دنياهم! لكن ذلك كله كان خطأ، لأن بقاء معاوية في الشام، وسط أتباع يطيعونه في كل شيء، يعني أن مصيرًا أسود ينتظر العراقيين خصوصًا والمسلمين عمومًا بعد وفاة الإمام وغيابه.. سينتقم حينئذ معاوية وأتباعه شر انتقام، وسيعيش الناس فقرًا وبؤسًا ورعبًا لا مثيل له. لقد كان معاوية يؤمن بأيدولوجيا الشر المطلق ويطبقها. وكان الإمام يصر على معاودة القتال ضده من

(1) **انساب الأشراف** ج 1/2، ص 384.

(2) **الطبري**، ج 5، ص90.

(3) م ن، 89.

أجل تجنيب العراقيين والمسلمين هذا المستقبل الأسود. فهو لم يكن يفكر في نفسه بقدر ما كان يفكر في الأمة ومستقبلها.

كانت مشكلة الإمام تتحدد في قلة الأنصار الحقيقيين بعد أن أكلت المعارك خيرة شيعته.. ولم يبق إلا القليل. أما أكثر من كانوا يشكلون جيشه فكانوا يعيشون الشك العميق في مواقفه كلها. فالمعركة كانت داخلية والعدو كان يتظاهر بالإسلام، ومن هنا صعوبة التأكد من صوابية مواقف الإمام بالنسبة إلى هذه الأكثرية. لقد كانوا ينظرون إلى الأسماء والألقاب ولم يكونوا ينظرون إلى الأفعال والممارسات. لم يبصروا الحق حتى يعرفوا أصحابه. ولم يعرفوا الباطل حتى يحددوا المتلبسين به.

وكان هناك طابور خامس داخل جيش الإمام يُعَمّي الحقائق، ويعمل بدأب في هذا الاتجاه. لقد كان منطق القبيلة أقوى من منطق العقيدة. وكان الناس يفكرون في غرائزهم وعواطفهم في غياب العمق الإيماني المنطلق على أساس قناعات فكرية راسخة. كانوا يطرحون أسئلة من نوع: كيف يقتل بعضنا بعضًا ونحن أبناء قبيلة واحدة.. ربما كان ذلك مؤلمًا لأنه من الصعب على الإنسان أن يقاتل أبناء عمومته فيقتلهم أو يقتلوه، لكن الأكثر إيلامًا أن يكون ذلك مبررًا للقبول بحياة الذل والبؤس والقهر، لأن الامتناع عن مقاتلة معاوية يعني تسليم الأمور إليه والاستسلام لجبروته.

لقد جاء علي إلى السلطة وهو كاره لها، وفوجئ منذ البداية بنكث ثالوث الجمل فواجهه بقوة وحزم. ثم شكل جيشًا من فئات مختلفة وواجه به معاوية الذي لجأ في النهاية إلى التحكيم من أجل إنقاذ نفسه. فُرض حينها على الإمام الرضوخ للتحكيم فقبله مكرهًا، ثم فرض عليه أيضًا اسم أبي موسى الأشعري ممثلًا عنه.. وأخيرًا اضطر إلى مقاتلة الخوارج.. كانت إذن سلسلة إكراهات خضع لها الإمام، وقبلها فقط لأنه لم يكن هناك بد من قبولها.

لم ينخدع الإمام بشيء، ولم يخطئ في أي من قراراته، ولم ينهزم في أي من حروبه، ولكن مأساته كانت في «أتباع» لم يكونوا يقدرون عبقريته الاستثنائية وإمامته الإلهية. لم يخسر علي شيئًا، وهو الذي سينصفه التاريخ أخيرًا، ولكن الأمة هي التي خسرت عليًا الإمام، وعليًا الإنسان.

الوصل العاشر

أيام المحنة

لن تكون معركة النهروان الحد الفاصل في تطور الفتنة. فقد كان علي منذ البداية يقود جيشًا لا يواليه تمامًا. وكان الأمل في تحقيق نصر حاسم في جبهة الشام ضعيفًا بسبب تركيبة هذا الجيش. غير أن تفجر هذا الجيش وانقسامه لن يظهر إلا لاحقًا في معركة صفين بعد رفع المصاحف، كانت جرثومة الانقسام موجودة منذ البداية. ولم يكن مواليًا للإمام إلا أولئك الذين حاربوا معه في معركة الجمل وقلة من الآخرين. وهؤلاء سيتناقص عددهم باستمرار بعد كل معركة.. مما يعني أن الإمام لن يجد حوله في النهاية سوى عدد قليل من الموالين له حقيقة. إنّه الواقع الذي سيملأ قلبه غيظًا.

من المرجح أن الإمام كان يريد العودة إلى الشام وغض النظر عن الخوارج لأنه كان يحدس أن جيشه غير قادر على خوض حربين متتاليتين. كان يقدر أن محاربة العدو الخارجي ـ معاوية ـ أولوية. لكن هذا الجيش أصر على حرب الخوارج أوّلًا، خوفًا من تهديدهم لأسرهم وأموالهم في غيابهم.. كان علي يفضل مواجهة معاوية أولًا، رغم أنه كان يرى مشروعية مواجهة الخوارج الذين بدأوا عمليًا بأعمال قتل وتخريب.

ومع ذلك من الصحيح القول إن وضع الإمام بدأ يزداد سوءًا بعد معركة النهروان. لقد وجد نفسه في وقت قياسي بلا جيش وأصبح مجاله السياسي مكشوفًا ومهددًا. لقد فقد علي رجُلين لا يمكن تعويضهما الأول هو عمار بن ياسر الذي استشهد في صفين والثاني هو مالك الأشتر الذي استشهد وهو في طريقه إلى مصر بعد أن دسّ له معاوية السم. كان الأشتر على نحو خاص يده اليمنى وكان يقول عنه: «لقد كان لي كما كنت لرسول الله». فقد كان للأشتر وزنه في الكوفة، كان مسموع الكلمة، وكان يفعل كل شيء لتأمين تماسك

الجيش رغم أنه لم ينجح دائمًا. وغياب الأشتر سيجعل الأمور أكثر صعوبة بالنسبة إلى الإمام.

وقبل معركة النهروان بشهر تقريبًا، أعطى التحكيم فرصة لمعاوية لأن يعلن نفسه خليفة، وأصبح بذلك متحررًا من صفته واليًا على الشام ليدّعي الوصاية على العالم الإسلامي برمته.. وهو لأجل ذلك سيبدأ بغاراته وحملاته على المناطق الموجودة خارج الشام. لقد استغل معاوية وضع الإمام داخل الكوفة ليحاول توسيع مجاله وحدوده، وسقوط مصر يدخل ضمن هذا الإطار. فبينما كان علي مشغولًا بمعالجة الوضع الداخلي، كان محمد بن أبي بكر واليه على مصر يواجه هجمات عمرو بن العاص ومعاوية بن حديج، وهو ما سيعقد الأمور أكثر بالنسبة إلى الإمام.. سيضطر إلى إيفاد مالك الأشتر إلى مصر ليشكل ذلك خسارة كبرى له.

لكن الفتنة تبدو كما لو كانت قضاءً مقضيًا، لقد تحدث عنهما القرآن من قبل وقال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[1]. كانت نتيجة طبيعية لغياب النبي ﷺ وظهور طموحات غير مشروعة.. كانت اختبارًا لابد منه لمعرفة الصادقين من الكاذبين ولتمييز المؤمنين من المدعين.

وكان لابد من مقياس لمعرفة المؤمن من غيره، وكان علي هذا المقياس كما هي وصايا النبي لأصحابه من أجل التزام خطه والوقوف في صفه والانتصار لقضيته[2].. لاشك أن أكثر الناس لم يكونوا يفهمون ما يجري حولهم، وكانوا لذلك في ريب مما يفعله علي الذي أصبح مجهولًا لديهم رغم سابقته وجهاده وعلمه.

لم يكن علي يحارب من أجل سلطة يريدها، ولكنه كان يحارب من أجل دين وقيم ومنهج. كانت السلطة دائمًا وسيلة في نظر علي، وكان الهدف إنقاذ

(1) العنكبوت: الآيتان 2 ـ 3.

(2) ريشهري، **موسوعة الإمام علي**، ج 2.

الإسلام من أسره حتى يعيش الناس حريتهم في ظل نظام يؤمن بالإنسان ويحترم قيمه.. وعندما فشل مشروع علي في العدالة والحرية والمساواة، فإن البديل كان الاستبداد والقهر والظلم والإفقار.

كانت الفتنة تتلون كالحرباء، كانت ماكرة ومخادعة، وهي لذلك أوقعت الكثيرين في شركها. كانت تغير لونها بتغيير صناعها وكان الناس يتراقصون ويتمايلون هنا وهناك.. أما علي الذي كان يواجه أعاصير الفتن هذه، فلم يجد من يصمد معه في وجهها إلا القليل ممن آمن بالحقيقة التي كان يدافع عنها هذا الإمام.

ضياع مصر

افتتحت مصر على عهد عمر بن الخطاب، وقد باشر عمرو بن العاص فتحها على رأس قبائل عربية انطلاقًا من الشام حيث كانت تقيم تلك القبائل إما منذ زمن بعيد قبل ظهور الإسلام وإما مع الفتوحات. ولأجل ذلك، فإن التركيبة القبلية ستكون متشابهة إلى حد كبير بين مصر والشام، فكما كانت تهيمن في الشام قبائل يمنية من حِمْير مثل يحصب ورُعين وذو الكلاع، كانت تهيمن في مصر قبائل تُجيب المتفرعة من سَكون كندة.. دون أن نهمل قبائل أخرى قادمة من الجزيرة العربية كانت تعيش على أطراف الشام والعراق.

كان معاوية يعرف الأهمية الإستراتيجية لمصر، وكان يخشى هجومًا مزدوجًا من العراق ومصر على الشام في وقت واحد وهو لذلك سيعمل دون تأخير على الاستيلاء على مصر. لقد بايعت أغلبية المصريين عليًا بعد قتل عثمان. وكان المصريون شركاء حقيقيين في الثورة على عثمان حيث عمل هناك محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر وكنانة بن بشير التُجيبي وعبد الرحمن ابن عديس البلوي على فضح ممارسات عثمان وإدانتها.

لكن مصر لم تكن كلها إلى جانب علي، بل كانت هناك فئة من العثمانية في خربتاء رفضت البيعة، لكنها لم تحارب الوالي الجديد قيس بن سعد الذي عقد معها هدنة ولم يجبرها على البيعة. كانوا حلفاء لمعاوية ولم يشأ قيس الدخول معهم في صراع حفاظًا على وحدة الإقليم. وعندما اضطر الإمام إلى

استبدال قيس بمحمد بن أبي بكر، تعامل هذا الأخير مع العثمانية بشكل مختلف ورفض مهادنتهم.

من الممكن أن يكون العثمانية في مصر رأوا في إيقاف المعارك في صفين، بعد رفع المصاحف، نقطة لمصلحة معاوية ذلك أن مجرد عدم خسارته للحرب يعتبر نصرًا في نظرهم. وهذا ما شجعهم على إظهار عنادهم وتمردهم خصوصًا بعد استبدال قيس. لقد مثل العثمانية ضغطًا داخليًا ضد الوالي الجديد محمد بن أبي بكر، غير أنهم كانوا عاجزين عن طرده من مصر دون مساعدة خارجية. وعندما شعر الإمام أن الأمور بدأت تفلت من يد محمد بن أبي بكر استدعى مالك الأشتر من نصيبين وأرسله إلى مصر. كان أول ظهور لمالك في فتح دمشق، في معركة اليرموك وفيها أصيبت عينه فانقلب جفنها الأسفل فاشتهر بالأشتر. كان يعيش في الكوفة، وكان له احترامه الكبير وحضوره القوي في نفوسهم، نُفي في أيام عثمان إلى حمص مع جماعة آخرين بعد اصطدامه بسعيد بن العاص والي الكوفة، وعندما اشتدت المعارضة ضد عثمان عاد إلى الكوفة ومنع هذا الوالي من العودة إليها بعد خروجه من المدينة بدعوة من عثمان.

كان مالك يؤمن بقوة بإمامة علي، وكان الإمام يثق به على نحو مطلق. كان في الحقيقة ذراعه اليمنى.. ولأجل ذلك ستكون شهادة مالك خسارة كبرى للإمام، وسيبدأ وضعه بالتراجع بعد غياب الأشتر. وكان محمد بن أبي بكر هو الآخر من المقربين لدى علي، كان يعتبره ابنًا له. لكن محمدًا كان شابًّا قليل الخبرة، وقد خشي الإمام عليه بعد أن بدت مصر مستهدفة من قبل معاوية وعمرو بن العاص.. إن ذلك هو ما دفع الإمام إلى إرسال الأشتر رجل السياسة والحرب إلى مصر.

كان قرار الإمام مزعجًا على نحو كبير لمعاوية الذي كان يعرف من هو الأشتر، فقد كان أغلب المصريين من أهل اليمن، وسيكون وجود الأشتر الحارثي اليمني مرحبًا به على نحو واسع.. وهنا بدأ معاوية يفكر جديًا في التخلص من الأشتر، فكلف أحد الدهاقنة ـ من ملاك الأراضي ـ بأن يدس له السم مقابل أن يسقط عنه الخراج، فكانت نهاية الأشتر لدى وصوله إلى القلزم

[السويس] سنة 38هـ[1]. وباستشهاد الأشتر بقي محمد بن أبي بكر في منصبه غير أنه لم يكن قادرًا على مواجهة الموقف.

كان سقوط مصر يعني الكثير بالنسبة إلى معاوية، إنه بذلك يأمن أي هجوم يمكن أن ينطلق منها، وفوق ذلك يمكن أن تكون مصر، وهي الغنية، مصدرًا مهمًا لتمويل الشام بعد أن تصبح تحت نفوذه وسلطته. كان الاستيلاء على مصر يعني خروج معاوية من عزلته الشامية والتمدد نحو فضاءات جديدة لها أهميتها الإستراتيجية. وكان ذلك يعني بالنسبة إلى عمرو بن العاص الحصول على مصر طعمة كما هي الصفقة الموقعة بينه وبين معاوية.. ومنذ سنة 37هـ سيبدأ معاوية بالاتصال بالعثمانية يعدهم بالدعم العسكري اللازم. وسيبدأ العمل الفعلي من أجل ذلك بعد التحكيم الذي حدث في شهر محرم سنة 38 هـ. سيقرر بعدها معاوية غزو مصر وسيرسل الإمام الأشتر.

لقد استطاع العثمانية إلحاق الهزيمة بالقوات التي أرسلها محمد بن أبي بكر في الخربتاء بعد أن أصبح معاوية بن حديج السَّكوني زعيمهم الجديد خلفًا لمسلمة بن مخلّد ويزيد بن الحارث الكناني.. وهذه الهزيمة هي التي دفعت الإمام / الخليفة إلى إرسال الأشتر من أجل إيقاف تقدم الحركة العثمانية، لكن هذه الحركة واصلت تمددها وأمكن لها أن تكسب أنصارًا جددًا بعد أن كانوا أقلية منعزلة في الخربتاء.

مع ذلك لم يكن أمام هذه الحركة العثمانية، التي كانت لا تختلف في عماها وفسادها عن بقية التيار العثماني ـ الأموي العام، لم يكن أمامها إلا أن تتبع عثمانية الشام أو عثمانية البصرة. لقد كانوا في النهاية جزءًا من التيار المعادي للإمام / الخليفة الشرعي. وكان لابد لهذا الموقف أن ينعكس عمليًا انشقاقًا وخروجًا على الوالي في مصر حتى لو لم يقم محمد بن أبي بكر باستفزازهم بسبب طبيعتهم العدوانية وبسبب ارتباطهم بالتيار الأموي العام ذي الطموحات التوسعية.

---

(1) **الطبري**، ج 5، صص 95 ـ 96.

رفع معاوية بن حديج شعار الثأر لدم عثمان، وكان هذا الشعار الممل هو نفسه الشعار الذي كان يرفعه معاوية بن أبي سفيان. وهذا يعني التقاء الطرفين حول تحويل دم عثمان إلى أداة لمحاربة خصومهم. كانا في الحقيقة يحملان بنية فكرية واحدة تختفي وراء شعارات بائسة من أجل تحقيق أهواء وطموحات على حساب الدين وأهله.

ومن هنا الرسالة، التي وجهها معاوية بن أبي سفيان إلى معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلّد والمنمقة بعبارات نفاقية، والتي يعلن فيها وصول دعمه لهما. لقد كان يتحدث عن عثمانية مصر بوصفهم شيعة له، وهو هنا يكشف عن حقيقة لا مجال لإخفائها. إن ذلك صحيح من الناحية السياسية تمامًا كما هو صحيح من الناحية الأخلاقية والدينية. فالطرفان يلتقيان في المصالح السياسية المشتركة كما يلتقيان في الانحدار الأخلاقي والبعد عن الدين في قيمه ومفاهيمه.

إن إسقاط مصر والاستيلاء عليها كان هدفًا سياسيًا في حسابات معاوية ولم يكن لذلك أية علاقة بقضية عثمان، كان يريد أن يفعل ذلك بأقل ما يمكن من الخسائر. ولأجل ذلك سيوجه عمرو بن العاص رسالة إلى محمد بن أبي بكر. لقد أشخص معاوية ابنَ العاص إلى مصر في 6000 رجل وعندما نزل في أطراف مصر اجتمع إليه العثمانية وكتب رسالة يطلب فيها من محمد بن أبي بكر التنحي لأن الناس يرفضون ولايته حسب ادعائه.

كان عمرو بن العاص يخشى في الحقيقة ردة فعل الناس، وهو ليس متأكدًا من موقفهم الحقيقي.. كان يخشى المواجهة، ولم تكن المسألة قط متعلقة بكراهية إراقة دم قريش كما زعم. إذ طالما أراق هو وحزبه مثل هذه الدماء.. رد محمد بن أبي بكر على رسالة عمرو بن العاص بلهجة قوية وذكره ببغيه وظلمه وشراكته في دم عثمان، وأكد له أنه هو وأصحابه جاهزون للمواجهة. لكن الحقيقة أن محمدًا كان يعاني. كان أصحابه يظهرون فتورًا وانهزامًا، ومن هنا طلب الدعم والإمداد من الإمام الذي سيفعل ما بوسعه لتلبية ذلك، رغم أنه دعاه إلى الاعتماد على قواه الذاتية.

قام الإمام في الناس، وهو بالكوفة، ودعاهم إلى نجدة محمد وأوضح لهم بأن مصر أعظم من الشام وأكثر ثراء وأفضل ناسًا. لكنه ووجه بفتور، لقد أصبح الناس رافضين للقتال.. وفي النهاية لم يستجب له سوى مالك بن كعب الهمداني في 2000 رجل، سيّرهم الإمام نحو مصر وهو يحدس أنهم لن يدركوا ابن أبي بكر إلا بعد انقضاء الأمر[1]. وبالفعل وصل خبر الاستيلاء على مصر واستشهاد محمد إلى الإمام، فسرّح عبد الرحمن بن شريح الشبامي إلى مالك فرده من الطريق[2].

استعان محمد بن أبي بكر بكنانة بن بشر، وخرج في 2000 رجل لمواجهة ابن العاص لكن كنانة قُتل ووجد والي مصر نفسه وحيدًا في مواجهة العثمانية من جهة وعمرو بن العاص من جهة أخرى بعد أن تفرق عنه أصحابه عندما بلغهم خبر كنانة. استطاع كنانة أن يصمد في مواجهة كتائب عمرو بن العاص الذي كان يوجه إليه الكتيبة تلو الأخرى، وعندما لاحظ ابن العاص ذلك استنجد بمعاوية بن حديج الذي لم يتأخر عنه ووصل في جيش كبير، وتم تطويق كنانة من كل جانب. وهنا نزل كنانة عن فرسه ونزل أصحابه، وقاتل حتى استشهد. كان يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾[3].

بقي محمد وحيدًا يواجه قدره. لجأ إلى مكان خَرِب، لكن فلاحين كشفوا أمره فجاء معاوية بن حديج فأخذه إلى الفسطاط وهناك تم قتله والتمثيل بجثته. لقد أدخله في جيفة حمار ثم أحرقه[4]. كانت صورة بشعة تعكس حقيقة هذا الرجل والخط الذي ينتمي إليه.

كان خبر استشهاد محمد بن أبي بكر محزنًا للإمام. فهو لا يخسر فقط رجلين من خيرة رجاله من أجل مصر في فترة وجيزة، ولكنه الآن يخسر مصر

(1) **الطبري**، ج 5، ص108. **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص 412.

(2) م ن.

(3) سورة آل عمران، الآية: 145.

(4) **أنساب**، ج 3، ص 177. الطبري، ج 5، ص 103.

نفسها. أما معاوية فلم يخف فرحه، لقد حصل على مصر أخيرًا، وهو ما سيشكل دعمًا ماديًا وحربيًا كبيرًا له.

كان معاوية قد وعد عمرو بن العاص بمصر طعمة. كانت صفقة بين من لا يملك ومن لا يستحق. والآن بعد أن سقطت مصر، فإن القسم الأكبر من خراجها سيذهب إلى معاوية زمن الحرب والاضطراب، أما في زمن السلم فلن يرسل ابن العاص سوى 600 ألف دينار إلى الشام من أصل 14 مليون دينار[1]. وعندما حضرته الوفاة «نظر إلى ماله فرأى كثرته، فقال: يا ليته كان بعرًا! يا ليتني مِتّ قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحت لمعاوية دنياه، وأفسدت ديني، أكثرت دنياي وتركت آخرتي»[2]. إنها شهادة عمرو على نفسه يوجهها لكل أولئك الذين لا يتوقفون عن إلقاء قصائد المديح في شأنه.

إن ما حدث لمحمد بن أبي بكر يعكس حالة عامة أصابت معسكر الإمام. لقد بدا الجميع متثاقلين، وخائفين، وهاربين.. وهي حالة حيّرت الإمام، ولم يجد لها سببًا معقولًا سوى الخواء الفكري والفراغ الروحي اللذين دفعا من تبقى من جيشه إلى الإخلاد إلى الأرض بعد أن أكلت الحرب خيرة أنصاره ولم يبق منهم إلا القليل.

لم يكن بإمكان الإمام الاحتفاظ بمصر بعد أن فعل ما بوسعه في سبيل ذلك. كانت مشكلته في قاعدة لا تفهم ما يحدث ولا تطيع أوامره ولا تلتزم قراراته.. لقد أكره على عزل قيس عن ولاية مصر، ولم يكن متحمسًا لإرسال محمد بن أبي بكر وكان يفضل إرسال هاشم بن عتبة[3]، وعندما أرسل الأشتر اغتيل في الطريق إلى مصر.. أما عندما وصله صريخ محمد يطلب المدد، فإنه لم يجد من يستجيب له في البداية، ولم يلب النداء في النهاية سوى عدد قليل وفي وقت متأخر.. لقد خذلت عليًّا قاعدتُه في كل المنعطفات الحاسمة.. كانت تلك محنته، ولم تكن المسألة قط سوء تقدير للموقف كما زعم بعضهم.

---

(1) المقريزي، **خطط**، ج 1، ص 94.

(2) **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، ص 222.

(3) **الغارات**، ج 1، ص 301.

ويقدم لنا الطبري بحسب رواية أبي مخنف مشهد الخذلان الذي تعرض له الإمام وواليه على مصر. بعد معركة النهروان وتفرّق الجيش، سنة 38هـ ربما، أرسل محمد بن أبي بكر إلى الإمام يطلب نجدته ودعمه، فجمع الناس في جامع الكوفة وأخبرهم بالموقف. قال لهم: إن ابن النابغة [عمرو بن العاص] عدو الله ووليّ من عادى الله يريد الهجوم على مصر، وإن محمدًا يطلب مؤازرتكم. طلب منهم أن يتجهزوا وضرب لهم موعدًا في الجَرَعة على مقربة من الكوفة. خرج بنفسه من الغد وبقي ينتظر هناك إلى منتصف النهار، لكن لم يأت إليه رجل واحد.. وفي المساء جمع أشراف الناس في القصر، والحزن يملأ قلبه. ألقى فيهم خطابًا فيه كثير من اللوم والتقريع والتحذير. ولكن أيضًا فيه كثير من المحاجة المقنعة. قال لهم: «.. الحمد لله على ما قضى من أمري وقدّر من فعلي وابتلاني بكم أيتها الفرقة ممن لا يطيع إذا أمرتُ ولا تجيب إذا دعوت، لا أبا لغيركم! من تنتظرون بصبركم والجهاد على حقكم! الموت والذل لكم في هذه الدنيا على غير الحق، فوالله لئن جاء الحق ـ وليأتين ـ ليفرقن بني وبينكم، وأنا لصحبتكم قال وبكم غير ضنين، لله أنتم لا دين يجمعكم ولا حمية تحميكم، إذا أنتم سمعتم بعدّوكم يرد بلادكم ويشن الغارة عليكم، أو ليس عجبًا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة، ويجيبونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء، وأنا أدعوكم ـ وأنتم أولو النُهى وبقية الناس ـ على المعونة وطائفة منكم على العطاء، فتقومون عني وتعصونني وتختلفون علي؟»[1].

كان الإمام يشتكي عصيانهم وتفرّقهم عنه حيث لا دين يحركهم ولا حمية تستثيرهم، لقد قبلوا حياة الذل خوفًا من الموت الذي لم يفلتهم في النهاية. ملّهم وبدا كما لو كان ينتظر الموت ليرتاح منهم. رجل واحد تفاعل مع خطابه هو مالك بن كعب الذي سيقود ألفي رجل فحسب لنجدة محمد بن أبي بكر، لكنه سيرجع من الطريق بعد أن علم الإمام باستشهاد محمد بن أبي بكر واستيلاء عمرو بن العاص على مصر.

(1) **الطبري**، ج 5، ص 108.

من الواضح أن صرخات محمد وصلت متأخرة، ربما لبعد المسافة، لأن تأخر إرسال مالك بن كعب لم يدم أكثر من يوم واحد بحسب المصادر. لقد كان توبيخ الإمام للكوفيين بسبب ما أبدوه من عدم استجابة.

كان حزن الإمام شديدًا على محمد بن أبي بكر، فقد كان له بمثابة الولد، كان ربيبه، لأن أمه أسماء بنت عميس كانت زوجةً لجعفر بن أبي طالب قبل أبي بكر، وهي الآن زوجته وأم يحيى ابنه.. لقد تربى محمد في كنفه بعد أن انتقل مع أمه إلى بيت الإمام.

تمرد الداخل وتهديدات الخارج

خسر علي مصر. وكان ذلك يعني خسارة إقليم له أهميته الاقتصادية والسياسية. لكن ذلك لن يكون مؤثرًا على نحو جذري. فالإمام ما زال يسيطر على الجزيرة العربية والعراق وإيران، أي إنه كان لا يزال يسيطر على مراكز الإسلام الرئيسية: مكة والمدينة في الحجاز وصنعاء في اليمن والكوفة والبصرة في العراق وسائر البلاد الإيرانية.. ومع ذلك، فإن هذا كله لا يعني شيئًا ما دام الانسجام مع خياراته مفقودًا إلى درجة كبيرة لاسيما في الكوفة التي اتخذها عاصمة له.

كانت الجزيرة العربية هادئة تقريبًا، وفي إيران كان هناك وضع مماثل إلا من حركة تمرد صغيرة سرعان ما تم القضاء عليها.. كانت مشكلة الإمام في الكوفة تحديدًا، كان يريد في البداية الاعتماد على الكوفيين لسحق تمرد معاوية في الشام، لكنه تأكد أخيرًا أنه لا يمكن الاعتماد عليهم لإنجاز عمل كهذا. إن تثاقل الكوفيين هو الذي سيشجع معاوية على شن غارات على مناطق تقع ضمن مجال نفوذ الإمام. فالمسألة هنا لا تتعلق بتمرد داخلي ولكنها تتعلق بعدوان خارجي.

أما حركات التمرد، فستكون كلها ذيولًا لمعركتي صفين والنهروان وسيعاني الإمام على مدى سنتين (من 38هـ إلى 40 هـ) معاناة قاسية بعد أن بدأ يجد نفسه وحيدًا إلا من بعض الموالين الذين سيدفعون هجمات معاوية العدوانية دون غيرهم. كان علي يعاني، وهذه ليست صورة درامية مؤلمة صنعها

الشيعة، بل هي، على الأصح، واقع تاريخي كان يعيشه الإمام وأثبتته المصادر التاريخية المختلفة.

1 ـ انشقاق الخريت

بدأ تمرد الخريت بن راشد بعد التحكيم مباشرة أي سنة 38هـ. انطلق من الكوفة التي من المفترض أن تكون موحدة. خرج على رأس مجموعة من أصحابه من قبيلة ناجية ذات الأصول البصرية التي اشتركت في معركة الجمل إلى جانب طلحة والزبير. جاء الخريت إلى الإمام في ثلاثين راكبًا من أصحابه بعد مؤتمر التحكيم ليعلن أمامه قرار الانشقاق: «والله لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، وإني غدًا لمفارق لك»[1]. لو كان علي ديكتاتورًا لما تجرأ الخريت على ذلك، ولكنه كان يعرف أن الإمام كان رجلًا ديمقراطيًا تمامًا.

ولكن هذا الموقف كان يعكس، من ناحية أخرى، عمى هذا الرجل وتخبطه.. حاول الإمام الدخول معه في حوار من أجل توضيح الحقائق، لكن الخريت رفض ذلك واعدًا إياه بالعودة إليه في الغد، لكنه لم يفعل ذلك قط.. لقد قرر الانشقاق ليبدأ بارتكاب جرائمه في الكوفة حيث قتل هو وجماعته رجلًا ثم غادروا الكوفة فكانوا «لا يمرون ببلد إلا انتهبوا بيت ماله»[2].

كان الخريت مندفعًا على أساس قناعة داخلية هي في الحقيقة حالة من الجهل المركب التي يصعب على أي كان إزالتها. لم يكن مستعدًا حتى لمجرد الدخول في نقاش مع الإمام نفسه.. إن ذلك هو ما كان يحركه، وليس أبدًا التزامه الأخلاقي أو الديني. كانت هذه هي حالة الخوارج عمومًا. لكن موقف الخريت كان معاكسًا لموقف الخوارج تقريبًا، كان يحتج على عدم قبول الإمام نتائج التحكيم وكان يرى أن التحكيم، الذي كان أبو موسى طرفًا فيه صحيحًا. إن ذلك يعني أن الخريت كان يدعو إلى خلع الخليفة والعودة إلى الشورى.

إنها ضلالات انطلت على أعداد كبيرة من العراقيين. فعلي لم يصل إلى

(1) **الطبري**، ج 5، صص 113 ـ 116. **انساب**، ج 3، ص 177.
(2) اليعقوبي، ج 2، ص 194.

السلطة فوق رغبة الناس، بل إن وصوله كان بواسطة الشورى والاختيار الحر لأغلبية الناس.. والعودة إلى الشورى لا مشروعية لها، وهي فوق ذلك لا يمكن أن تنهي الانقسامات. فمعاوية القابع في الشام لن يقبل أبدًا نتائج هذه الشورى التي لا يمكن أن توصله إلى السلطة التي يريدها. ولأجل ذلك فإن منطلق الخريت لا أساس له، لأن المشكلة ليست في شخص الخليفة وإنما في طموحات شخصية وعميّ شامل كانا يحاصران الناس. لقد أظهر الخريت، كما فعل الأشعري من قبل، خواء قاتلًا، ولكن أيضًا ازدواجية في اللغة والموقف حيث كان يكلم الخوارج بلغة الخوارج، ويكلم العثمانية بلغة العثمانية[1].

إن مشهد العصيان الذي كان يتعرض له الإمام، كان مشهد أمة تُحطّم نفسها بنفسها، كان مشهد أمة ترفض أن يحكمها رجل علم ودين وأخلاق فيعطيها حريتها ويضمن عزّتها، لتقبل حكم طاغية فاسد ومتهتك يقهرها ويستبعدها ويفتك بها.

كان موقف الخريت سيمثل انتحارًا سياسيًا سريعًا لو قبله الكوفيون. إذ من المستبعد عندئذ أن يتفقوا على اسم الخليفة الجديد لو قرروا خلع الخليفة القائم. لكن الكوفيين كانوا متمسكين بعلي، ومشكلتهم كانت في إصراره على حرب لا يريدونها.

خرج الخريت في نحو 120 رجلًا من ناجية، قبيلته العربية الصغيرة، واتجه نحو البصرة ثم الأهواز مرورًا بفارس وصولًا إلى أسياف البحر في الخليج. وكان كلما مر ببلد نهب بيت ماله هو وأصحابه، لقد تحوّل إلى زعيم عصابة، على نحو ما سيؤول إليه أمر الخوارج لاحقًا مع الأمويين. استطاع أن يستميل إلى جانبه الكثير من الأكراد والفرس والأعراب من المسلمين والمسيحيين الذين أسلموا ثم ارتدوا.

لم يكن مجرد انشقاق الخريت هو الذي دفع الإمام لإرسال فرقة عسكرية تلاحقه، بل لأن رجلًا مسلمًا تعرض للقتل بأيدي عصابته، ولأنه نهب أموال المسلمين. لقد تحول إلى مفسد في الأرض، ومحارب للنظام تنبغي ملاحقته.

---

(1) **الطبري ج 5**، ص 125.

سيكلف الإمام معقل بن قيس الرياحي وزياد بن خصفه ملاحقة الخريت. خرج زياد أولًا في مئة وثلاثين رجلًا يلاحق الخريت بعد أن قتل هو وجماعته رجلًا مسلمًا. طلب منه الإمام أن يردّهم أو يقاتلهم إذا رفضوا العودة. وبالفعل فقد أدركهم زياد بالمداز وهي مدينة في ميسان بين واسط والبصرة. وطالب الخريت بتسليم القتلة لكنه رفض، فوقعت معركة بين الطرفين قتل فيها خمسة من أصحاب الخريت ورجلان من أصحاب زياد الذي جُرح. ولم يفصل بين الطرفين إلا الليل. ثم واصل الخريت طريقه نحو الأهواز بينما سار زياد إلى البصرة.

وعندما علم معقل بن قيس بمكان الخريت سار إليه في 2000 رجل. وكان الخريت قد استطاع أن يضم إليه عددًا من الأهوازيين، لكن معقل تمكن من مواجهتهم وقتل سبعين رجلًا من قبيلة ناجية ومن معهم من العرب، ونحو 300 من العلوج والأكراد. انهزم الخريت وفر إلى أسياف البحر يحرض كل من اعترض طريقه ضد علي.

وكان قسم من قبيلة ناجية قد انتقل من النصرانية إلى الإسلام، لكنهم ارتدوا زمن الفتنة وقالوا: «والله لديننا الذي خرجنا منه خير وأهدى من دين هؤلاء الذين هم عليه، ما ينهاهم دينهم عن سفك الدماء، وإخافة السبيل وأخذ الأموال»[1]. إنها جهالة، لأن الإسلام يحرم سفك الدماء دون وجه حق ويعتبر قطع الطرق وسلب الأموال محاربة لله.. ولأن هذه الفئات لم تكن تلتزم بشيء من قيم الإسلام.

إن ممارسات الخريت ومن قبله ثالوث الجمل ثم الخوارج والشاميين من أتباع معاوية هي التي رسمت هذه الصورة البشعة عن الإسلام. إنه المشهد نفسه الذي يتكرر اليوم مع أحفادهم من البدو السلفيين.. لا شك أنها لوحة أنتروبولوجية تعكس ثقافة كان يعيشها إنسان تلك العصور وتتكرر اليوم.. ثقافة تخلط بين مفاهيم الدين وقيمه والأشخاص الذين يستخدمونه سلّما لتحقيق نزواتهم.

---

(1) **الطبري**، ج 5، ص 125.

علم الإمام بإنجاز معقل فبعث إليه يثني عليه ويأمره بمواصلة ملاحقة الخريت وهو ما امتثل إليه معقل. وعندما انتهى إلى الخريت نصب معقل راية أمان وقال: «من أتاها من الناس فهو آمن»[1]. وكان ذلك سببًا في تفرق أكثر الناس عن الخريت ليواجه مصيره. شد عليه النعمان بن صبهان الراسبي فطعنه وأسقطه عن دابته ثم أجهز عليه. قتل في تلك المعركة 170 رجلًا من أصحاب الخريت، بينما تفرق الآخرون. لقد حاول الخريت أن يجمع حوله أكبر عدد من الناس في طريقه إلى أسياف الخليج على تخوم فارس حيث كانت تستوطن قبيلة ناجية، لكن الذين جمعهم تفرقوا عنه في النهاية. ولم تكن قبيلته قادرة على حمايته.

كانت ناجية قبيلة بدوية شأنها في ذلك شأن أكثر القبائل العربية. وكان لذلك تداعياته. كانت القبائل أحيانًا تضم مسلمين ومسيحيين في الوقت نفسه. إن ما كان يجمعهم هو الثقافة البدوية المشتركة القائمة على أساس مفاهيم العصبية والغلبة والثأر والشرف.. كانوا أعرابًا لمَّا يدخل الإيمان قلوبهم، ولم يتمكن الإسلام من تعبئة عقولهم بثقافته الجديدة التي كان يبشر بها بعد أن استبعد حملة الإسلام الحقيقيين من دائرة القرار لأكثر من ربع قرن. كانت تلك القبائل خاضعة لنظام الدولة سياسيًا فحسب.

واجه معقل فئات مختلفة اجتمعت حول الخريت مسلمين ومسيحيين ومرتدين عادوا إلى مسيحيتهم. وكان على معقل أن يتصرف بطريقة إسلامية تجاه المغلوبين. كان معقل خطيبًا وعسكريًا من الطراز الأول، كان من أمراء الجيش في معارك الجمل وصفين والنهروان، وكان مواليًا للإمام. وهو لذلك استحق ثقته. طلب معقل من المسلمين المغلوبين تجديد البيعة ودفع الزكاة المتأخرة، وطلب من المرتدين العودة إلى الإسلام حتى لا يواجهوا عقوبة الإعدام. وكان معقل في ذلك كله يستلهم أخلاقيات الإمام، وأحكام الدين. استجاب الجميع لشروطه، لأن الرجل كان إسلاميًا تمامًا في تعامله معهم بعيدًا عن ممارسات الانتقام والتشفي.

أما الذميون فسيتم اقتيادهم إلى الكوفة. لقد انضموا إلى الخريت فقط

(1) **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص 417.

لأنه كان فردًا من قبيلتهم، وهذا ما يؤكد أن منطق القبيلة كان أقوى من منطق الدين. لقد عاملهم معقل بوصفهم ذميين فحسب وليس بوصفهم ذميين عربًا أو عجمًا. وهو بذلك يشطب ممارسات عمر بن الخطاب الذي كان يقسو على الذميين الأعاجم بينما كان يعامل الذمي العربي كما يعامل المسلم على نحو ما فعل مع قبيلة تغلب العربية المسيحية الموغلة في البداوة.

ووفق الأحكام الإسلامية، فإن الموقف هو إما المن عليهم وإطلاقهم بعد تعهدهم بالتزام النظام أو مطالبتهم بالفدية مقابل حريتهم. أما الاستعباد أو القتل فهما إجراءان لا يقرهما القرآن، ولا وجود لهما في سيرة النبي ﷺ الذي لم يقتل أي أسير أو يسترقه. والذين جرى قتلهم في معركتي بدر وأحد، وهم ثلاثة أشخاص، إنما فعل بهم النبي ذلك بسبب جرائم سابقة وليس بسبب الأسر. ولو كان ذلك بسبب الأسر لتمت تصفية كل الأسرى وهو ما لم يحدث.

أخذ معقل إذن الذميين أسرى معه، وعندما مرّ بالأسرى على أردشير خرّه التي كان مقصلة بن هبيروة واليًا عليها، افتداهم هذا الوالي على أن يدفع مليون درهم. دفع نصف المبلغ من بيت المال، ولم يتمكن من دفع النصف الآخر. ثم أطلق الأسرى دون أن يطالبهم بمساعدته في دفع بقية المبلغ[1].

استقدمه الإمام وطلب منه إعادة المبلغ الذي دفعه من بيت المال، ثم دفع بقية قيمة الفدية. لكنه لم يتمكن من دفع أكثر من 200 ألف درهم، فأمهله الإمام حتى يتمكن من دفع بقية الحساب لكنه فر إلى معاوية. وعندما بلغ الإمام خبره علّق على تصرفه قائلًا: «فَعَل فِعْل السادة وفَرّ فِرار العبيد!» ثم تابع: «أما إنه لو أقام ما زدنا على حبسه، فإن وجدنا له شيئًا أخذناه، وإن لم نقدر له على مال تركناه»[2]. كان الإمام في هذه الحالة سيمن على الأسرى، ويطلقهم دون فدية.

لقد كان مقصلة يتصور أن الإمام سيترك له المبلغ كما كان يفعل عثمان مع المقربين منه، غير أن عليًا كان يرى أن مقصلة تصرف في المال العام،

(1) **الطبري**، ج 5، ص 129. **أنساب**، ج 3، ص 181.
(2) **الطبري**، ج 5، ص 130. **أنساب**، ج 3، ص ص 181 ـ 182.

وعليه أن يتحمل تبعات ذلك.. لم يكن الإمام ليتهاون في «أموال المسلمين»، وهو لذلك كان يرفض أي تصرف في المال العام دون وجه حق. لكن في المقابل كان مستعدًا للعفو عن الأسرى وترك مقصلة. كان فقط يريد أن يتبع الإجراءات القانونية اللازمة، ثم بعد ذلك يمكنه أن يعطي عفوه. إنه النموذج الذي يقدمه علي في الحكم حيث لا مجال للمحاباة والعبث بأموال الناس.

2 ـ فتنة ابن الحضرمي

بعد حرب صفين أيقن معاوية أن أية مواجهة مباشرة مع الإمام ستكون مواجهة خاسرة. وهو لأجل ذلك سيبحث عن تكتيك جديد في سبيل تحقيق أهدافه اللامشروعة، وستكون سياسة الضربات المباغتة من الخارج والتحريض من الداخل هي هذا التكتيك الجديد.

استطاع معاوية أن يسقط مصر بهذه الطريقة. لكنه لن يتوقف عند ذلك، بل إنه بدأ يفكر في البصرة.. لقد شجعه سقوط مصر على المغامرة في سبيل الحصول على البصرة. لاشك أن معاوية كان يريد استغلال جراح معركة الجمل للتحريض ضد الإمام، وجر البصرة لمحاربة الإمام مجددًا. كانت البصرة ذات أهمية إستراتيجية، فهي المركز الثاني في العراق بعد الكوفة، وهي بوابة العراق على العالم الإيراني حيث أن فتح إيران انطلق من الكوفة والبصرة معًا. والكوفة والبصرة هما القاعدة التي شكلت جيش الإمام في صفين. ورغم أن مشاركة البصرة لا ترقى إلى مستوى مشاركة الكوفة التي يتمركز فيها القسم الأكبر في المقاتلين والقادة العسكريين، إلا أنها تبقى الجناح الآخر للعراق، والذي لا غنى عنه. إن هذه الأهمية الإستراتيجية للبصرة هي التي دفعت الإمام عليًا إلى تولية عبد الله بن عباس رجل العلم والسياسة والحرب عليها. وسيستغل ابن الحضرمي خروج ابن عباس إلى الكوفة بدعوة من الخليفة من أجل الدخول إليها والدعوة إلى معاوية[1].

(1) ليس واضحًا ما إذا كان ابن عباس قد خرج إلى الكوفة بدعوة من الإمام كما يقول الطبري أم أنه نهب بيت مال البصرة وهرب إلى المدينة كما تشير مصادر أخرى.

كانت البصرة أقل ميلًا إلى علي، ليس بسبب معركة الجمل فقط، بل لأنها بالأساس كانت أحد مراكز العثمانية. إن وقوفها إلى جانب ثالوث الجمل هو نتيجة لتلك الميول التي كان طلحة والزبير يعرفانها. ومن هنا رهان معاوية مجددًا عليها. لقد كان معاوية يدفع بقوة من أجل توريط ثالوث الجمل في محاربة الإمام/الخليفة. كان يريد من وراء ذلك إنهاك الإمام حتى تتضاءل فرص إنهاء تمرده في الشام، لكن الإمام تمكن من خلال التزاماته الأخلاقية، وبسرعة خارقة، من تجاوز جراح معركة الجمل وتوحيد صفوف الكوفيين والبصريين في جيش واحد، وكان بإمكانه إنهاء قصة معاوية عسكريًا لولا خدعة المصاحف. لقد استطاع أن يحقق ذلك دون أن تنضم البصرة كلها إلى جيش الإمام إذ لم يشارك سوى نصف مقاتلي البصرة أي قرابة 30 ألف دون احتساب قتلى الجمل من المغرّر بهم الذين كانوا يدافعون عن الوهم.

ستنكفئ البصرة على نفسها بعد معركة صفين. وعندما سيقرر الإمام التجمع في النخيلة من أجل الاستعداد لمعاودة الحرب ضد معاوية لن ترسل البصرة سوى 3500 مقاتل بعد جهود من ابن عباس وجارية بن قدامة. كانت البصرة منذ البداية بعيدة عن علي، لكنها اليوم أبعد. ربما لأنها لا تريد الحرب، ولكن لأنها أيضًا لم تكن تؤمن بخط الإمام إذا ما استثنينا عبد القيس وقسمًا من البكريين فخذي ربيعة التي كانت حاضرة بقوة في صفين.

هذا الواقع هو الذي سيُغري معاوية بدافع ابن الحضرمي نحو البصرة من أجل قضمها. كان ذلك يدخل ضمن مخطط معاوية الجديد لابتلاع أقاليم الدولة واحدًا بعد الآخر. فبعد مصر يأتي الآن الدور على البصرة[1].

استدعى معاوية عبد الله بن عامر الحضرمي، وهو رجل أموي الهوى، بدوي قادم من قبيلة أسد المضرية. كان أبوه سيد قومه وزعيم قبيلته. أوفدته قبيلته إلى الرسول ﷺ للبيعة. كان في عهد عثمان مساعدًا لوالي البصرة، وقد

(1) يجعل البلاذري حركة ابن الحضرمي بعد تمرد الخريت (أنساب، ج2، ص 422) لكن الطبري يجعلها مباشرة بعد الاستيلاء على مصر (الطبري ج 5، ص 110). لكنهما يتفقان أن هذه الأحداث وقعت كلها سنة 38هـ.

اشترك في معركة الجمل ضد الإمام وكذلك في صفين إلى جانب معاوية.. كان إذن رجلًا خبيرًا بأوضاع البصرة، وكانت له علاقات قديمة مع وجهائها.

استدعاه معاوية وطلب إليه رفع الشعار الممجوج: الثأر لدم عثمان والتودد إلى الأزد والإعراض عن ربيعة الموالية لعلي. كان معاوية يستذكر موقف القبيلتين في معركة الجمل عندما وقف الأزديون إلى جانب ثالوث النكث، بينما وقفت ربيعة في معظمها إلى جانب الإمام. وكان يبني على ذلك. كان يريد تفجير الأحقاد المتوارية ضد علي، وكالعادة استغلال دم عثمان حتى آخر قطرة.

كان ابن الحضرمي ورقة رمى بها معاوية. وكان يرى أنها لن تكلفه كثيرًا إذا ما احترقت. لم يغامر كثيرًا، وهو لذلك اكتفى بإرسال شخص وليس جيشًا. كان العثمانية يشكلون كتلة خبت نيرانها في البصرة، وهي تحتاج إلى من يحركها لتعاود توهجها من جديد. وتلك كانت مهمة ابن الحضرمي.

قدم ابن الحضرمي ونزل في بني تميم أكبر قبائل مُضر. اجتمع إليه العثمانية المبتهجون بقدومه وبدأ يردد الأسطوانة المشروخة نفسها؛ دم عثمان والثأر له. ولكن الذي يتحدث عن ذلك الآن هو مبعوث معاوية الذي يحاول أن ينصب نفسه وليًّا لدم عثمان. وهو لأجل ذلك لن يخجل من الدعوة إلى بيعة معاوية، وستكون تلك الخطوة الأولى لإعلان الانشقاق والتمرد.

كان ابن الحضرمي يتحرك في وضح النهار، كان واثقًا بدعم العثمانية من البصريين من تميم والأزد، حتى أن رئيس شرطة الوالي كان يحضر اجتماعاته. استطاع ابن الحضرمي الحصول على تأييد بعض زعماء قيس لكن آخرين من القبيلة نفسها عارضوا مخططات ابن الحضرمي. غير أن المفاجأة أن زعيم الأزد صبرة بن شيمان رفض تأييده، لأن مبعوث معاوية لم يختر الإقامة في داره[1]. وهذا مفهوم لأن زعيم القبيلة يريد دائمًا أن يكون مُقَدّمًا في كل شيء حتى في استقبال الضيوف. إنه احتجاج بروتوكولي

(1) **أنساب ج1/2**، ص 426.

إذن، وليس موقفًا سياسيًا أو إيديولوجيا. لقد تجاهل ابن الحضرمي صبرة ابن شيمان وعليه أن يدفع الثمن.

عندما دخل ابن الحضرمي البصرة كان زياد بن أبيه نائبًا عن ابن عباس في إدارة المدينة، وزياد هذا كان لا يزال حتى الآن مواليًا لعلي. كان بلا شرف اجتماعي، فأمه سمية كانت بغيًّا من الطائف وكانت تحت عبيد الثقفي، لكن أبا سفيان ادعاه لنفسه وسوف يجعل منه معاوية لاحقًا أخًا له. لا شك أن زيادًا كان سياسيًا من الطراز الرفيع، لكنه كان مهزوز العقيدة ورجلًا بلا أخلاق، وسيظهر ذلك عندما سيتحول إلى سيف أحمر في يد معاوية ضد معارضيه. إن مواهب زياد الإدارية والسياسية هي التي دفعت عمر بن الخطاب لاستعماله على بعض أعمال البصرة. كما جعلت أبا موسى الأشعري يختاره كاتبًا له ثم أخيرًا نجد ابن عباس يختاره لنيابته كلما خرج من البصرة، وهو الذي سيقترح اسمه على الإمام لقمع تمرد أهل فارس وامتناعهم عن دفع الضرائب.

أراد زياد أن يلجأ إلى بعض وجهاء بكر؛ حُصين بن المنذر ومالك بن مسمع، غير أنه لاحظ تثاقل مالك الذي كانت له ميول عثمانية، وخاف ظهور تشققات في قبيلة ربيعة. لقد كان لدى زياد انطباع بأن أكثر البصريين انضموا إلى ابن الحضرمي، ولابد له من البحث عن ملاذ آمن. وهنا أشار عليه بعض الوجهاء بصبرة بن شيمان زعيم الأزد الذي رفض تأييد ابن الحضرمي. طلب زياد منه أن يجيره ويحميه هو وبيت المال ووافق صبرة على الفور، لقد كانت تلك تقاليد عربية قديمة. لكن زيادًا كان مرعوبًا، كان يخشى هجوم تميم على دار صبرة واعتقاله، فكتب إلى الإمام في الكوفة أن أكثر البصريين قد بايعوا ابن الحضرمي. قد يكون الأمر مبالغًا فيه، لكن الأكيد أن قسمًا كبيرًا من البصريين انضم فعلًا إلى ابن الحضرمي.

وبتحريض من العثمانية بدأ ابن الحضرمي يخطط للاستيلاء على قصر الإمارة مركز السلطة ورمزها. لكن الأزد أبدوا استعدادهم للدفاع عن القصر، وفعل الأحنف الشيء نفسه، وهنا تؤكد القبيلة أنها أقوى من الحزب والإيديولوجيا. إن تحالف الأزد وقسم من تميم هو الذي سيمنع من سقوط

القصر في يد العثمانية. إنه تحالف من أجل الدفاع عن السلطة القائمة وليس عن شخص يمثلها فقط.

ولأجل ذلك قدم الأزد مسجد الحُدّان إلى زياد ليمارس فيه رمزيته بشكل موقت. وضع فيه بيت المال والمنبر، وأصبح يصلي الجمعة فيه. وبذلك تمّت المحافظة على السلطة الشرعية القائمة. لقد أراد زياد تجنب أي فراغ في السلطة يمكن أن يستغله العثمانية. من الواضح أن صبرة زعيم الأزد لم يكن يتحرك على أساس قناعة إيديولوجية، كان ميله إلى زياد ضد ابن الحضرمي نوعًا من الانتقام وردة الفعل على تهميشه.

إن عثمانيته لا شك فيها وهو الذي دخل بقوة إلى جانب ثالوث الفتنة في معركة الجمل، وساهم في خلق الشرخ الداخلي في البصرة دون ورع، ثم أخيرًا رفض هو وقبيلته المشاركة في معركة صفين. إن خطأ بروتوكوليًا ارتكبه ابن الحضرمي هو الذي دفع صبرة إلى صف زياد. أما التصريحات اللاحقة التي أطلقها: «إنا والله نخاف من حرب علي في الآخرة. أعظم مما نخاف من حرب معاوية في الدنيا»[1] فهي لا تنطلق من إيمان حقيقي بحق علي بقدر ما تبرر واقع وقوفه مع زياد.

وصلت رسالة زياد إلى أمير المؤمنين، فأرسل أعين بن ضبيعة المجاشعي ليقنع قبيلته تميم وعشيرته مجاشع بالتخلي عن ابن الحضرمي. لكن تميمًا كانت في أغلبها عثمانية الهوى، وكانت مجاشع، عشيرة أعين، تميل إلى بني أمية، وستحظى لاحقًا باهتمام خاص من الملوك الأمويين[2]. ولأجل ذلك لن تتردد تميم في اغتيال مبعوث الإمام ليلًا في فراشه. لقد ضاع هذه المرة الانتماء القبلي وسط التعصب الإيديولوجي.

لكن المعركة لن تندلع في تلك اللحظات، بل إن اتفاقًا بين تميم والأزد سيمنع من ذلك، لتتأجل المواجهة. سيرسل زياد مرة أخرى إلى الإمام يعلمه بمصير أعين وحاجته إلى دعمه. وهنا سيرسل الإمام تميميًا آخر هو جارية بن

(1) البلاذري، **أنساب**، ج 2/ 1، ص430.
(2) م ن، ج 4/ 1، ص 201.

قدامة الصحابي القديم وأحد رجال الإسلام الأوائل الذين كانوا موالين لعلي وظلوا ثابتين على ذلك. كان جارية يملك عمق الوعي وقوة الإرادة وخبرة الحرب، كان من قادة الحرب في صفين ومن الخطباء المفوهين. خرج جارية في قرابة الألف رجل أو يزيدون ممن شارك معه في معركة النهروان.

وصل جارية إلى البصرة يحمل رسالة توبيخ وتهديد إلى أهلها الذين وقفوا إلى جانب ابن الحضرمي. ثم التقى الأزديين وشكرهم على موقفهم. لقد رفع ذلك من معنوياتهم وقرروا الوقوف بقوة إلى جانبه. بل إن حضور جارية سيدفع الكثيرين من تميم إلى تغيير مواقعهم.

واندلعت المعركة التي كانت مؤجلة بين صبرة والأزد منضمًا إليهم جارية من جهة وابن الحضرمي وأنصاره من العثمانية من جهة أخرى. توقفت المفاوضات ليُفسح في المجال لقرقعة السيوف. وكانت النتيجة هزيمة العثمانية وهروب الأغلبية منهم، ليجد ابن الحضرمي نفسه مضطرًا للتحصن مع سبعين من أعوانه في حصن سُنبيل الموروث عن الساسانيين. حاصره جارية وطلب منه الاستسلام، وعندما رفض أحرق عليه الحصن هو ومن معه. لقد أحرق جارية ورقة معاوية البصرية أخيرًا!

عاد زياد إلى القصر، وعادت البصرة إلى بيت الطاعة وكان ذلك إعلانًا عن فشل معاوية هذه المرة في إسقاط إقليم آخر. فالبصرة تختلف عن مصر البعيدة عن مركز الخلافة والقريبة من الشام. لكن هذه الأحداث كشفت أن العثمانية لا يزالون حاضرين بقوة في البصرة، وأن العمى السياسي كما العمى الديني لا يزال يحكم العقول والقلوب.

3 ـ الغارات وإستراتيجية الترهيب

تعكس الغارات التي قرر معاوية شنها على المجال السياسي للإمام علي الغياب الكامل لأية أخلاقيات سياسية أو التزامات دينية لدى هذا الرجل. لم تكن تلك الغارات أعمالًا عسكرية ضد جيش مسلح بل كانت أعمالًا إجرامية ضد رعايا مدنيين. كانت في الحقيقة استعادة مباشرة لممارسات جاهلية رفضها الإسلام. لقد كان معاوية يفكر في طموحاته الشخصية الضيقة بعيدًا عن أية ضوابط تؤمن بها الإنسانية المستقيمة.

وقد وجد هذا الأموي في الانشقاقات الداخلية، وتثاقل الناس في معسكر الإمام دافعًا قويًا لشن غاراته. كان يفكر في توسيع دائرة نفوذه، وكان يريد من هذه الغارات تحويل المستهدفين إلى جانبه عندما يتبين لهم أن السلطة التي يخضعون لها غير قادرة على حمايتهم. لم تكن غارات معاوية غارات عادية، بل كانت في صميمها أعمال عنف هدفها الترهيب والنهب والقتل وبث الفوضى.

ولن تتوقف تلك الغارات عند المناطق الحدودية بين الشام والعراق بل ستذهب في عمق الأراضي الخاضعة لسلطة الإمام في الحجاز واليمن والمناطق المجاورة للكوفة. كانت غارات مغمسة بدماء المسالمين، فمعاوية كان يوصي عصاباته بتجنب أية مواجهة مع الفرق العسكرية التابعة للإمام، والتركيز على استهداف المدنيين. كان يقول لأدواته: «إن هذه الغارات [...] على أهل العراق ترهب قلوبهم وتجرئ كل من كان له فينا هوى ويرى فراقهم، وتدعو إلينا كل من كان يخاف الدوائر، وخرّب كل ما مررت به من القرى، واقتل كل من لقيت ممن ليس هو على رأيك وأحرب الأموال، فإنه شبيه بالقتل وهو أوجع للقلوب»[1].

إنه إذن عمل عصابات هدفه تخريب القرى والبيوت ونهب الأموال وقتل الأبرياء المسالمين. ومن هنا تسميته بالغارات التي تحيلنا إلى ممارسات جاهلية شطبها الإسلام ويصر معاوية على إحيائها.

ويحدد الطبري المساحة الزمنية لهذه الغارات بين سنتي 39هـ و40هـ[2]. وهي بالنسبة إليه أربع غارات. لكن البلاذري يحصي سبع غارات بترتيب يختلف عن ترتيب الطبري[3]. وإذا كان الطبري يكتفي بزبدة الموضوع، فإن البلاذري يدخل في تفاصيل كل غارة دون تحديد لتواريخ.

ويقدم البلاذري الخطب التي كان يلقيها الإمام والتي كانت تعكس مرارة

(1) **الغارات**، ج 2، ص 464. **شرح نهج البلاغة**، ج 2، ص 85.
(2) **الطبري**، ج 5، صص 133 ـ 135.
(3) البلاذري، **انساب**، ج 2/ 1، صص 437 ـ 477.

كبيرة بسبب تثاقل أصحابه ونكوصهم أمام هجمات عصابات معاوية. وهي خطب رائعة البيان، عميقة المضامين جمعت لاحقًا في كتاب «نهج البلاغة». ولا يمكن أن نتصور صدورها عن شخص آخر غير علي الذي وصف كلامه بأنه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق.. والتشكيك في نسبتها للإمام لدى البعض ينطلق من بعض مضامينها التي تدين بشدة ممارسات معاوية، وتفضح المؤامرات التي تعرض لها الإمام بعد وفاة النبي ﷺ. وهو ما لا يمكن قبوله لدى فريق من المسلمين يقدس مرحلة تاريخية كاملة بأشخاصها وأحداثها على نحو أعمى.

لقد كان تركيز معاوية منصبًا على التجمعات البدوية على تخوم العراق، متجنبًا الدخول في أي مواجهة مباشرة. كان في الحقيقة يستذكر صفين ويخشى أية صفعة جديدة يمكن أن يتعرض لها. وهو لأجل ذلك كان يوصي عصاباته بتجنب الكوفة على نحو خاص، فكانت المناطق التي تعرضت للاعتداءات هي عين التمر وهيت والأنبار وتيماء وواقعة والثعلبية والقطقطانة على تخوم العراق، ثم غارات بسر بن أرطأة في عمق الحجاز وصولًا إلى اليمن.

غير أن تلك الغارات فشلت في معظمها في تحقيق أهدافها، واستطاعت الفرق التي كان يرسلها الإمام التصدي لعصابات القتل والنهب، وإجبارها على الانهزام والفرار. صحيح أن الإمام كان يجد في بعض الأحيان تثاقلًا من أصحابه، غير أنه في النهاية كان يتقدم من يتصدى لإيقاف المعتدين عند حدهم.

كانت منطقة عين التمر في السباسب بين الشام والعراق أولى المناطق المستهدفة. وجّه إليها معاوية النعمان بن بشير في ألف رجل، فأغار على مالك بن كعب الأرحبي الذي كان عامل أمير المؤمنين على مسلحة عين التمر[1]. كان مالك في تلك الأثناء قد وجه رجاله إلى الكوفة ولم يبق معه سوى مئة رجل. وكان على مالك أن يستنجد بالإمام في الكوفة ويطلب منه المدد غير أن الكوفيين تثاقلوا ولم يستجيبوا لدعوة الإمام. لكن مالكًا لم يكتف بذلك بل

(1) **الطبري**، ج 5، ص 133. **أنساب الأشراف**، ج 3، ص205. اليعقوبي، ج 2، ص 195.

أرسل أيضًا إلى مخنف بن سليم القريب منه يستعين به. صمد مالك في وجه النعمان وقاتل قتالًا شديدًا. وعندما رأى الشاميون رجال مخنف الذين لم يتجاوز عددهم الخمسين، ظنوا أن لمالك مددًا كبيرًا، فانهزموا عند المساء.

ثم أرسل معاوية سفيان بن عوف الغامدي سنة 39هـ في ستة آلاف رجل نحو هيت والأنبار والمدائن. وأوصاه بممارسة كل أشكال القتل والنهب والترهيب.. كان يقول له: «خرّب كل ما مررت به من القرى واقتل من لقيت ممن ليس هو على رأيك، واحرب [انهب] الأموال..». لم يجد سفيان في هيت أحدًا، فانتقل إلى الأنبار فلم يجد سوى مئتي رجل بعد أن خرج كميل بن زياد عاملها إلى مجموعة قادمة من قرقيسيا عَلِم أنهم يريدون الإغارة على هيت. كان ذلك تصرفًا من كميل دون إذن الإمام الذي لم يعجبه ذلك وأبدى انزعاجه منه. قاوم رجال الأنبار لكن صاحبهم أشر بن حسان البكري قُتل وقُتل معه ثلاثون رجلًا. ثم نهبت عصابة سفيان أموال الناس وحلي النساء وعادت إلى الشام. وعندما أرسل الإمام من يلاحق سفيان لم يدركوه.

وفي السنة نفسها أي سنة 39 هـ، بعث معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاري في 1700رجل إلى تيماء، كانت أوامره تتركز هذه المرة حول قبض أموال الصدقات قهرًا من البدو وقتل كل من يمتنع عن ذلك. وعندما بلغ الإمام ذلك، أرسل إليه المسيب بن نجبة الفزاري، وهو رجل من القبيلة نفسها التي ينتمي إليها ابن مسعدة. التقى الجمعان في تيماء واندلعت معركة ضارية. كان بإمكان المسيب قتل ابن مسعدة بعد أن تمكّن منه لكنه لم يفعل، هرب ابن مسعدة ولجأ مع من معه إلى حصن البلد. فحاصره المسيب ثلاثة أيام ثم بدأ بإحراق الحصن عليه. لكنه سرعان ما تراجع عن ذلك وأطفأ النيران بعد أن توسل إليه ابن مسعدة. ثم سمح له لاحقًا بالفرار ليلًا. لقد أخذت المسيب عواطفه القبلية، وهو ما أزعج الإمام. وسيكون المسيب، بعد ربع قرن، واحدًا من قادة ثورة التوابين.

ورغم الفشل المتلاحق الذي أصاب معاوية، حيث لم يحقق شيئًا من غاراته، إلا أنه كان مصرًا على المتابعة. استدعى الضحاك بن قيس الفهري،

ووجهه في أكثر من 3000 رجل إلى أطراف الكوفة لممارسة الأعمال الإجرامية نفسها. ذبح في طريقه إلى الثعلبية كل من لقيه من البدو، وأغار على الحجاج، فخرج إليه حجر بن عدي الذي اقتفى أثره حتى أدركه في تدمر، فقاتله وأوقع في عصابته تسعة عشر قتيلًا، ثم أسعف الليل الضحاك فلاذ بالفرار.

وتابع معاوية غاراته فسيّر عبد الرحمن بن قباث بن أشيم إلى الجزيرة التي كان شبيب بن عامر عاملًا عليها لكنه كان موجودًا بعيدًا عنها في نصيبين، وهو ما دفعه إلى الاستعانة بكميل بن زياد في هيت. وبالفعل خرج كميل في ستمائة فارس وأدرك عبد الرحمن فقاتله وقتل عددًا كبيرًا من أفراد عصابته. لكنه رفض الإجهاز على الجرحى أو ملاحقة الهاربين. وعندما علم الإمام بذلك شكر لكميل عمله وهنأه. أما شبيب فقرر ملاحقة من تبقى، لكنه سقط في بعض الممارسات غير المشروعة عندما أغار على مناطق متعددة في بعلبك والسرقة وسلب كل من كان عثمانيًا. لقد رفض الإمام ذلك ونهاه عنه ودعاه إلى الاقتصار على غنائم المعركة.

كان الإمام حريصًا على منع أي اعتداء على رعاياه، وكان يبادر دائمًا بالدعوة إلى الرد المناسب، لكن ذلك كله كان يتم دائمًا وفق الأطر الأخلاقية والإسلامية التي يؤمن بها، وهو لأجل ذلك لن يطارد إلا المعتدين ولن يرضى بأي تعرض للناس المدنيين مهما كانت أدوارهم ومواقفهم.

لكن الصفحة الأكثر سوادًا في ممارسات معاوية، كانت تلك التي كتبها بسر بن أرطأة. استدعاه هذا الأموي وجهزه في 3000 رجل ثم أوصاه: «سر حتى تمر بالمدينة فاطرد أهلها، وأخف من مررت به، وانهب مال كل من أصبت له مالًا ممن لم يكن دخل في طاعتنا»[1]. وستحمل غارات ابن أرطأة جديدًا هذه المرة، وهو إكراه الناس على البيعة لمعاوية. وعندما يكون المقصود بالناس أهل المدينة وأهل مكة، فإن ذلك يعني أن معاوية يحاول انتزاع المركزين الدينيين الأهم من سلطة الإمام.

(1) فتوح، ج 4، ص ص 231 ـ 240. اليعقوبي، ج 2، ص 197.

كان هجوم ابن أرطأة على المدينة فاتحة لانتهاكات أفظع ستتعرض لها لاحقًا كما سيحدث مع يزيد بن معاوية في وقعة الحرة. لن يتورع بسر بن أرطأة حتى عن قتل الأطفال، وهو سلوك غير مألوف حتى في الأعراف الجاهلية، إن ذلك يعكس حقدًا أمويًا كبيرًا على الأنصار الذين آووا النبي.. وتتحدث المصادر عن 30 ألف شخص قتلهم هذا الرجل في طريقه نحو الجنوب ذهابًا وإيابًا، وكان يفخر بذلك أمام معاوية.

كانت المدينة مسالمة تمامًا، ولم تكن تحوي مقاتلين. تقول الرواية: «دخل بسر المدينة.. فصعد منبرها ولم يقاتله بها أحد..»[1]. حتى عاملها أبو أيوب الأنصاري الذي لم يكن يملك أية فرصة للدفاع فرَّ إلى الكوفة. أما ابن أرطأة، فكان يهدد ويتوعد ليجبر الناس على البيعة لمعاوية. بل إنه قام بالاعتداء على الدور وهدمها.

لقد بايع الكثيرون معاوية، ومن الواضح أن بعض الذين بايعوا، فعلوا ذلك انحناء أمام العاصفة كما هي حالة جابر الأنصاري وعمر بن أبي سلمة. أما الذين فروا فقد اختاروا التواري موقتًا. لكن ذلك لا يعني أنه لم يكن هناك من بايع مختارًا كما هي حالة أبي هريرة الدوسي، كبير الوضّاعين، الذي أخذ مكان أبي أيوب في إمامة الصلاة، وأبي موسى الأشعري العدو القديم للإمام.

ثم انتقل بُسر إلى مكة التي آذى أهلُها قديمًا النبيَّ وأخرجوه منها، والتي تنحاز اليوم بشكل طبيعي إلى العثمانية. ولم يختلف الأمر في الطائف التي لا تقل عثمانية عن مكة.

لكن اليمن هو الذي سيكون مسرحًا للجرائم الصادمة التي لم يتورع ابن أرطأة عن ارتكابها. كان عبيد الله بن عباس هو الوالي في صنعاء، وسيلجأ إلى استخلاف عبد الله بن عبد المدان الحارثي والفرار إلى الكوفة. لا شك أن صنعاء كانت تضم كتلة عثمانية بايعت عليًا على مضض، وربما كان وجودها هو الذي شجع معاوية على دفع ابن أرطأة نحو اليمن. غير أن تراخي عبيد الله بن عباس وجبنه المخجل هو الذي ثناه عن المواجهة والفرار إلى الكوفة هو

(1) **الطبري**، ج 5، ص 139.

ومساعده العسكري سعيد بن نمران. لقد أغضب ذلك الإمام الذي عاتب الرجلين. لكن سعيدًا أكد للإمام أنه قاتل وأنه كان يريد المقاومة وأن عبيد الله هو الذي رفض القتال وفضّل الفرار[1].

وبفرار الوالي ومساعده تفرق الناس، ووجد بسر المجال مفتوحًا لكي يعبث بأرواح الناس. دخل على عبد الله بن عبد المدان فقتله وقتل ابنه كما قتل الكثيرين غيره. غير أن قمة الفظاعة كانت في ذبحه ولدي عبيد الله. كان ذلك تعبيرًا قاسيًا عن وحشية لا مثيل لها. والمفارقة أن يتناسى عبيد الله بن عباس ما جرى لولديه ويخير خيانة الحسن، لاحقًا، لينضم إلى معاوية الذي غمره بالأموال وجعله يتنازل حتى عن شرفه الشخصي.

وفور وصول الأخبار عن جرائم بسر أرسل الإمام جارية بن قدامة لمطاردته والاقتصاص منه. خرج جارية في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين على أن تكون القيادة لجارية إذا التقى الاثنان. لم يوفر جارية كل من اعترض سبيله، من المرتدين والعثمانية المتواطئين مع بسر، في طريقه إلى مكة. وطارد بُسر الذي هرب نحو الشام. وفي مكة، أراد جارية أخذ بيعة جديدة للإمام، لكن أمير المؤمنين كان قد استشهد متأثرًا بجراحه، فطلب البيعة لمن يختاره أصحاب الإمام، والذي كان لا يزال مجهولًا حتى تلك اللحظة. ثم دخل المدينة التي كان أبو هريرة يصلي فيها بالناس، وأراد تصفيته لكنه أفلت منه وهرب. ثم طلب من أهل المدينة البيعة للحسن الذي أصبح الآن الخليفة الجديد، فبايعوا دون تردد.

لقد كان الإمام في كل هذه الغارات في موقع دفاع رافضًا بشكل قاطع السقوط في ممارسات معاوية نفسها. كان، وبكل شرف، يوصي قادته أن لا يلاحقوا إلا العصابات المغيرة، وأن لا يتعرضوا إلا للمقاتلين الفعليين. لقد مارس معاوية كل أشكال الإرهاب والعنف ضد المدنيين المسالمين، لكنه فشل في تحقيق أي هدف. لكن استشهاد الإمام المفاجئ سينسف كل الجهود التي بذلها لإلغاء معاوية، وسيغير الكثير من المعطيات.

(1) **الغارات**، ج 2، ص 619. **وشرح نهج البلاغة**، ج 2، ص 15.

الوصل الحادي عشر

اغتيال الإمام

كان جارية، وهو يُطهّر مكة والمدينة من دنس بُسر، يتلقى نبأ تعرّض أمير المؤمنين للاغتيال. كان ذلك خبرًا صاعقًا، لكنه لن يُثني جارية عن مواصلة حملته التطهيرية، وأخْذ البيعة لخليفة الإمام حتى قبل معرفة اسمه. كان الإمام حتى آخر لحظة من حياته مصرًا على إنهاء تمرد معاوية، فعل في سبيل ذلك كل ما بوسعه. وكان يستعد للمواجهة العسكرية من جديد. فالهدف النهائي لعلي لم يكن شيئًا آخر غير مستقبل الأمة والدين معًا.

إن فكرة القبول بتقسيم الإمبراطورية لم تكن واردة لدى الإمام وهو الذي كان يرى دائمًا في معاوية باغيًا عليه أن يتنحى. كان الإمام يريد منذ البداية تطهير الشام، غير أنه اصطدم بواقع غياب القاعدة العسكرية اللازمة والقادرة على إنجاز بهذا الحجم، كان في الحقيقة يريد إعادة بناء هذه القاعدة منذ العودة من صفين، فذلك وحده ما يمكّن من إيقاف غارات معاوية. وفي المقابل كان معاوية قد اختار إستراتيجية الترهيب من أجل إلهاء الإمام عن الاستعداد للحرب الشاملة التي كان حاكم الشام يريد تجنبها بأي ثمن.

معاناة الإمام

إن التعبئة العامة التي أعلنها الإمام قبيل اغتياله كانت تتويجًا للجهود التي بذلها منذ حرب النهروان من أجل إيجاد القوة العسكرية القادرة على المواجهة، والمؤمنة بالقضية التي تتعدى شخص الإمام لتكون قضية الإسلام في العمق. ومن هنا كان اغتيال الإمام/الخليفة إنقاذًا لمعاوية الذي فعل كل شيء من أجل تجنب المواجهة المباشرة التي كان يعرف أنها لا تعني شيئًا سوى نهايته.

والاستعداد للحرب الذي كان يبديه الإمام لم يكن نتيجة لغارات معاوية، بل إن ذلك كان خياره منذ البداية. كان يقول للعراقيين «اغزوهم قبل أن يغزوكم» لأنه كان يعرف الطبيعة العدوانية لهذا الأموي. لم يكن هدف معاوية المس بشرعية الإمام، فذلك ما فشل فيه منذ البداية، ولكن هدفه كان تحقيق مكاسب على الأرض وفرض أمر واقع.

من الواضح أن الإمام عانى كثيرًا من تثاقل الكوفيين وخذلانهم. فكان ذلك سببًا لشكواه منهم وتوبيخه لهم بأقسى العبارات. لكنه مع مرور الوقت استطاع أن يصنع مجموعة جديدة من الموالين بعد أن أكلت الحرب خيرة أصحابه، ذلك أن الحرب كثيرًا ما تأكل الشجعان كما لاحظ ذلك الأشتر. فهؤلاء هم الذين يضعون أنفسهم دائمًا في الواجهة. أما الجبناء فعادتهم التواري في الصفوف الخلفية. وربما كانت غارات معاوية موقظة للكوفيين من سباتهم بعد أن رفضوا الاستجابة للإمام والتوجه إلى الشام بعد الانتهاء من الخوارج.. لقد أوضحت تلك الغارات صحة خيارات الإمام وخطأ الكوفيين في عصيانهم وتلكئهم.

حرّك علي دواخل الناس، واستقطب أشراف القبائل دون أن يضطر إلى رشوتهم كما فعل معاوية مع الشاميين. لقد أراد الإمام أن تكون الأخلاق مقدمة على السياسة في حركته كلها. وهو لذلك رفض الاستنجاد بأية خيارات ديكتاتورية لإرغام الناس على طاعته. كان يقول: «ولقد علمتُ أن الذي يصلحكم هو السيف، وما كنت متحريًا صلاحكم بفساد نفسي..»[1]. لم يكن هذا الخيار «الديمقراطي» ناجحًا بالحسابات السياسية، وكان الإمام واعيًا ذلك، فهو رجل لا يستجدي السلطة بأية وسيلة، لأن هذه السلطة لم تكن غاية لذاتها بالنسبة إليه.

كان علي يفكر على نحو مبدئي، وهو لذلك سيرفض ممارسة أي شيء يخالف تلك المبادئ. كان يريد للناس أن يعوا مصالحهم ويتحركوا من أجلها

(1) المفيد، **الإرشاد**، ج 21، ص 281. **الاحتجاج**، ج 1، ص 414. **الكافي**، ج 8، ص 361.

بشكل تلقائي، ولم يكن يريد أن يفرض عليهم شيئًا لا يرغبون فيه بوسائل الإكراه والإجبار.

كان يريد أن يكون الإسلامُ الثقافةَ التي يفكر الناس على أساسها ويتصرفون انطلاقًا منها، وكان ذلك يعني تفكيك البُنى القبلية التي ما زالت تحمل ملامح ثقافة جاهلية. لكن ذلك كان يحتاج إلى النخبة الإسلامية المثقفة، وكان يحتاج إلى الوقت اللازم، وهو ما لم يكن متاحًا أمام الخليفة الذي لم تعرف سلطته الاستقرار نتيجة الحروب المتلاحقة التي كان يثيرها خصومه من عبدة الأهواء السلطوية.

ومع ذلك لم يتوقف الإمام، بل كان شديد الحضور في الكوفة، كان يعظ ويرشد ويفسر القرآن ويحكم في القضايا المختلفة.. وهو بذلك يعلن الحضور القوي لسلطته في المركز. كان بذلك يستعيد سيرة النبي ﷺ الذي لم يكن يختبئ في قصر يحيط به الحراس كما يفعل الملوك، بل كان يسير وحيدًا في الأسواق ليقوم بمسؤولياته ويقضي حاجاته بنفسه. وعلى هذا النحو كان الإمام يتعامل مع الناس بشكل مباشر دون وساطة الأشراف وزعماء القبائل.

بل إن عليًا سيعامل هؤلاء الأشراف مثل بقية الناس، ولن يقر منهم إلا من كان أهلًا لذلك أو أقله من كان إقراره لا مفر منه. وكان ذلك سببًا في ظهور جيل جديد من وجهاء القبائل كانوا يحملون ثقافة الإسلام كما هي حالة معقل بن قيس الرياحي، ومالك بن كعب الهمدان، والمسيب بن نجبة الفزاري، وعبد الرحمن بن شريح.

كانت مشكلة الإمام في غياب التجانس داخل المجتمع الكوفي. فهذا المجتمع كان يضم فئات معادية تعمل بلا كلال لتخريب كل جهوده، لكنه استطاع بشخصيته الكاريزماتية أن ينتصر على الواقع المريض إلى حد كبير، لكن الموت لم يُمهله. لاشك أن الخوارج كانوا لا يزالون مؤثرين، كانوا يفسدون كل من التقوه من سكان البوادي والقرى البعيدة، وكان الأشعث يحوك المؤامرات ضده.. وحتى بعض المقربين منه مثل عبد الله بن عباس

لم يترددوا في خيانته. لقد أخذ ابن عباس قسمًا من بيت مال البصرة وهرب إلى مكة[1].

ورغم ذلك كله بقي الإمام واقفًا على قدميه، واستطاع أن يجمع حوله مجموعة من الطليعيين الأوفياء. سيظهر اسم جارية بن قدامة الصحابي القديم صاحب الشخصية القوية الذي وجد فيه الإمام سيفًا صارمًا على أعدائه. كما سيعود قيس بن سعد إلى الواجهة وسيكون على رأس شرطة الخميس، نخبة الجيش. كان سعد يقود فيلقًا من 12 ألف مقاتل متبوعًا بفيالق أخرى يصل عدد أفرادها إلى 40 ألف مقاتل.

الغيبوبة الشاملة

كان علي يستعد للحرب من جديد، لكن المصادر تتحدث عن آلامه العميقة حتى وهو يفعل ذلك. كان يعقد اللواء ويحلف أن لا يحله حتى يسير، لكن الناس كانوا يتلكؤون ويأبون عليه، فيحله ويكفّر عن يمينه. وعندما رأى منهم ذلك قال: «اللهم إني قد مللتهم وقد ملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، فأبدلني خيرًا منهم، وأبدلهم شرًا مني»[2].

لاشك أن كل ما كان يشغل الإمام هو الاستعداد للحرب، لكنه كان يُواجه بنكوص الناس وتخاذلهم. من الواضح أن النخبة من أصحابه لم تكن بالعدد الذي يكفي لتحمل عبء الحرب، كانت أغلبية الناس ضد الحرب، وهذا يحيل إلى وجود زعامات قبلية وإيديولوجية كانت تعمل على إبعاد الناس عن الإمام. كانوا يشككونهم في عدالة القضية التي يدافع عنها علي، ويخذلونهم عنه.

ولو قبل الإمام ممارسة قدر من الديكتاتورية من أجل فرض الانضباط في

(1) **أنساب الأشراف**، ج2، ص 400. **العقد الفريد**، ج3، ص 348. ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، ج1، ص 57. **تاريخ الطبري**، ج5 ص141. . لكن اليعقوبي يروي ـ منفردًا ـ أن ابن عباس رد المبلغ إلى بيت المال. **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، ص 205.

(2) **الطبقات الكبرى**، ج 5، ص93.

صفوف الكوفيين لكان المشهد مختلفًا، لكن الإمام لم يكن يؤمن بهذا الخيار وكان يراه مناقضًا لقيم الدين. ومع ذلك فقد كانت سلطة الإمام قوية وراسخة، فما كان يرفضه الناس هو فقط الدخول في حرب جديدة ضد معاوية، وهنا اللغز. لقد قاتل العراقيون أهل النهروان، وطاردوا فلول المتمردين بعد صفين، وتصدوا لغارات معاوية. ولكنهم لم يكونوا مستعدين حتى تلك اللحظة لخوض حرب شاملة ضد حاكم الشام. وهنا تطرح بقوة فرضية وجود طابور خامس كان يعمل لمصلحة معاوية ويدفع نحو تجنب الحرب.

ولأجل ذلك كان الإمام يتألم بعمق، لأن الناس لم يُحسنوا تقدير مصالحهم، ولا قراءة مستقبلهم على نحو صحيح. كان علي يريدهم أن يفهموا ذلك، وكان يؤكد أن المسألة لا تتعلق بقضية شخصية بقدر ما كانت تتعلق بقضية الإسلام ومصلحة المسلمين جميعًا. لقد كان هناك تناقض حقيقي بين علي وحزبه من جهة وبقية الناس من جهة أخرى، وهو واقع أنتج اليأس من إمكانية إصلاحهم، فكان يتمنى مفارقتهم مرة واحدة وإلى الأبد. إن ما تنقله المصادر التاريخية من مرارة وألم واشمئزاز من الحياة مع أولئك الناس كان مشهدًا محزنًا.

استهداف الإمام

كان الإمام مُصرًّا على طلب الشهادة، وكان يتذكر دائمًا نبوءة الرسول ﷺ بشأنه «لتخضبن هذه من هذه». كان يريد مفارقة قوم لا يريدون الإفادة من عبقريته، ولا يفكرون إلا على نحو معوج. وستأتي الضربة من الخوارج، كان الأمر يبدو في ظاهره عملًا فرديًا نفذه عبد الرحمن بن ملجم. غير أن ابن ملجم كان خارجيًا وكان جزءًا من مخطط شامل. كان الخوارج قد هربوا إلى البوادي والأرياف بعد معركة النهروان. ولاشك أنهم كانوا لا يزالون يحملون أحقادهم، غير أنهم لم يكونوا يجرؤون على إظهار ذلك. وربما كان تمتعهم بكل حقوقهم حتى المالية منها ساهم في إلجامهم.. لكن ذلك كله سينتهي في اللحظة التي سيقرر فيها ابن ملجم اغتيال الإمام. لقد كان الغدر صفة ملازمة للخوارج، وهم الذين بدأوا تمردهم بقتل الصحابي عبد الله بن خباب وزوجته

ذبحًا على ضفة النهر، كانوا يقتلون كل من يعترض سبيلهم ولم يكن موافقًا لهم في الرأي بأساليب لا تخلو من الاستعراض أحيانًا.

وتجمع المصادر[1] على رواية واحدة في اغتيال الإمام لا يمكن طرحها كما فعل فلهاوزن. إنها رواية صحيحة في أصلها لكن ذلك لا يمنع من دخول إضافات عليها. تقول الرواية: إن مجموعة من الخوارج اجتمعوا في مكة أثناء موسم الحج سنة40هـ. كانوا ثلاثة أشخاص، استذكروا ما وقع للخوارج في معركة النهروان وترحّموا على قتلاهم ثم اتفقوا على التخلص من الرؤوس الثلاثة الإمام ومعاوية وعمرو بن العاص. حتى هنا لا شيء غريبًا، فالخوارج هم أعداء لعلي كما هم أعداء لمعاوية وابن العاص.

لكن المستهدف الأساسي في تقديرنا هو الإمام علي، بل إن الخوارج بقتلهم الإمام قد خدموا عمليًا مصالح معاوية، لقد فتحوا أمامه الطريق إلى السلطة كما لم يحدث من قبل.. وفي كل الأحوال لم تكن الجريمة التي ارتكبها ابن ملجم إلا عملًا حاقدًا لا علاقة له بأية نيات حسنة كما يزعم هشام جعيط[2]، إنه عمل ثأري لقتلى النهروان ولا علاقة له بالمصلحة العامة للمسلمين.. لم يظلم علي الخوارج، ولم يقاتلهم إلا عندما بدأوه بالقتال. كان في الحقيقة في موقع دفاع عن أمن الناس لأنه هو المسؤول الأول عنهم.

اتفق الثلاثة: عبد الرحمن بن ملجم المرادي وبرك بن عبد الله التميمي وعمرو بن بكر التميمي على تنفيذ مخططهم في شهر رمضان سنة 40 هـ عندما التقوا في موسم الحج، وتم تأكيد الاتفاق في لقاء ثان في مكة في شهر رجب. قتل عمرو بن بكر شخصًا آخر غير عمرو بن العاص كان مكلفًا بالصلاة بدلًا عنه في تلك الليلة، وجرح برك بن عبد الله معاوية بعد أن ضربه على مؤخرته.

أما عبد الرحمن بن ملجم فقد وصل إلى الكوفة متكتمًا على مخططه، تعرف مصادفةً إلى امرأة رائعة الجمال اسمها قطام قُتل أبوها وأخوها في

---

(1) **الطبري**، ج5، ص143. **انساب الاشراف**، ج3، 251. **الكامل في التاريخ**، ج2، ص434.

(2) هشام جعيط، **الفتنة**، ص 296.

معركة النهروان، فكانت تحمل حقدًا دفينًا على الإمام. كانت هذه المرأة تنتمي إلى عشيرة تيم الرباب المنتسبة إلى تميم، هام بها ابن ملجم وأراد أن يخطبها لنفسه، فشرطت عليه مجموعة من الشروط أهمها قتل أمير المؤمنين. فكرّ لبعض الوقت ثم قال لها إن ذلك هو ما جاء به إلى الكوفة، قال لها: «ما جاء بي إلى هذا المصر إلا قتل علي»[1]. رفض بعض المؤرخين هذه الرواية بسبب هذه المصادفة الغريبة، بينما انطلق آخرون في نسج الأساطير حولها كما فعل جرجي زيدان الذي حوّل الرواية إلى فنتازيا غرامية.

إن وجود هذه الرواية في المصادر التاريخية المختلفة يؤكد أن القصة في أصلها حقيقية. لكن ما يجب رفضه هو المبالغة في تصوير دور هذه المرأة. تزوج ابن ملجم هذه المرأة فعلًا، وهذا يعني أنه قبل شرطها الذي كان في الأساس هدفًا له، لقد أراد أن يستغل فرصة الزواج بامرأة بهذا القدر من الجمال دون أن يكلفه ذلك شيئًا إضافيًا. والتقاء ابن ملجم وهذه المرأة حول هدف واحد هو الانتقام من الإمام يعكس مدى الحقد الذي كان ينتشر بين الخوارج ضده.. إن الشواهد الشعرية يمكن أن تكون دليلًا إضافيًا على صحة هذه الرواية في أصلها:

يقول ابن أبي مياس المرادي[2]:

ولم أر مهرًا ساقه ذو سماحة — كمهر قطام بين عرب وعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة — وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا — ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

سمّم ابن ملجم سيفه على نحو تستحيل معه نجاة الإمام حتى لو لم تكن الضربة قاتلة. وتورد المصادر أن الرّجل استعان بشبيب بن بجيرة، كما لعبت قطام دورًا في ذلك. لكن المصادر تورد أيضًا اسم الأشعث بن قيس بوصفه شريكًا في الجريمة. لقد سبق الأشعث أن هدد الإمام بالقتل، ووصفه أمير

(1) **الطبري**، ج5، ص143. **أنساب الأشراف**، ج3، صص 251 ـ 253.
(2) **الطبري**، ج 5، ص 150.

المؤمنين بالمنافق.. كانا عدوين حقيقيين، لكن الإمام لم يتمكن من إبعاده عنه بسبب نفوذه داخل قبيلته كندة. إننا نجد ابن أبي الدنيا ينقل عن عبد الغفار قوله: «سمعت غير واحد يذكر أن ابن ملجم بات عند الأشعث بن قيس، فلما أسحر جعل يقول له: أصبحت»[1]. كما تورد مصادر متعددة أن ابن ملجم مر بالأشعث عند المسجد قبل عملية الاغتيال فقال له: «النجاء النجاء لحاجتك فقد فضحك الصبح» وعندما سمع حجر بن عدي مقالته فهم ما يقصده، فقال له «قتلته يا أعور» وأراد إنقاذ الإمام لكن عليًا كان قد دخل المسجد من باب آخر وضربه ابن ملجم[2].

اختار ابن ملجم وقت صلاة الصبح لتنفيذ جريمته، وكان أمير المؤمنين يخرج كل فجر أول الأذان يوقظ الناس للصلاة. دخل المسجد استعدادًا للصلاة، وعندما كبّر ودخل في الصلاة، لم يمهله ابن ملجم وضربه على رأسه، صاح الإمام: فزت ورب الكعبة! ثم قال لمن حوله: «لا يفوتنكم الرجل». ورغم قسوة الموقف، فإن الإمام لم ينس أن يوصي بالإحسان إليه! والاكتفاء بالاقتصاص منه وحده إذا مات من ضربته. كان يقول: «أطيبوا طعامه وألينوا فراشه، فإن أعش فأنا ولي دمي فإما عفوت وإما اقتصصت»، «وإن متّ فذلك إليكم، فإن بدا لكم أن تقتلوه فلا تمثلوا به»[3].

تم استدعاء أحد الأطباء المتخصصين وهو أثير بن عمرو بن هانئ السكوني، فاكتشف أن الجرح كان عميقًا، وأن الضربة قد وصلت إلى الدماغ، وأن نجاة الإمام مستحيلة[4]. وبدل أن يخفف الآخرون عن الإمام، فإن العكس هو الذي كان يحدث، كان يهدئ من روع الباكين حوله من أبنائه وبناته وسائر الناس.. ثم انطلق في إلقاء وصاياه التي كانت تؤكد على التقوى والالتزام بأحكام الدين وقيمه. كان الإمام يلقي وصاياه أحيانًا ثم ينهمك في ذكر الله

(1) **موسوعة الإمام علي**، ج 7، ص 223.

(2) **أنساب**، ج 3، ص 253. **مروج الذهب**، ج 2، ص 424.

(3) **أنساب**، ج3، ص 256. ابن شهر آشوب، **المناقب 312/3**. **تاريخ دمشق**، ج42، ص 557.

(4) الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص51. **الاستيعاب**، ج3، 221.

أحيانًا أخرى.. كان في تمام وعيه.. استمر على تلك الحال يومين ثم التحق بجوار ربه ليلة الجمعة 21 رمضان 40 هـ عن 63 سنة.

لقد قبض علي الهائل الذي لم تلد النساء مثيلًا له، وذهب إلى لقاء ربه شهيدًا بعد حياة قضاها كلها في سبيل الله. قتل علي الذي لم يعرف العالم نظيرًا له وخسرت الإنسانية عظيمًا آخر من عظمائها.. قتل علي وبقي المؤمنون كلهم يعانون مرارة اليتم.. غسله ابنه الحسن بنفسه، وصلى عليه وكبّر سبعًا ثم دفنه سِرًّا في الغري، خارج الكوفة، من أجل إخفاء قبره خوفًا من تجرؤ أعدائه على نبشه. ولم يتم الكشف عنه إلا في زمن حفيده الإمام جعفر الصادق.

قضى علي ثلاثًا وعشرين سنة في الجهاد مع الرسول ﷺ في مكة والمدينة، كان سيفه الضارب، ونصره المؤزر، ورجل المهمات الصعبة لديه.. ستنتهي هذه المرحلة بوفاة النبي ﷺ بعد أن نجح في هزيمة قريش وترسيخ الإسلام. وبوفاة النبي سيتم الاستيلاء على السلطة دون مشورة من المسلمين ولا احترام لوصايا النبي، ليجد علي نفسه في صفوف المعارضة، لكنه اختار أن تكون معارضته إيجابية. لقد تجاوز آلامه من أجل مصلحة الدين وقرر التعاون. كانت تلك المرحلة الثانية التي امتدت خمسة وعشرين عامًا، كان خلالها الإمام يتألم في صمت أمام اتساع الفجوة بين مبادئ الإسلام وواقع المسلمين كلما ابتعدوا عن عصر النبي ﷺ. أما المرحلة الثالثة فكانت سنوات حكمه الخمس التي أراد من خلالها الإمام العودة إلى صفاء الرسالة الأولى في قيمها الأساسية. لكنه اصطدم بقسوة الواقع المنحرف، فلم يجد ما يكفي من الأنصار من أجل استعادة الإسلام في مبادئه وقيمه وثقافته.. ومواجهة الارستقراطية القرشية التي قررت محاربته حتى آخر نفس من أجل مصالحها وأحقادها.

لقد كان علي بطلًا وهو يجاهد من أجل الرسالة بين يدي النبي، وكان بطلًا وهو يصبر على حقه الضائع ليسالم الذين أبعدوه ويتعاون معهم. وكان بطلًا وهو يواجه الظلم والفساد والجهل خلال سنوات حكمه.

تداعيات..
الفتنة المفتوحة

كان الإمام قد سئل بعد الضربة هل يبايع الناس الحسن إن فقدوه، فأجاب: «ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر»[1]. كان ذلك إعلانًا من الإمام أن السلطة تخضع لاختيار الناس، وليس لأحد أن يفرض عليهم أي شخص، مهما علا شأنه، حاكمًا. وهو بذلك يفصل نهائيًا بين الرؤية الإسلامية لاستلام السلطة القائمة على أساس الشورى والاختيار الحر، وبقية الرؤى الاستبدادية التي تريد إلغاء أي دور للناس في اختيار حكامهم.

بايع الناس في الكوفة وفي سائر الأمصار الحسن بعد مواراة الإمام في الثرى. كانت بيعة حرة، وكان أول من بايع قيس بن سعد. واللافت أن الخليفة الجديد رفض أية شروط فوق الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله. وقال إن أية شروط أخرى هي متفرعة من هذين الشرطين. وفي المقابل اشترط الحسن على الناس أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم. كان بذلك يريد أن يجعل قرار السّلم والحرب بيده من أجل أن لا يكون رهينة لأحد في قراراته، لكن البعض ربما فهم شيئًا آخر.

كان علي، الإمام المحارب في الصميم، مصرًا حتى آخر لحظة على كنس معاوية. لكن ما كان يريده الإمام كان يصطدم ببرود الكوفيين ومماطلتهم، وكان يتألم لأجل ذلك. ومع ذلك لو أمهل الموت عليًا بعض الوقت لأوقف التاريخ على رجليه ولجعله يمشي سويًا على صراط مستقيم. لو حدث ذلك لكانت للتاريخ حكاية أخرى.

---

(1) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 7 ـ 8، ص 325. وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 3، ص 391.

لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وجاء الحسن إلى السلطة. كان الحسن أشبه الناس بالنبي خَلْقًا وخُلُقًا، وكان الرسول ﷺ يقول عنه هو والحسين: «ابناي هذان إمامان إن قاما وإن قعدا» وكان يقول عنهما إنهما «سيدا شباب أهل الجنة». إنهما إذن إمامان وسيدان سواء وصلا إلى موقع الخلافة أم لم يصلا وهذا ما يعطي التمييز بين مقام الإمامة، الذاتي والحقيقي الذي يكشف عنه النص، ومنصب الحاكم، الموضوعي والاعتباري الذي يخضع لاختيار الناس، من وجهة نظر إسلامية.

لاشك أن غياب الإمام علي ترك فراغًا كبيرًا في النفوس، كان يصعب على الحسن تعويضه بسرعة. فالتغيير في رأس النظام عادة ما يحدث مثل هذه المرحلة الانتقالية. ومع ذلك كان الحسن مقبولًا لدى أكثر الناس ومرحبًا به، حتى الخوارج الذين انكفأوا على أنفسهم بعد معركة النهروان، بدأوا يطلون من جديد. كانوا يريدون العودة إلى الحرب. وجاءوا إلى الحسن يريدون مبايعته بهذا الشرط.

لقد أراد الخوارج مبايعة الإمام الحسن لكنهم شرطوا عليه الحرب على معاوية، وعندما رفض ذهبوا إلى الحسين الذي رفض مبايعته ما دام الحسن موجودًا بشكل قاطع، وهو ما اضطرهم إلى العودة إلى الحسن. لم يكن الخوارج وحدهم في المشهد الجديد، بل ظهر إلى العلن وبشكل واضح، تيار أموي الهوى، كان من أبرز وجوهه عمرو بن حريث والأشعث بن قيس وعمارة ابن الوليد بن عقبة وحجر بن عمرو وعمر بن سعد بن أبي وقاص وإسماعيل وإسحاق ابنا طلحة بن عبيد الله.. كتب هذا التيار إلى معاوية يبايعه ويحثه على المجيء إلى الكوفة ويعده بتسليم الحسن أو الفتك به[1].

لكن الإمام الحسن كان عارفًا بما يُدبر له، فكان شديد الحذر. كان لا يتقدم للصلاة إلا متدرعًا، وبالفعل فقد رماه أحدهم بسهم. لقد كان معاوية صريحًا حين بعث إليه يهدده: «فاحذر أن تكون منيّتك على أيدي رعاع من الناس»[2].

---

(1) المسعودي، ج2، ص280. المفيد، **الإرشاد**، ص 170.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج 4، ص 13.

كان هناك إذن، تياران معاديان للحسن في الداخل: تيار الخوارج الذين حاربوا عليًّا، والتيار الأموي الذي أطل برأسه على نحو واضح بعد اغتيال الإمام علي. أما الفئة الأوسع فكانت فئة الشكاك الذين كانوا لا يعرفون حقيقة ما يجري.

هذا المشهد كان واضحًا في ذهن الإمام الحسن، وهو لذلك سيكون شديد التحفظ، وسيقول للناس من حوله والذين كانوا مندفعين: «إني أرى ما لا ترون». كان يرى الوضع مترنّحًا، وكان متأكدًا أن اندفاع الناس لن يطول لينقلب إلى نكوص وخذلان ليصل الأمر في النهاية إلى حد الاعتداء عليه. كان الحسن يعلم أن معاوية بدأ منذ اللحظة التي علم فيها باستشهاد علي، يدس جواسيسه من أجل تخريب الإجماع الذي تم حول شخص الحسن. وقد كشف الإمام رجلين منهم أحدهما بالبصرة والآخر بالكوفة وأمر بتصفيتهما.

ومع ذلك كله كان الحسن مصممًا منذ البداية على الحرب. وهو لذلك سيبعث رسالة إلى معاوية يؤكد فيها أن المسلمين ولّوه الأمر بعد استشهاد علي، ويطالبه بالدخول في جماعة المسلمين ويهدّده بالحرب إن لم يستجب لذلك: «وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيّك سِرتُ إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»[1]، رد معاوية برسالة بليدة يقول فيها: «إني أكبر منك سنًا وأقدم منك، وأطول منك تجربة..». إنها مقاييس معاوية الجاهلية[2]، وهو الذي لا يزال مصرًا على التمرد والخروج على الشرعية.. سيجيب جندب بن عبد الله والحرث بن سويد مبعوثا الحسن: «ارجعا فليس بيني وبينكم إلا السيف»[3]. لقد كان ذلك آخر جواب لمعاوية يعلن فيه الحرب.

لن يبادر الحسن بالهجوم على الشام بعد تسلمه السّلطة، فقد كان يحتاج

(1) م ن، ج 4، ص 12.

(2) هي مقاييس جاهلية لأن الإمام في الإسلام هو من يمتلك معرفة الإسلام ويتمثل قيمه في حياته، أما مقاييس السن والتجربة فلا يمكن أن تكون مقاييس إسلامية مقدمة على العلم والمعرفة والالتزام القيمي والأخلاقي.

(3) م ن، ج 4، ص 10.

إلى ما يكفي من الوقت لتثبيت سلطته وإعادة تنظيم صفوفه الداخلية بعد أن استيقظت كل التناقضات الإيديولوجية والسياسية، ليظهر الخوارج إلى العلن من جديد، ويبدأ عثمانية الكوفة في التواصل مع معاوية علنًا. إننا أمام معطيين جديدين لم يكن بإمكان الحسن تجاهلهما وهو يقدم على حرب شاملة.

لكن معاوية، الذي قويت في داخله شهوة السلطة، قرر فعليًا غزو العراق، فحرك جيشه نحو تخومه حتى جسر منبج. كان ذلك في الواقع مجرد تهديد أطلقه معاوية لأن الحرب لن تقع أبدًا بين الطرفين. لقد كان معاوية يخشى الحرب فعلًا رغم تشتت العراقيين وضعفهم. ربما كان يريد الحفاظ على جيشه، واللجوء إلى وسائل أخرى للاستيلاء على السلطة، لأن الدخول في حرب شاملة، لا يضمن له النصر الذي يريده، فكل الاحتمالات في هذه الحالة تبقى مفتوحة.

وفي الطرف المقابل، بدأ الحسن يجهز جيشه عندما علم بوصول معاوية إلى تخوم العراق. وكما كان علي يعاني من الكوفيين، سيعاني الحسن أيضًا، لكن الفرق هو أن عليًّا تغلب على معاناته ولم يتوقف عن التفكير في إنهاء معاوية. لقد كان للحسن وضعه المختلف، وكان عليه أن يفعل ما بوسعه دون أن يؤدي ذلك إلى التضحية بأنصاره وخسارة كل شيء.

خاطب الحسن الكوفيين، وأعلمهم أنه يريد أن يعسكر بالنخيلة استعدادًا لمواجهة معاوية، وتلقى وعودًا بالاستجابة. لكنه بعد أن خرج إلى النخيلة وعسكر فيها عشرة أيام لم يحضر إليه سوى أربعة آلاف مقاتل، وهو ما اضطره للعودة إلى الكوفة ليخاطب أهلها من جديد يعاتبهم ويحذرهم. في هذه المرة سيستجيب له الكوفيون. أرسل الإمام شرطة الخميس التي كان قد شكلها علي إلى مسكن بقيادة عبيد الله بن عباس ومساعدة قيس بن سعد وسعيد بن قيس لمواجهة معاوية. أوصاه أن لا يبدأ بالهجوم، وإذا حدث له شيء فليكن قيس على الجيش.

أما الإمام نفسه، فسيأخذ بقية الجيش ليرابط بهم في المدائن. لا شك أن النخبة هي التي توجهت إلى مسكن بقيادة عبيد الله بن عباس، أما الحسن

نفسه، فقد اصطحب بقية الجيش المكوّن من فئات مختلفة من الكوفيين. كان الخوارج حاضرين في هذه الجيش، فقد أعلنوا استعدادهم من جديد لقتال معاوية. وكان هناك أيضًا بعض أصحاب الميول الأموية، دون أن ننسى فئات أخرى من عامة الناس. من المؤكد أن هذا القسم من الجيش، الذي كان مع الحَسن، كان خاليًا تقريبًا من الوجهاء والشجعان وأهل البأس.. فهؤلاء جميعًا كانوا في نخبة الجيش المرابط في مسكن.

كان مع الإمام الحسن 40 ألف رجل كما يورد البلاذري[1]. لكن هذه السيوف لم تكن تملك إرادة القتال لأن عقلها لم يكن مع الحسن. أما في مسكن /الأنبار، فكان هناك 12 ألف سيف من المقاتلين الذين جهزهم الإمام علي قبل اغتياله. كانوا يشكلون نواة صلبة من صفوة المقاتلين لكن عددهم لم يكن كافيًا لمواجهة جيش معاوية الكبير.

لن يتخذ الحسن قرار الصلح قبل أن يتضح عمليًا عدم استعداد العراقيين للمواجهة. لا شك أن الإمام ما كان ليقبل الصلح لو وجد العدد الكافي من الرجال الذين يدعمونه والمستعدين للتضحية. ومع ذلك سيتخذ الحسن كل ما يلزم ليقوم بما يجب القيام به من أجل المواجهة المفترضة. ولن يكون قرار الصلح الذي سيلجأ إليه الحسن إلا شرًّا لابد منه. كان يريد حماية شيعته، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا من خلال الصلح. فعندما يتبين أن الحرب خاسرة سلفًا، فإن دخولها في هذه الحالة سيكون انتحارًا.

وسيكون للإشاعات التي ستنطلق لتتحدث عن استعداد الإمام الحسن للصلح دور إضافي في خذلان الناس وتثاقلهم، ثم في هجومهم على الإمام بطريقة غوغائية. لقد وصلت تلك الإشاعات إلى عبيد الله بن عباس، وعندما وصله عرض معاوية بشراء ذمته مقابل مليون درهم يدفع له نصفها نقدًا.. لم يتردد في بيع نفسه، وخيانة من وضع ثقته فيه. لم يكن ذلك في الحقيقة شيئًا غريبًا عن آل العباس. فالأب كان في صفوف المشركين في بدر وقد أسره المسلمون وافتدى نفسه بالمال. والابن عبد الله نهب بيت المال في البصرة

(1) البلاذري، **أنساب**، ج 2/2، ص 33.

وهرب إلى مكة ليشتري بأموال الناس الجواري. وها هو الابن الثاني يبيع نفسه لمعاوية، وقد سبق له أن فر من أمام بسر بن أرطأة.

وقف قيس الذي استرجع موقعه الطبيعي قائدًا لشرطة الخميس ليهوّن من أمر عبيد الله بن عباس، فيجيبه رجاله: «الحمد لله الذي أخرجه من بيننا». ثم وجه رسالة إلى الحسن في المدائن يعلمه بما حدث. وتتحدث بعض المصادر[1] عن تسلل ثمانية آلاف أو ألفين وراء ابن عباس تحت جنح الظلام ولم يبق مع قيس سوى أربعة آلاف أو عشرة آلاف. من الصعب قبول رقم ثمانية آلاف متسلل، بينما يبدو الرقم ألفان معقولًا. إذ لو لم يبق مع قيس سوى أربعة آلاف لما أمكن له أن يتصلب في فرض شروطه لاحقًا مع معاوية.

ستصل هذه الأخبار مضخمة إلى جيش الإمام في مسكن، وسوف يضطرب كل شيء في معسكره. سينادي أحدهم «ألا إن قيس بن سعد قُتل فانفروا». كان ذلك صوت أحد المدسوسين في الجيش. وعندما سمع الغوغاء في جيش الإمام ذلك «نفروا بسرادق الحسن ونهبوا متاعه». مجموعة من السفهاء هجموا على خيمة الإمام في مشهد صخب عارم، ونهبوا كل شيء لديه حتى ملابسه وسجادته. كان موقفًا غريبًا. لكن الإمام تمالك نفسه وامتطى جواده وتوجه نحو المدائن.. وُوجِه بكل كلمات الإساءة لكنه تابع سيره. وفي طريقه من ساباط إلى المدائن، في مظلم ساباط، تعرض الإمام مرة أخرى لمحاولة اغتيال، ضربه خارجي ضربة عنيفة بمنجل شق لحم فخذه، ووصلت إلى العظم[2]، نُقل الحسن على إثرها إلى المدائن حيث تمت معالجته هناك.

إن أصابع الخوارج واضحة في كل ما حدث للحسن. فهذه المجموعة تفتقد العقل والإيمان معًا. وقد هاجمت الحسن فقط لأنها صدّقت الإشاعات التي كان يطلقها عيون معاوية عن ميل الحسن إلى المصالحة. لقد كان هذا الأموي «يدس إلى عسكر الحسن [في المدائن] من يتحدث أن الحسن قد

(1) **أنساب**، ج 2/2، ص 37.

(2) **أنساب**، ج 2/2، ص ص 35 ـ 36.

صالح معاوية وأجابه»[1] في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى أن «قيس بن سعد قد قُتل فانفروا»[2]. كان معاوية يلعب على المعسكرين في مسكن والمدائن. كان يشتري الذمم ويبث الإشاعات، وكان العراقيون يتراقصون هنا وهناك مصدقين كل ما يقال لهم عندما يتعلق الأمر بعوامهم، ويقبضون الرشى المجزية عندما يتعلق الأمر بوجهائهم.. وفي النهاية وجد الحسن نفسه بلا جيش ولا رجال.

أما الكتلة المتبقية مع قيس، فمن الواضح أنها كانت قوية ومتماسكة وثابتة. ولولا ذلك لما أمكن لقيس الاعتماد عليها من أجل فرض شروطه على معاوية. لكن الكتلة التي كانت مع الحسن انخدعت وخارت وتفرقت.. وانتهى بها الأمر إلى مهاجمة قائدها. فقد الحسن الجيش الذي يمكن الاعتماد عليه في مواجهة معاوية، ولم تبق إلا كتلة صغيرة لا يمكنها أن تفعل شيئًا أمام جيش الشام الكبير. والدخول في الحرب كان يعني الهزيمة التي لا يمكن أن تنتج سوى تصفية كاملة لشيعة الإمام.

كان الحسن يعاني بعد تعرضه لمحاولة الاغتيال، فقد نزف بشدة، وتعقدت حالته الصحية، وتفرق الناس عنه. وكان عليه أن يصارح من بقي منهم. تحامل على نفسه ووقف ليخطب ويقول: «إنا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيبت السّلامة بالعداوة والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم. ألا وقد أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره. أما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر. ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفه. فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبا السيوف. وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا. فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية، وأمضى الصلح»[3].

(1) اليعقوبي، ج 2، ص 191.

(2) **الطبري**، ج 6، ص 92.

(3) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ص 2.

وهكذا أرسل معاوية سفراءه إلى الحسن في المدائن يعرضون عليه السّلم والصلح أمام انهيار العراقيين. لن يكون صلحًا بين جماعتين من أجل تقاسم مناطق النفوذ، ولا بين دولتين من أجل العودة إلى الحدود المشتركة.. بل سيكون تنازلًا عن السلطة نفّذه الحسن بشجاعة كبيرة، لأن عملًا كهذا لن يكون مقبولًا حتى عند أقرب المقربين إليه. سيلومه الجميع، وسيدافع عن قراره بالقول إنه أراد حماية من تبقى من شيعته.

ولا معنى لما يردّده البعض[1] من أن الحسن أراد الرجوع إلى الجماعة، لأن الإمام ليس هو من فارق الجماعة وأعلن التمرد. كان الحسن يفكر في مستقبل الإسلام، وهو لذلك أراد حماية شيعته حملة الإسلام الحقيقيين. كان ذلك غير ممكن دون قبول الصلح. لقد كان الصلح بالنسبة إلى الإمام الحسن أهون الشرين، لأن الخيار الآخر هو الحرب الخاسرة سلفًا.

صارح الحسن الناس بعرض معاوية، وخيرهم بين الحرب والصلح، فاختاروا الصلح. وهذا يعني أن الحسن اتخذ قراره بناء على رغبة عامة وليس بناء على رغبة شخصية. لقد فعل الحسن ذلك رغم أنه يعرف خور قاعدته ونكوصها من أجل أن يكون قراره منطلقًا على أساس رغبة عامة بشكل واضح للجميع.

سيكون قبول الحسن الصلح، يوم عرس لمعاوية الذي كان يعمل منذ ربع قرن من أجل الوصول إلى هذا الهدف. سيعود الذين حاربوا النبي ﷺ، ولم يستسلموا إلا تحت قرقعة السيوف، ليختطفوا السلطة ويحكموا باسم الدين الذي حاربوه سنين طويلة. سيكون يومًا بائسًا وحزينًا لكل المؤمنين الحقيقيين، ولكنه سيكون يوم فرح واحتفال لأعدائهم. كان الحسن، وهو ينقل مفاتيح سلطة واسعة إلى متمرد عنيد، يبحث عن المصلحة العليا للإسلام، لأن خسارة الحرب تعني تصفية الإمام ورجاله والقضاء على الإسلام مرة واحدة وإلى الأبد. كان ذلك عملًا مؤلمًا ولكنه كان ضروريًا[2].

---

(1) جعيط، **الفتنة**، ص318.

(2) ليس غريبًا بعد ذلك أن يقول النبي الذي كان يعرف الحسن ويقرأ المستقبل: «لو كان العقل رجلًا لكان الحسن».

لكن الحسن لن يسلم الأمر إلى معاوية دون شروط، لقد سبق للحسن أن اشترط على مبايعيه أن يسالموا من سالم ويحاربوا من حارب. وكان بإمكانه أن يتصرف دون عودة إلى الناس، لكنه لم يفعل. لقد وضع منذ البداية كل الاحتمالات بين عينيه. سيشترط الحسن على معاوية الالتزام بكتاب الله وسنة نبيه، وأن يكون الأمر شورى من بعده فلا يحق له أن يعهد لأحد، وأن لا يتعرض لعلي بالسب والشتيمة، وأن يكون الناس جميعًا في كل أنحاء الدولة آمنين على أنفسهم وأموالهم، فلا تتم ملاحقتهم أو التنكيل بهم لمجرد اختلافهم عنه في الرأي[1].

لكن الشرط الذي سيرى فيه بعض المغرضين، كالزهري[2] قديمًا وفلهاوزن[3] حديثًا، جشعًا من قبل الحسن هو الشرط المتعلق بالمال. لقد اشترط الحسن بحسب بعض المصادر استثناء بيت مال الكوفة من التسليم ودفع رواتب سنوية للحسن ودفع مبالغ أخرى لأبناء شهداء الجمل وصفين الذين قتلوا مع علي[4]. لكن الحقيقة هي أن الحسن أراد تأمين حياة شيعته وشيعة

(1) نص الصلح المشروط كما أراده الإمام الحسن كان على هذا النحو: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما صالح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان، صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين. وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده عهدًا بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين، وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه وما أخذ على أحد من خلقه بالوفاء وبما أعطى الله من نفسه، وعلى أن لا يبغي للحسين بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله ﷺ، غائلة سرًا ولا جهرًا ولا يخيف أحدًا منهم في أفق من الآفاق. شهد عليه فلان وفلان وكفى بالله شهيدًا». باقر شريف القرشي، **حياة الإمام الحسن ابن علي**، دار البلاغة، بيروت، 1993، ج2، ص226.

(2) **الطبري**، ج 5، ص 168.

(3) جعيط، **الفتنة**، ص 314.

(4) «كتب عبد الله بن عامر [مبعوث معاوية إلى الحسن] إلى معاوية شروط الحسن كما أملاها عليه، فكتب معاوية جميع ذلك بخطه، وختمه بخاتمه، وبذل عليه العهود المؤكدة والأيمان المغلظة وأشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام، ووجه به إلى عبد الله بن عامر، فأوصله إلى الحسن». ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص 200.

أبيه. لقد كان يعرف أن معاوية سيعمد إلى الانتقام ومحاربة الشيعة في أرزاقهم وأرواحهم. وستثبت الأيام أنه كان محقًا في ذلك.

لا شك أن ما قام به الحسن لم يكن مفهومًا حتى لدى شيعته والمقربين منه. حتى حجر بن عدي وسليمان بن الصرد الخزاعي عاتباه بعنف كما تنقل بعض المصادر. وكان على الإمام أن يصبر ويوضح لأصحابه سر الموقف الذي اتخذه، وأن يقول لهم إنّه تجنب إبادة جماعية لكل المؤمنين، واستئصالًا نهائيًا للإسلام في قيمه ومفاهيمه. كان يقول لأصحابه: «ما أردت بمصالحتي معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل»[1].

لم يكن الإمام يريد أن يعرف الناس حقيقة معاوية، ويعوا ما كان يحدث حولهم على نحو صحيح وهو يسلم السلطة إلى متمرد عنيد، فذلك ما كان واضحًا منذ البداية لدى العراقيين رغم خيانتهم. كانوا ربما يشكون في مشروعية الحرب وصوابية قرارات الإمام ولكنهم لم يكونوا يشكون في فساد معاوية.. ما كان للحسن أن يفعل ذلك لو كان يملك القوة التي تنهي تمرد حاكم الشام. إن انكشاف حقيقة معاوية بشكل نهائي أمام الجميع لم يكن سوى نتيجة للصلح. ولم يكن ذلك قط دافعًا للإمام من أجل تسليم السلطة.. لقد كان الإمام في موقع المضطر، وهو يسلم مفاتيح دولة إلى شخص طالما حاربه هو وأبوه، ولم يكن قط في موقع المختار كما قد يظن البعض.

بعد توقيع وثيقة الصلح، سيلتقي الطرفان في الكوفة. دخل معاوية بجيشه والتقى الجميع في المسجد الجامع. سبق معاوية إلى المنبر وجلس عليه ثم بدأ بإلقاء خطبة طويلة:

«يا أهل الكوفة، أترونني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون؟ ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم وألي رقابكم، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون! ألا كل دم أصيب في هذه الفتنة مطلول، وكل شرط شرطته فَتَحت قدمي هاتين!! لا يصلح الناس إلا ثلاث: إخراج

(1) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص 303.

العطاء عند محله، وإقفال الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره، فإن لم تغزوهم غزوكم». ثم نال من علي والحسن كما يقول أبو الفرج الأصفهاني[1].

إنه نص صريح يعلن فيه معاوية أنه كان يقاتل من أجل السلطة وليس من أجل دم عثمان كما كان يدعي وكما صدّق ذلك الكثيرون، ولكنه أيضًا نص يفضح حقيقة هذا الرجل الذي لم يتردد في الإعلان، بسرعة لافتة، عن نكثه كل العهود التي أعطاها للحسن. لقد أصبح الحسن بلا جيش ولا قاعدة وهو ما شجع معاوية على إعلان نكثه وغدره. لم يبق للحسن سوى لسانه، صعد المنبر ثم قال: «.. إن معاوية زعم أني رأيته أهلًا، ولم أر نفسي لها أهلًا، فكذب معاوية. نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله عز وجل وعلى لسان نبيه. ولم نزل أهل البيت مظلومين منذ قبض الله نبيه. فالله بيننا وبين من ظلمنا، وتوثب على رقابنا، وحمل الناس علينا، ومنعنا سهمنا من الفيء، ومنع أمنا ما جعل لها رسول الله. وأقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي حين فارقهم رسول الله لأعطتهم السماء قطرها والأرض بركتها، ولما طمعت فيها يا معاوية.. فلمّا خرجت من معدنها تنازعتها قريش فيما بينها، فطمع فيها الطلقاء وأبناء الطلقاء، أنت وأصحابك، وقد قال رسول الله: ما ولّت أمة أمرها رجلًا وفيهم من هو أعلم منه، إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالًا، حتى يرجعوا إلى ما تركوا..»[2].

لقد أراد الحسن أن يثبت أنه أولى من أي كان بمنصب الخلافة، وأنه عندما يضطر لتسليم السلطة، فإنه يتعرض بذلك لمظلمة، تمامًا كما تعرض من قبله علي لمظلمة مماثلة. إنها مَظْلمة لم تقتصر على علي والحسن، ولكنها شملت أحرار الأمة كلهم ولم تستثن حتى الدين نفسه، الدين الذي شوهت عقائده وأحكامه وقيمه على أوسع نطاق.

لم يقل الحسن إنه تنازل عن الخلافة أو خلع نفسه، بل قال إنه يسلم الأمر فحسب، وهذا يعني أن الحسن لم يشك لحظة أنه الخليفة الشرعي، وأنه

(1) **شرح نهج البلاغة**، م.س، ج 4، ص 16.

(2) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج 10، ص 114.

الجدير بهذا المنصب. فهو في النهاية الإمام الذي لا يقاس به أحد. وهذا التسليم للحكم، حيث لم تكن هناك بيعة كما هو الأرجح، لم يكن قط عن طيب خاطر كما تصور هشام جعيط[1]، بل كان ضرورة لابد منها. لقد بايع الناس الحسن، غير أنهم لم يكونوا مستعدين للدفاع عن خيارهم.

لن يقف أهل الكوفة إلى جانب الحسن واختاروا الصلح وتسليم الأمر إلى معاوية، لكنهم سيندمون بشدة، لأن معاوية لن يحترم أيًّا من تعهدات، وسيعاني المسلمون عمومًا والكوفيون خصوصًا ذلًا شاملًا. سيضع معاوية خطة حمراء وسيبدأ بإشاعة حالة من الإرهاب هدفها ملاحقة كل معارضيه من أجل قتلهم ومحاصرتهم والتنكيل بهم. كتب معاوية إلى عماله بعد «عام الجماعة»: «أن برئت الذمة ممن روى شيئًا من فضل أبي تراب وأهل بيته».

سيصبح لعن علي أغنية سمجة تنطلق على ألسنة كهنة معاوية في كل خطبة جمعة. سيستعمل زياد بن أبيه على الكوفة ليباشر عملية استئصالٍ لكل أنصار علي ما دام قادرًا على ذلك. لم يكتف معاوية بذلك، بل كتب أيضًا إلى عماله: «ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة» وهو التقليد الذي لا يزال يعمل به فريق من المسلمين. وأكد عليهم: «انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليًا وأهل بيته فامحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه» وشفع ذلك بنسخة أخرى: «من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره»[2]. إنها إذن حرب شاملة ضد علي وشيعته، فهو يأمر بإسقاط عدالتهم ومنعهم حقوقهم المالية وهدم بيوتهم والتنكيل بهم وصولًا إلى قتلهم بكل طريقة.

وقد صور الإمام محمد الباقر تلك المأساة بقوله: «.. فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكل من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين..»[3]. وكان من ضحايا هذا الحقد الأسود حجر بن

---

(1) جعيط، **الفتنة**، ص 318.

(2) **شرح نهج البلاغة**، ج 3، ص ص 15 ـ 16.

(3) **شرح نهج البلاغة**، ج 2، ص 43.

عدي وأصحابه ورشيد الهجري وميثم التمار وعمرو بن الحمق الخزاعي وأوفى ابن حصين والكثيرون غيرهم.

وفي المقابل كان معاوية يوصي بتكريم العثمانية وتفضيلهم، ووضع الروايات في شأن عثمان. وعندما أُتخم عثمان بهذه الروايات المكذوبة، بدأ معاوية يفكر في الخلفاء الآخرين الذين خدموا طموحاته فكتب إلى عماله «فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة الخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله»[1]. وفي كتاب مماثل: «إن الحديث قد كثر في عثمان ـ بسبب كثرة الوضع الذي أمر به في شأنه ـ فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوهم إلى الرواية في أبي بكر وعمر»[2].

ولم ينس معاوية إصدار أوامر مماثلة لوضع روايات قبيحة في علي، من أجل الطعن فيه والبراءة منه. وكان في كل ذلك يقدم الأعطيات السخية للمشتغلين بذلك وكان منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وعروة بن الزبير..[3].

لقد سبق لأبي بكر وعمر وعثمان منع رواية الحديث خوفًا من شيوع فضائل علي بين الناس، وحجبًا للأحاديث التي تفضح الكثير من الحقائق، وفسحًا في المجال لتأويل القرآن على أساس الأهواء والعبث بأحكام الدين.. وها هو معاوية يخطو الخطوة الثانية ويأمر برواية أحاديث في فضائل موهومة للخلفاء الثلاثة، وأخرى في الطعن في علي والبراءة منه.. ورغم ذلك كله فإننا نجد المحدث المعروف أحمد بن حنبل يقول: «ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي»[4]. ويؤكد ذلك إسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري:

---

(1) م ن، ج 3، ص 15 ـ 16.

(2) م ن، صص15 ـ 16. والمؤسف أن هذه الأوامر الواضحة بوضع الحديث في شأن الخلفاء الأوائل يتم إهمالها والتعتيم عليها على نطاق واسع.

(3) م ن، ج 3، ص 16. وج 1، ص 358.

(4) ابن حجر، **الصواعق المحرقة**، ص 72.

«لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان أكثر مما جاء في علي»[1].

ولم يكتف معاوية بذلك، بل إنه عمد إلى إثارة الغرائز القبلية والقومية والإقليمية ليشغل الناس بمعارك جانبية لتظهر إلى السّطح الأحقاد بين العرب والعجم، والقسيسين والمضربين، وأهل المدينة وأهل اليمن، والعراقيين والشاميين.. وكان الشعر والشعراء أنجع الوسائل التي استخدمها معاوية في ذلك كله.

ومن أجل أن يوصل معاوية مشروعه حتى النهاية، كان لابد من التخلص من الحسن الذي ربما بايعه الناس بعد موته. فدس له السم بواسطة زوجته جعدة بنت الأشعث من أجل إخلاء الساحة لابنه يزيد الغارق في نزواته هو الآخر. سيأخذ معاوية البيعة لابنه في حياته مكرسًا بذلك الطابع القيصري لحكمه.. سيفعل ذلك رغم معارضة الشرفاء من الأمة.

نقض معاوية كل بنود الصلح تقريبًا، فقتل وشرد وحاصر من استطاع من شيعة علي. فعل ذلك رغم أنه استلم السلطة على أساس اتفاق وعهود. ولو قدر له أن يستولي على السلطة بقوة السيف لكان المشهد أكثر فظاعة بما لا يقاس. كان المستهدف في حياة معاوية علي وشيعته بشكل أساسي، لكن وصول يزيد إلى السلطة، سيجعل الإسلام نفسه هو المستهدف بشكل مباشر. لم ينتفض الحسين في حياة معاوية واكتفى بالتنديد بممارساته كما فعل الحسن. لكنه مع وصول يزيد سيخرج عن صمته ليرفض البيعة له ومن ثم الثورة عليه. لقد رأى أن الأمويين كانوا جادين في «دفن الإسلام» ـ كما هي عبارة معاوية ـ وأصبح ذلك هدفًا جديًا ومباشرًا مع وصول يزيد إلى السلطة.. وكان على الإمام أن يقدّم نفسه فداء لهذا الدين حيث لا أحد غيره يقدر على ذلك.

فعندما يصبح شخص، متهتك لا يحترم شيئًا من أحكام الدين وقيمه ويتظاهر بكل الموبقات، حاكمًا للمسلمين، فإن ذلك يعني بداية نهاية الدين[2].

---

(1) م ن، ص 72.

(2) من الواضح، كما تؤكد المصادر التاريخية، أن يزيد كان متهتكًا يتظاهر بانتهاك المحرمات ويترك الصلاة بعكس أبيه الذي كان يحرص على التظاهر بالتزام أحكام الدين حتى =

لقد كان يزيد بهذا السلوك يدعو الناس إلى ذلك. وسيتضح الأمر أكثر عندما سيستهدف الكعبة وينتهك حرمة المدينة في وقعة الحرة.

رفض الحسين مبايعة يزيد عندما طلب منه ذلك، لأن هذه البيعة لن تكون إلا تزكيةً ليزيد المتهتك وحكمه الفاسد، وإقرارًا بالنظام الملكي الذي أراده معاوية.. ولو فعل الحسين ذلك لانتهى أن يكون إمامًا يُقتدى به.. كان الحسين أمام خيارين؛ إما البيعة وإما القتل، فاختار الموت شهيدًا. ورغم أن الموت كان قدر الحسين، إلا أنه اختار كيف يموت وأين يموت ومتى يموت. لقد أشار عليه الكثيرون بالبقاء في مكة فرفض لأنه لم يكن يريد أن تنتهك حرمة البيت الحرام حيث صدر الأمر بقتله ولو كان معلقًا بأستار الكعبة. ونصحه آخرون بالذهاب إلى اليمن لكنه رفض أيضًا لأنه لم يكن يريد أن يقتل غيلة في مكان بعيد فينسب قتله إلى مجهولين ويتملص منه الأمويون.

أراد الإمام الحسين أن يموت في قلب العالم الإسلامي وأن يكون القتلة مفضوحين تمامًا من أجل أن تكون شهادته محققة لأهدافها.. وكانت أدنى هذه الأهداف الإبقاء على الإسلام في مظاهره العبادية ومفاهيمه المركزية بعد أن انتهكت قيمه وشوهت أحكامه على أوسع نطاق. إن امتناع حكام المسلمين على امتداد التاريخ عن التظاهر بفسقهم، والتظاهر بالالتزام الديني في مقابل ذلك هو من بركات ثورة الحسين. وهذا ليس شيئًا قليلًا، لأن ذلك هو ما أعطى الإسلام استمراره وحياته. ففرق بين أن يحارب الحاكم الدين بشكل علني، وبين أن يتظاهر بالالتزام بأحكامه حتى لو كان ذلك نفاقًا ورياء.

= وإن كان ذلك دون حقيقة، وكان معاوية ينصح ابنه بذلك ويقول له إن لك في الليل متسعًا لإشباع نزواتك.. وتهتك يزيد هذا كان وحده سببًا كافيًا لرفض الحسين البيعة.

المصادر

1 ـ الأزرقي، محمد بن عبد الله، **كتاب أخبار مكة**، بيروت، د.ت.

2 ـ ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، القاهرة، 1965.

3 ـ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، 1965.

4 ـ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1989.

5 ـ ابن إسحاق، محمد، **سيرة سيدنا محمد**، تهذيب عبد الملك بن هشام، غوتنغان، 1276هـ.

6 ـ ابن الأعثم الكوفي، أبو محمد أحمد، **كتاب الفتوح**، حيدر آباد الدكن، 1974.

7 ـ ابن الجزري، **غاية النهاية في طبقات القراء**، نشر وتحقيق س. برغستر اشر القاهرة، 1932.

8 ـ ابن الجوزي، سبط، **تذكرة الخواص**، طهران، د.ت.

9 ـ ابن حبيب السكري، **المحبر**، حيدر آباد، 1942.

10 ـ ابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، حيدر آباد، 1327هـ.

11 ـ ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق ونشر عبد السلام هارون، القاهرة، 1962.

12 ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، بيروت، 1961.

13 ـ ابن دريد، **كتاب الاشتقاق**، بيروت، 1979.

14 ـ ابن سعد، محمد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، 1974 ـ 1977.

15 ـ ابن شبة، عمر، **تاريخ المدينة**، المدينة، د.ت.

16 ـ ابن عبد الحكم، عبد الرحمن، **فتوح مصر**، نشر س. ساتوري، نيوهافن، 1922.

17 ـ ابن عساكر، أبو القاسم علي، **تهذيب تاريخ دمشق**، د. ت.

18 ـ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله الدينوري، **الإمامة والسياسة**، تحقيق علي شيري ط 1، قم ـ منشورات الشريف الرضي 1413 هـ.

19 ـ ابن كثير، **البداية والنهاية**، بيروت ط3، 1988 م.

20 ـ ابن مزاحم، نصر، **كتاب وقعة صفين**، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1981م.

21 ـ ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت 1955م.
22 ـ ابن النديم، **الفهرست**، تحقيق رضا تجدد، طهران 1971م.
23 ـ ابن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، سلسلة تراث الإسلام، مطبعة مصطفى البابي الحلبي،القاهرة، 1955.
24 ـ أبو الفرج الأصبهاني، **مقاتل الطالبيين**، بيروت، د ت.
25 ـ أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ط 2، القاهرة، 1305 هـ.
26 ـ البرادي، **كتاب الجواهر**، ط حجرية، 1302هـ.
27 ـ البلاذري، 1 ـ **فتوح البلدان**، القاهرة 1932م.
2 ـ **أنساب الأشراف.**
القسم الثاني، جزء 1 و2، تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت 1974م.
القسم الرابع، ج 1، تحقيق ا. عباس، بيروت 1979م.
القسم الرابع، ج 2، تحقيق م. سلوسنغار، القدس 1938م.
القسم الخامس، تحقيق س. غويتاين، القدس، 1936م.
28 ـ الجاحظ، **كتاب البلدان**، العلي، بغداد، 1970م.
29 ـ الجاحظ، **العثمانية**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1955م.
30 ـ خليفة بن خياط، **التاريخ**، النجف الأشرف، 1968م.
31 ـ الدينوري، أبو حنيفة، **الأخبار الطوال**، القاهرة، 1960م.
32 ـ الزبيدي، **تاج العروس**، بيروت، 1955 م.
33 ـ السنجري، طالب، **حياة محمد ﷺ في أحاديث الشيعة**، دار الطالب، بيروت، د.ت.
34 ـ الطبرسي، **الاحتجاج**، النجف الأشرف، 1966م.
35 ـ الطبري، محمد بن جرير، **كتاب الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1960 ـ 1969م.
36 ـ **القرآن الكريم**.
37 ـ المسعودي، **مروج الذهب**، بيروت، 1966م.
38 ـ المقريزي، **الخطط المقريزية**، دار صادر، بيروت، دت.
39 ـ مؤلف مجهول، **تاريخ الخلفاء**، د ت.
40 ـ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت، 1957م.
41 ـ اليعقوبي، **التاريخ**، بيروت، 1960م.

المراجع

1 ـ رضا كحالة، **معجم قبائل العرب**، ط 2، بيروت، 1978م.

2 ـ صالح أحمد العلي، **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري**، ط 2، بيروت 1969.

3 ـ صالح أحمد العلي، **دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام**، بيروت، 1983م.

4 ـ طه حسين، **الفتنة الكبرى**، القاهرة، 1953م.

5 ـ عبد العزيز الدوري، **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام**، بيروت، 1960م.

6 ـ علي الدشتي، **23 عامًا: دراسة في الممارسة النبوية المحمدية**، ترجمة ثامر ديب، دار تبرا، دمشق 2009.

7 ـ علي شريعتي، **محمد ﷺ من الهجرة إلى الوفاة**، دار الهدى، طهران، 1989م.

8 ـ علي الوردي، **وعاظ السلاطين**، دار كوفان، بيروت، 1995م.

9 ـ الفاضل الأنصاري، **قصة الاستبداد**، دمشق، 2004م.

10 ـ محمد باقر الصدر، **أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف**، دار التعارف، بيروت، د.ت.

11 ـ محمد سعيد العشماوي، **الخلافة الإسلامية**، دار الانتشار، بيروت، 2004م.

12 ـ محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004م.

13 ـ محمدي ريشهري، **موسوعة الإمام علي بن أبي طالب**، 12 ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000م.

14 ـ هشام جعيط، **الفتنة**، دار الطليعة، بيروت، 1993م.

15 ـ هشام جعيط، **تاريخية الدعوة المحمدية في مكة**، دار الطليعة، بيروت، **2007**م.

إن دراسة المرحلة التأسيسية في تاريخ الإسلام ليست مجرد فضول علمي، ولا هي محاولة لنكء الجراح، بل إن ذلك يقع في قلب الجهود التي تُبذل من أجل قراءة الإسلام قراءة علمية بعيداً عن عمليات التزوير والتعمية التي أرادت التغطية على كل ما حدث. إن الحقيقة التي يهرب منها الكثيرون هي أن سياسات التجهيل والتزوير والاستبداد والقمع والتقتيل والتشريد والفساد التي خضع لها المسلمون بشدة قروناً طويلة، تم التأسيس لها منذ تلك المرحلة.. وقد أصبح ضرورياً اليوم إخضاعها برمتها للنقد العلمي الصارم الذي لا يجامل على حساب الحقيقة.

ولن ينجح المسلمون في الخروج من تخلفهم ما داموا يفهمون دينهم كما أراد لهم رموز الاستبداد والفتنة، وما داموا ينظرون إلى مرحلة كاملة من تاريخهم بعين القداسة دون القدرة على تجاوز تداعياتها التي ما زالت تتلبس بهم حتى اليوم.

إن كل ما حدث بعد وفاة النبي(ص) لابد له أن يخضع، عند تقييمه، للموضوعية العلمية المنطلقة على أساس معطيات التاريخ باعتباره المقياس الذي لا غنى عنه لمعرفة حجم الانقلاب الذي طرأ على سلوك المسلمين الأوائل بعيداً عن هالة القداسة المزيفة التي أُضفِيَتْ عليهم، والتي استقر بسببها ذلك الخلط المستحكم بين إسلام الوحي والتاريخ الذي صنعه الطغاة وأدواتهم وكُتب باسم هذا الدين دون وجه حق.

ISBN 978-614-404-565-7

